

(٩٩٧)

وقد جرت العادة

ما ذكر المصنفون أنه جرت به العادة في وقتهم من كتب التراث

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

"فإذا الجرذ قد انتزع إحدى عينيه فأكلها فتعجب الناس من عين أصاب مثل ايتاخ في عظم الشأن من نظرها ما أصاب. ثم بعد ساعة أكلها أخس الحيوان.

وفي الحكاية المعروفة أن بعض العرب سئل: ما الذي تأكلون من حيوان البرّ قال: كل ما دب ودرج إلا أم حبين. قال: فلتهن أم حبين العافية عني من كل تطويل.

وقوله:

أقبلتُها غررَ الجياد كأنّما ... أيدي بني عمران في جبهاتها

أقبلتها أي أقبلت بها إليها. وسيرتها مقبلة لها.

قال الراعي:

يَمشين مشيَ الهجان الادم أقبلها ... خل الكوودِ هدان غير مُهتاجِ

وعنى بالأيدي هنا النعم من قولهم: لفلان عندي يد بيضاء. **وقد جرت العادة في** جمع يد النعمة بالأيادي، وهي جمع الجمع. وفي يد الأعضاء بالأيادي. وقد استعمل أبو الطيب هذه في مكان تلك فقال:

قتل الأيادي وذوات الأرجل

وقد جاء ذلك عن العرب في كثير من أشعارهم. فمنها قول عدي:." (١)

"وقوله:

أرانب غير انهم ملوك ... مفتحة عيونهم نيام

قال الشيخ أبو الفتح: المعهود في مثل هذا أن يقال: هم ملوك إلا أنهم في صور الأرانب. فتزايد وعكس الكلام مبالغة فقال: أرانب غير انهم ملوك. فجعل الأرانب حقيقة لهم والملوك مستعاراً منهم. وهذه عادة منه يفارق بها أكثر الشعراء. وهذا على ما قله غير أن الذي أتى به أبو الطيب أحسن في مذهب الشعراء وبقي من الشعر ما يستغنى عنه، وهي أرانب. **وقد جرت العادة بأن** تشبه في الذلة والخسة بالكلاب، وفي الروغان والجبن بالثعالب. ولم نسمع أحدا قال عند السب والذم هو أرنب. وقد سألت عن ذلك بعض من حضر من أهل الأدب فقال: أراه قال ذلك لأن الأرانب تحيض. فهو يدعي أنهم كالنساء اللواتي يحضن. ولو كان كما زعم لكان الأولى أن يقول: نساء. ليجمع الضعف والذلة إلى الحيض. والقول فيه ما أقول: وذلك أن الأرنب لا يطبق جفنه يقضان ولا نائما، ولا حيا ولا ميتاً. فهو يقول: عيونهم مفتحة كالأيقاظ، وهم في الحقيقة نيام، فهم في ذلك أشباه الأرانب مع ذلتها

---

(١) الفتح على أبي الفتح، ابن فورجة ص/٩١

ودناءة قدرها. وإذا كان ذلك موجوداً في الأرانب فالذي يحكى أن الذئب ينام بإحدى مقلتيه ويحترس بالأخرى (غير ممتنع ولعله مما يطبق جفنا واحدا فظن الشاعر إنه يحترس بالأخرى) فقال:." (١)

"وقريب منه قوله:

سهرت بعد رحيلي وحشة لكم ... ثم استمر مريري وارعوى الوسن

وقول البحتري:

لعمرك ما المكروه إلا ارتقابه ... وأبرح مما حل ما يتوقع

وقوله:

كأنَّ رقاب الناسِ قالت لسيفه ... عدوّك قيسي وأنت يماني

هذا من أفراد أبيات أبي الطيب المتنبي بل من أجود جيده. وذاك أن شبيبا هذا

الخارجي عربي من بعض بطون قيس عيلان. وبينهما وبين اليمن عداوة ما قد شهر. **وقد جرت العادة بنسبة** السيوف إلى اليمن. ثم أن شبيباً قتل. فيريد إنه قتل بسيف نفسه، ولم يقتله كافور. فيريد كأن الرقاب لما حل بها من عظيم ضربه لها أرادت التغريب بينه وبين سيفه فقالت لسيفه: أنت يمني ورفيقك من قيس عيلان فهلا قتله. فسمع منها ما قالت فقتلته طالباً ترة نفسه، وترة اليمن في قيس عيلان. فانظر ما أحسن ما عبَّر عن قتله على يد كافور وهذه القصيدة من أولها إلى آخرها هجو (لكافور) ومدح لشبيب ومعرضها مدح كافور، وذم شبيب. فتأمل، فالصنعة فيها عجيبة جداً.." (٢)

"قال: يتلفت يمنة وشامة.

وأقول: ليس في البيت ما يدل على ذلك، والتلون هنا هو تغير اللون خوف الهلاك بالضلال كتلون الحرباء، وتلونه مذكور مشهور.

وقوله: الكامل

لا تكثر الأموات كثرة قلة ... إلا إذا شقيت بها الأحياء

قال: إن الأحياء إذا بك كثر الأموات، وترك الكثيرة يؤدي القلة، إما لأن الأحياء يقلون بمن يموت، وإما لأن الميت يقل بنفسه.

وأقول: إن تقسيمه هذا ليس بحسن، بل كان ينبغي له أن يقول: إن قوله: كثرة قلة، لا تخلو قلة من أن

---

(١) الفتح على أبي الفتح، ابن فورجة ص/٣٠٥

(٢) الفتح على أبي الفتح، ابن فورجة ص/٣٤٠

تكون للأموات أو للأحياء، فإن كانت للأحياء؛ فلا فائدة في ذلك؛ لأن الكثير في الأموات قلة في الأحياء، وإن كانت للأموات، وهو الصحيح **فقد جرت العادة أن** زيادة الشيء يكون لفائدة، ولا فائدة في كثرة الأموات؛ فكثرتهم بمنزلة القلة؛ فهذا هو المعنى.

وأما قوله:

. . . . . . شقيت بك الأحياء

فقد قيل فيه: إن معنى بك بموتك وهو قول أبن جني.

وقيل: ببأسك." (١)

"الزجاج: الدين يجمعهم فهم إخوة إذا كانوا متفقين في دينهم فرجعوا بالاتفاق في الدين إلى أصل النسب، لأنهم لآدم وحواء، قال بعضهم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

ولنعم ما قيل:

القوم إخوان صدق بينهم سبب ... من المودة لم يعدل به نسب

وذلك أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة لم ينقص عنها ثم **قد جرت العادة على** أنه إذا نشأ مثل ذلك بين الأخوين ولادا لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته بالصلح بينهما، فالأخوة في الدين أحق بذلك.

(فأصلحوا بين أخويكم) يعني بين كل مسلمين تخاصما وتقاتلا، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر مضافا إلى المأمورين بالإصلاح، للمبالغة في التقرير والفاء للإيذان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح أو تخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فرقهما بطريق الأولى لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين، قرأ الجمهور على التثنية، قال أبو علي الفارسي في توجيهها: أراد بالأخوين الطائفتين، لأن لفظ التثنية قد يرد ويراد به الكثرة، وقال أبو عبيدة: أي أصلحوا بين كل أخوين، وقرىء إخوانكم بالجمع وقرىء أخوتكم بالفوقية على الجمع أيضا.

---

(١) المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، المهلبي، أبو العباس ٣/٩

(واتقوا الله) في كل أموركم (لعلكم ترحمون) بسبب التقوى، والترجي باعتبار المخاطبين أي راجين أن يرحموا، أو لعل من الله في هذا المقام." (١)

"كانوا يتدارسونه من المسائل والمواضيع المختلفة، فسررنا غاية السرور من نتيجة التعليم وآداب التلاميذ، وشكرنا ذلك الأستاذ الناظر الّذي يرجع إليه الفضل في بلوغ هؤلاء الأحداث إلى مثل هذه النتيجة المحمودة. ومن هناك قصدنا توّاً إلى زيارة الكلية الأمريكانية.

كلية الأمريكان

وكانت هذه الكليّة من ضخامة العمارة وسعة المساحة وجمال الموضع والبناء، بحيث تنطبق تمام الانطباق على شهرة الأمريكان، وما يعرف لهم من الغنى الواسع والثروة الطائلة. على أنّه قيل لنا إن تلك الكلية لم تقف حتّى الآن عند حدّ محدود، سواء من كثرة البساتين أو من الأقسام والعمائر، بل هي لا تزال تزداد في كلّ سنة زيادة محسوسة بفضل ولاة الأمر فيها وتواصل عنايتهم بها. وعندما نزلنا من مركباتنا، وجدنا على مدخل المدرسة جناب رئيسها المحترم الّذي كان قد خرج إلى هذا المكان ليستقبلنا عنده، وقد اصطفّ بجانبه التلاميذ المصريّون فاستقبلونا جميعاً بالحفاوة والاحترام. ثمّ ما كدنا نخطو أوّل خطوة من الباب حتّى خاطبنا ذلك الرئيس بعبارات تدلّ على كرم أخلاقه ووداعة نفسه، فقال: إنّي أتشرّف كثيراً بزيارة دولتكم هذه كما يتشرّف تلاميذ المدرسة عموماً، وخصوصاً التلاميذ المصريّين. وقبل أن تتفضّلوا بزيارة المدرسة، أستميحكم العفو فيما أريد أن أتشرّف بإبلاغه إلى دولتكم وإنباهكم إليه. فقلنا له نحن مستعدّون أن نفهم من جنابك ما تريد. فقال أتشرّف بتفهيم دولتكم أنّه **قد جرت العادة في** زيارة هذه الكلية بأنّ الزائر لابدّ أن يبدأ قبل كلّ شيء بزيارة المعبد حيث تقام فيه الصلاة، كما أنّه من الضروري أنّ الزائر لا يبرح يشهد تلك الصلاة ويسمعها حتّى تنتهي. لذلك أرجو دولتكم أن تتفضّلوا بحضور الصلاة في المعبد وفاق العادة. فقلت له يا جناب الرئيس، إنّي وإن كنت امرءاً مسلماً محتفظاً بديني متمسكاً به دائماً ومحبّاً له جدّاً، غير أنّي مع هذا نشأت منذ صغري على حرية الضمير وإطلاق الفكر، ولست أذكر في كلّ عمري الّذي عشته أنّي خضعت لشيء حيث كان إلا بعد أن أتبيّن أنّه حقّ صحيح. هذا هو مبدئي ما." (٢)

"عليه بأن يكون حاكما لها، **وقد جرت العادة أيضا** أن يتبرع من حين إلى حين ببعض المال للأغراض أو الألعاب العامة. وإذ كان المنصب لا ينال عليه صاحبه أجرا فإن ديمقراطية الأحرار– أو

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٤٢/١٣

(٢) الرحلة الشامية، الأمير محمد علي ص/١٥١

أرستقراطية الأحرار– قد استحالت في كل مكان تقريبا الجركية يتولاها ذوو المال والجاه.

وظلت البلديات مائتي عام من عهد أغسطس إلى عهد أورليوس في رخاء وازدهار. ولسنا ننكر أن الكثرة الغالبة من أهلها كانت من الفقراء بطبيعة الحال؛ فقد تكفلت الطبيعة والمميزات المختلفة بإيجاد هذه الحال ولكن التاريخ لم يحدثنا قط عن عهد من العهود، قبل هذا العهد أو بعده، فعل فيه الأغنياء للفقراء قدر ما فعله أغنياء هذه المدائن لفقرائها: ذلك أن نفقات إدارة المدينة كلها تقريبا، وما يلزم من المال لتمثيل المسرحيات، وغير ذلك من ضروب التسلية، والألعاب، وتشييد الهياكل، ودور التمثيل، والملاعب؛ ومدارس التدريب الرياضي، والمكتبات العامة، الباسلقات، والقنوات التي تنقل ماء الشرب للمدن، والقناطر والحمامات، وتجميل هذه كلها بالأقواس والأروقة ذات العمد، والصور والتماثيل، كانت كلها يتحملها ذوو اليسار. وقد ظل الوطن طوال المائتي عام الأولى من عهد الإمبراطورية يدفع أولئك الأقوام إلى التنافس فيما بينهم للقيام بهذه الأعمال الخيرية تنافسا أدى في بعض الأحيان إلى إفلاس عدد من الأسر التي كانت تمولها، أو المدن التي تتكفل بها بعد إقامتها من مال الأغنياء. **وقد جرت العادة في** أيام القحط أن يبتاع الأغنياء الطعام ويوزعوه من غير ثمن على الفقراء، وكانوا في بعض المناسبات يقدمون لجميع المواطنين؛ ولجميع السكان أحيانا، زيتا أو خمرا بالمجان، أو يقيمون لهم وليمة عامة، أو يهبونهم قدرا من المال. وخلدت النقوش الباقية إلى الآن كثيرا من هذا السخاء. فها هو ذا مثر من أصحاب الملايين يهب مدينة ألتينم في فنيشيا ١. ٦٠٠. ٠٠٠ سسترس لإقامة حمامات عامة، وها هي ذي سيدة تشيد هيكلا ومدرجا في كسينم Casinum؛." (١)

"المسلمين إلى الصلاة (١). ويستحب في هذا اليوم أن يستحم المصلون، ويلبسوا أثوابا نظيفة، ويتعطروا، قبل المجيء إلى المسجد، فإن لم يكونوا قد اغتسلوا فإن عليهم أن يتوضأوا في المسجد (٢).

وقد جرت العادة أن تبقى النساء في بيوتهن حين يذهب الرجال إلى المساجد، خشية أن يشغل وجودهن وإن كن محجبات بعض الرجال عن التوجه بأرواحهم كلها إلى الله. ويترك المصلون أحذيتهم عند باب المسجد، ويدخلونه حفاة أو بالأخفاف أو الجوارب، فإذا حان موعد الصلاة وقفوا جنبا إلى جنب صفا واحدا أو عدة صفوف، وولوا وجوههم نحو المحراب الذي يعين موضع القبلة أو اتجاه مكة. ويقوم الإمام ويعظ الناس بخطبة قصيرة ثم تقام الصلاة ويتلو الإمام آيات من القرآن، وكذلك يفعل المصلون أو يكتفون بتلاوة الفاتحة، ويؤدون الصلاة بشعائرها المعروفة من ركوع وسجود وتحيات. وليس في صلاة المسلمين

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٢٣/١١

أناشيد، أو مواكب، أو قداس، أو مقاعد مستأجرة، ذلك أن الدين والدولة شيء واحد عند المسلمين، ولهذا فإن الشؤون الدينية ينفق عليها من الأموال العامة. وليس الإمام كاهنا كالقس عند المسيحيين بل هو رجل عادي يكسب قوته بعمل دنيوي يؤديه، ويعين في المسجد فترة من الزمان، ويتقاضى أجرا قليلا ليؤم المصلين (٣)؛ فالدين الإسلامي لا يعترف بالكهانة والقساوسة. والمسلمون بعد صلاة الجمعة أحرار يستطيع من أراد منهم أن يؤدي عمله المعتاد كما يؤديه في أي يوم آخر. وحسبهم أنهم قد توجهوا إلى ربهم ساعة من الزمان تطهرت فيها نفوسهم وسمت فوق

(١) يحدث هذا أحيانا ولكن الآذان الشرعي مرة واحدة ويقتصر على التكبير والشهادتين والدعوة إلى الصلاة والفلاح والتكبير والشهادة. (ي)

(٢) ليس على المسلم أن يتوضأ في المسجد بل الذي عليه أن يكون متوضئا قبل الصلاة في البيت أو في المسجد على حد سواء.

(٣) ومن الأئمة من لا يتقاضى أجرا. وفي الصلوات الخمس يستطيع أي إنسان أن يؤم المصلين إن كان أهلا لهذه الإمامة. (ي)." (١)

"امتت في المسجد الحقيقي أي من مكان الصلاة–الذي كان يعلوه في ذلك الوقت على الدوام تقريبا قبة كبيرة–امتدت منه أربعة أجنحة لكل منها مآذنه الخاصة ومدخله الكثير الزخارف، وقاعاته الرحبة للمحاضرات. **وقد جرت العادة في** أغلب الأحيان أن يكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة جناح خاص، ويقول أحد سلاطين ذلك الوقت في صراحة: إن ذلك يتيح الفرصة لوجود مذهب منها في القليل يؤيد أعمال الحكومة القائمة. وقد استمر هذا الانقلاب في العمارة في عهد المماليك فأنشئت الساجد والمقابر الضمة التينة من الحجارة، تحرسها أبواب قوية كبيرة من البرونز المشغول، وتضيؤها نوافذ ذات زجاج ملون؛ وتتلألأ فيها الفسيفساء، والنقوش المحفورة في الجص الملون، وقع القرميد التي قاومت حتى الآن عوادي الزمان والتي لم يعرف طريقة صنعها غير المسلمين.

وقد درست الآثار المعمارية السلجوقية فلم يبق منها إلا أقل من واحد في المائة، نذكر من هذه البقية القليلة مسجد آني في أرمينية، والمدخل الفخم لمدخل قونية، ومسجد علاء الدين الفخم، والمدخل الكهفي، والواجهة ذات النقوش الشبيهة بالتطريز في جامع سرتجيلي، ونذكر منها في بلاد النهرين مسجد الموصل

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ١٢١/١٣

الكبير، ومسجد المستنصر في بغداد، وفي فارس برج طغرل بك في الري وقبر سنجر في مرو، والمحراب المتلألئ في مسجد همذان، والقبة المضلعة والعقود الصغيرة الفذة في السجد الجامع بقزوين، والعقود الكبرى والمحراب في جامع الحيدرية، وليست هذه إلا قلة من الصروح التي بقيت حتى الآن شاهدة على ما بلغه السلاجقة من حذق في العمارة وما بلغه ملوكهم من سمو في الذوق. وأجمل من هذه كلها المسجد الجامع في إصفهان الذي لا يدانيه في بلاد الفرس كلها إلا مسجد الإمام الرضا في مشهد والذي أقيم بعد ذلك الوقت. ومسجد إصفهان هذا أروع الآيات الفنية كلها في عصر السلاجقة. وقد أقيمت أجزاء من هذا." (١)

"أو رئيسا يتوسط بينهم وبين المالك وينسق نشاطهم الزراعي. وكانوا يجتمعون في السوق في فترات معينة ليتبادلوا السلع، وكان هذا التبادل هو البقية الباقية من التجارة في هذه الضيعة المكتفية بنفسها من الناحية الاقتصادية. فقد كان البيت الريفي ينتج بنفسه ما يلزمه من الخضر وبعض ما يلزمه من اللحوم، ويغزل صوفه أو كتانه، وينسج معظم ما يحتاجه أفراد من الثياب. وكان حداد القرية يصنع الآلات الحديدية، ودابغ الجلود يصنع البضائع الجلدية، والنجار ينشئ الأكواخ ويصنع الأثاث، وصانع العربات يصنع المركبات، والقصابون، والصباغون، والبناءون، وصانعو السروج، والحذاؤون، والصبانون ... كان كل هؤلاء يعيشون في القرية أو يأتون إليها ليقيموا فيها بعض الوقت ليصنعوا ما يطلب إليهم صنعه، وكان القصاب العام أو الخباز ينافس الفلاح وزوجته في إعداد اللحم والخبز.

وكانت تسعة أعشار الاقتصاد الإقطاعي قائمة على الزراعة. **وقد جرت العادة في** فرنسا وإنجلترا في القرن الحادي عشر أن تقسم أرض المزرعة إلى ثلاثة حقول: أحدها يزرع قمحا أو شيلما، وثانيها شعيرا أو شوفانا، ويترك الثالث بورا. وكان كل حقل يقسم قطعا مساحة كل منها نحو فدان إنجليزي أو نصف فدان يفصل كل منها على الأخرى حاجز من أرض غير محروثة. وكان موظفو القرية يحددون لكل زارع عددا مختلفا من القطع في كل حقل ويحتمون عليه أن يتبع فيها دورة زراعية تجري على خطة يضعها مجتمع القرية. وكان الأهلون مجتمعين يقومون في الحقل بالعمليات الزراعية كلها من حرث وتمهيد، وغرس وبذر، وحصاد. ولعل توزيع قطع الفلاح الواحد بين ثلاث حقول أو أكثر كان يهدف إلى إعطائه نصيبا معادلا لنصيب غيره من الأراضي غير المتساوية الخصوبة، ولعل هذه القرية التعاونية كانت باقية من شيوعية بدائية لا تزال آثار

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٣٣٣/١٣

قليلة منها باقية في هذه الأيام. وكان من حق كل فلاح يؤدي ما عليه من الواجبات الإقطاعية بالإضافة إلى زرع." (١)

"النظرية جميع إيراده في السنة الأولى، ولكنها كانت من الوجهة العملية تصف هذا الإيراد؟ وذلك نظير تثبيته في منصبه. وكذلك كانت مبالغ كبيرة تنتظر ممن يعينون رؤساء أساقفة، وكان يطلب إلى كل بيت من البيوت المسيحية أن يرسل إلى الكرسي بنسا سنويا (٩٠ slash100 من الريال الأمريكي) يعرف باسم "بنسات بطرس". **وقد جرت العادة على** أن تفرض رسوم على القضايا التي تعرض على المحكمة البابوية. وكان البابوات يدعون لأنفسهم حتى لخروج على القانون الكنسي في بعض الحالات، كالإذن بزواج من يحرم زواجهم من ذوي القربى إذا بدا لهم أن ثمة غاية سياسية طيبة تبرر هذا الخروج، وفرضت أجور على الإجراءات القضائية التي يتطلبها هذا العمل. كذلك جاءت إلى البابوات أموال طائلة ممن ينالون صكوك الغفران البابوية، ومن الحجاج القادمين إلى روما. وقد حسب دخل الكرسي البابوي في عام ١٢٥٠ فكان أكثر من دخل رؤساء الدول الأوروبية الزمنين مجتمعين (١٤٩). ولقد تلقى البابا من إنجلترا في عام ١٢٥٢ ثلاثة أمثال إيراد التاج (١٥٠).

ومهما تكن ثروة الكنيسة متناسبة مع اتساع وظائفها، فقد كانت هذه الثروة أهم أسباب الإلحاد في هذا العصر. فقد أعلن آرنلد البرشيائي Arnold of Brescia أن كل قس أو راهب يموت وله ملك مآله النار لا محالة (١٥١). وزاد البجوميل Bogoniles والولدنس Waldenses والباترين Paterines والكاثاري Cathari على ذلك فشنوا حملة شعواء على ثروة أتباع المسيح. وكان من قصائد الهجاء المتداولة في القرن الثالث عشر قصيدة عنوانها "الإنجيل حسب الماركات الفضية" مطلعها: "وقال البابوات للرومان في تلك الأيام: إذا جاء ابن الإنسان إلى مقعد جلالتنا فيكن أول ما تقولون: أيها الصديق لم جئت إلى هذا المكان؟ فإذا لم يعطكم شيئا فألقوا به في الظلمات الخارجية" (١٥٢). وإنا لنجد في جميع آداب ذلك الوقت – في الأقاصيص الخرافية؛ وفي الأغاني، وفي قصة الوردة Roman de La Rose." (٢)

"الخلفية منهما والأمامية، وعقدان ممتدان على طولي القطرين ويصلان بين إحدى الدعامات ودعامتين متقابلتين لها في عرض الصحن، وقد يكون هناك عقدان آخران ممتدان إلى دعامتين مقابلتين يعلوان فوق عرض الممشى. **وقد جرت العادة أن** يكون لكل عقد ركيزته الخاصة فوق عصابة الدعامة أو

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٤١٧/١٤

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت ٧٢/١٦

تاجها. وكان يحدث أحيانا ما هو خير من هذا فيكون مستطيل كل عقد في خط غير منقطع حتى يصل إلى الأرض ليكون طائفة من العمد المتجمعة أو الدعامات المركبة. وكان الأثر الذي ينتج من هذه العمد والدعامات الرأسية من أجمل خصائص الطرازين الرومنسي والقوطي. وكان كل مربع من العامات القائمة في الصحن أو الطرقات يكون فرجة ترتفع منها العقود منثنية انثناءا رشيقا نحو الداخل ليتكون منها قسم سن القبة. وكان هذا السقف يغطى من الخارج بسطح هرمي من الخشب تستره وتقيه طبقة من الأردواز أو القرميد.

وكانت قبة السقف أعظم ما أنتجته عمارة العصور الوسطى. وقد سمح مبدأ العقود بإيجاد فضاء يغطي أوسع رقعة من السطح الذي ييسر وجوده السقف الخشبي أو العوارض المرتكزة على العمد. وبهذا أصبح من المستطاع توسيع عرض الصحن حتى يوائم طوله الكبير، فلما زاد هذا العرض تطلب ذلك زيادة ارتفاعه حتى يتناسب الارتفاع مع سعته، وييسر هذا ارتفاع المستوى الذي تقوم فوقه العامات أو الجدران، وهذه الاستطالة الجديدة في العمد زادت هي الأخرى من علو الكثدرائية. وزاد تناسق أجزاء القبة لما أنشأت في حافاتها "ضلوع" من الآجر أو الحجارة تمتد من زوايا تقاطع العقود. وأدت هذه الضلوع هي الأخرى إلى تحسينات كبرى في البناء والطراز. فقد عرف البناءون كيف يبدأون القبة بإنشاء ضلع فوق إطار خشبي يسهل تحريكه ونقله، ثم ملئوا المثلثات التي بين ضلعين بالبناء الخفيف مثلثا بعد نثلث، وجعلوا هذه الشبكة الرقيقة من البناء مقعرة، وبهذا نقل الجزء الأكبر من ثقله إلى الضلوع." (١)

"ويبدو أن الأزواج الذين كانوا يسمعون هؤلاء الشعراء يتشبثون بنسائهم لم يكونوا يرون في هيامهم أكثر من هذا، وأنهم لم يكونوا أكثر حرصا على أزواجهم من معظم الذكور. وإذ كان الزواج بين الأشراف لا يعدو أن يكون حادثا من حوادث تداول الثروة، فقد كان الحب إذا وجد يعقب الثروة لا يسبقها كما يحدث في القصص الفرنسي. وأما ما وجد من الحب في أدب العصور الوسطى فكان كله، من فرنسسكا Francesa وبيتريس Beatrice في الجنوب إلى إيسلد Isolde وجنيفير Guinevere في الشمال، حبا حراما إذا استثنينا منه بعض الأمثلة القليلة. وكان عجز المحب عن الوصول إلى السيدة المتزوجة هو الذي أوجد طائفة التروبدور؛ ذلك أن من الصعب خلق رواية غرامية تدور حول الرغبة المشبعة، وحيث لا توجد العقبات لا يوجد الشعر. ولسنا نسمع إلا عن أفراد قلائل من شعراء الفروسية الغزلين حظوا آخر الأمر بعطف السيدات اللائي اختاروهن موضوعا لأغانيهم، ولكن هذا لم يكن إلا خرقا للمألوف من القواعد في

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٢٧٢/١٦

العشر، **فقد جرت العادة أن** يطفئ الشاعر حرقته بقبلة من الحبيبة أو بلمس يدها. وكان هذا التمنع من أسباب الرقة والظرف؛ ومن أجل هذا انتقل شعر التروبدور – ولعله تأثر في هذا الانتقال بعبادة مريم – من الشهوانية إلى ما يقرب من الرقة الروحية.

لكنهم قلما كانوا رجالا أتقياء صالحين، وكان عدم تعففهم من أسباب التنافر بينهم وبين الكنيسة. وقد ألف بعضهم القصائد في هجو كبار رجال الدين، وفي السخرية من الجحيم (٢٧)، والدفاع عن الملاحدة الألبجنسيين، والإشادة بالحملة الصليبية التي انتصر فيها فردريك العاصي حيث أخفق لويس الصالح. ولم يرض جولم أديمار Guillem Ademar إلا عن حملة صليبية واحدة، وكان سبب رضائه عنها أنها أبعدت من طريقه زوج سيدة يتشبب بها. وكان." (١)

"الرأي العام عاجزا عجزا مصدره الحيطة والحذر، فكان ما يفعله الذي يرى الملك يقتل ابنه البريء أمام عينيه رميا بالسهام أن يثني على مهارة الملك العظيمة في الرماية، وكان المذنبون الذين يلهب السياط أجسادهم بأمر الملك يشكرون له تفضله بأنه لم يغفل عن ذكرهم (٣٦). ولو أن ملوك الفرس كان لهم من النشاط ما لقورش ودارا الأول لكان لهم أن يملكوا ويحكموا؛ ولكن الملوك المتأخرين كانوا يعهدون بأكثر شئون الحكم إلى الأشراف الخاضعين لسلطانهم، أو إلى خصيان قصورهم. أما هم فكانوا يقضون أوقاتهم في الحب أو لعب النرد أو الصيد (٣٧). وكان القصر يموج بالخصيان يسرحون فيه ويمرحون، يحرسون النساء ويعلمون الأمراء، وقد استخدموا ما تخولهم هذه الأعمال من ميزة وسلطان في حبك الدسائس وتدبير المؤامرات في عهد كل ملك من الملوك (١). وكان من حق الملك أن يختار خلفه من بين أبنائه، ولكن وراثة العرش كانت تقرر في العادة بالاغتيال والثورة.

غير أن سلطة الملك كانت تقيدها من الوجهة العملية قوة الأعيان، وكانوا هم الواسطة بين الشعب والعرش. **وقد جرت العادة أن** يكون لأسر الرجال الستة الذين تعرضوا مع دارا الأول لأخطار الثورة التي قامت على سمرديس الزائف ميزات استثنائية. وأن يستشاروا في مهام الدولة الحيوية، وكان كثير من الأشراف يحضرون إلى القصر ويؤلفون مجلسا يولي الملك مشورته في أكثر الأحيان أعظم رعاية. وكان يربط معظم أفراد الطبقة الموسرة بالعرش أن الملك هو الذي يهبهم ضياعهم؛ وكانوا في مقابل هذا يمدونه بالرجال والعتاد إذا نفر إلى القتال. وكان لهؤلاء الأشراف في إقطاعاتهم سلطان لا يكاد يحده شيء– فكانوا يجبون الضرائب، ويسنون القوانين، وينفذون أحكام القضاء ويحتفظون بقواتهم المسلحة.

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٢٦٦/١٧

(١) كان خمسمائة من الغلمان الخصيان يرسلون من بابل كل عام ليكونوا "حفظة على النساء" في القصور الإيرانية.." (١)

"عشر إيرادهم للدولة، ولكنهم كانوا يصرون على ألا تفرض عليهم ضريبة إلا بموافقة مجامعهم الدينية. ذلك أنهم كانوا يجتمعون بأشخاصهم أو بمن يختارونهم للنيابة عنهم، في مجامع يرأسها كبير أساقفة كنتربري ويورك، وذلك فضلا عن انهم كان لهم ممثلون في مجلس اللوردات هم أساقفتهم ورؤساء الأديرة، وكان رجال الدين يقررون في هذه المجالس كل الأمور ذات الصلة بالدين أو برجاله **وقد جرت العادة على** أن يختار الملك أكبر موظفي الدولة من بين رجال الدين بوصفهم أعظم الطبقات علما في إنجلترا. وكانت القضايا التي يقيمها العلمانيون على رجال الدين، والتي تمس أملاك الكنيسة، ترفع إلى محاكم الملك، ولكن محاكم الأساقفة كانت هي المختصة بالنظر في الجرائم التي يرتكبها رجال الدين. وكانت الكنيسة في كثير من المدن تؤجر أملاكها للأفراد، وتطالب أن يكون لها السلطة القضائية الكاملة على هؤلاء المستأجرين، حتى إذا ارتكبوا جرائم عادية. وكانت هذه كلها أمور تضايق الأهلين، ولكن أكثر ما كان يضايقهم هو انتقال الثروة من الكنيسة الإنجليزية إلى الباباوات، أي انتقالها في القرن الرابع عشر إلى افنيون أي إلى فرنسا نفسها. وقد قدرت الثروة الإنجليزية التي حصل عليها البابا بأكثر من التي حصلت عليها الدولة أو الملك.

وتألف في بلاط الملك حزب مناهض لرجال الدين، وسنت شرائع تجعل القسط الذي تسهم به الكنيسة في نفقات الدولة أكبر وأعظم ثباتا مما كان. ولما كان عام ١٣٣٣ أبى إدوارد الثالث أن يستمر في أداء الجزية التي تعهد جون ملك إنجلترا عام ٢١٣ بأدائها للباباوات، وفي عام ١٣٥١ حاول البرلمان في "قانون الشروط" أن يضع حدا لسلطان الباباوات على موظفي الكنيسة الإنجليزية وإيراد ممتلكاتها. ونص "قانون السجن والمصادرة" (١٣٥٣) على أن يحرم من حماية القانون كل إنجليزي يتقاضى في المحاكم الأجنبية (البابوية) في جميع المسائل التي يرى أنها في دائرة اختصاص." (٢)

""إلى سلام القارئ المسيحي ورحمة الله من خلال المسيح".

هناك الكثيرون من المناهضين للمسيحية انتهزوا أخيرا فرصة انعقاد مجلس للفلاحين لازدراء الإنجيل قائلين

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٤١٦/٢

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت ٦٤/٢٢

أليس هذا ثمرة الإنجيل الجديد؟ وهل لابد ألا يمتثل أحد وأن يتمرد الجميع ... لقلب السادة الروحيين والزمنيين أو ربما لقتلهم؟ إن كل النقاد الكافرين والأشرار يجدون الجواب على هذه الأسئلة في البنود التالية لكي يزيلوا أولا هذا اللوم عن كلمة الله وثانيا ليبرروا بطريقة مسيحية عدم امتثال الفلاحين بل وثورتهم.

فأولا نعرب أن ملتمسنا وطلبنا المتواضع وأن إرادتنا ومشيئتنا جميعا هي أن يتحقق لنا في المستقبل قوة وسلطان يهيئان لجماعة بأسرها أن تختار راعيا وأن تعينه وأن يكون لها الحق في عزله ...

ثانيا: بما أن ضريبة العشور قد نص عليها العهد القديم ووردت في العهد الجديد فإننا سوف ... ندفع ضريبة العشر من الحبوب ولكن بطريقة صحيحة ... وسوف يجمع هذه في المستقبل ويتسلمها رئيس كنيستنا الذي تعينه الجماعة ومن هذه الضريبة يجب أن يمنح الراعي ... مرتبا متواضعا وكافيا لمعيشته هو وأسرته ... وأن يوزع الباقي على الفقراء والمحتاجين الذين يعيشون في القرية نفسها ... أما ضريبة العشر الصغيرة فلن ندفعها على الإطلاق، لأن الله قد خلق الماشية لكي ينتفع بها الناس دون قيد ...

ثالثا: **لقد جرت العادة حتى** الآن على أن يعتبرنا الناس متاعا خاصا لهم، وهذا أمر يدعو للأسى، لأن المسيح كفر عن سيئاتنا جميعا وافتدى بدمه الزكي المراق الأدنياء والعظماء على السواء ... ومن ثم فإنه مما يتفق وتعاليم الكتاب المقدس أن نكون أحرارا ولسوف نحون أحرارا (هكذا) ... ونحن نخضع عن طواعية لحكامنا المختارين والمعينين (الذين عينهم لنا الله) في جميع الأمور المسيحية الصحيحة ولا تخالجنا أية ريبة في أنهم سوف يحررونا من نير العبودية أو يريننا في الإنجيل أننا أرقاء ...." (١)

"في حفرها سنة ٣٠٠ م وتم في عهد كوبلاي خان، لم يكن يفوقها إلا السور العظيم. وكانت القوارب المختلفة الأشكال والأحجام لا ينقطع غدوها ورواحها في الأنهار، ولم تكن تتخذ وسائل للنقل الرخيص فحسب بل كانت تتخذ كذلك مساكن للملايين من الأهلين الفقراء.

والصينيون تجار بطبعهم وهم يقضون عدة ساعات في المساومات التجارية، وكان الفلاسفة الصينيون والموظفون الصينيون متفقين على احتقار التجار، وقد فرض عليهم أباطرة أسرة هان ضرائب فادحة وحرموا عليهم الانتقال بالعربات ولبس الحرير.

وكان أفراد الطبقات الراقية يطيلون أظافرهم ليدلوا بعملهم هذا على أنهم لا يقومون بأعمال جثمانية، كما تطيل النساء الغربيات أظافر أيديهن لهذا الغرض عينه (٦٤)، **وقد جرت العادة أن** يعد العلماء والمدرسون والموظفون من الطبقات الراقية، وتليهم في هذا طبقة الزراع، ويأتي الصناع في المرتبة الثالثة، وكانت أوطأ

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٢٤/ ٨٠

الطبقات طبقة التجار لأن هذه الطبقة الأخيرة- على حد قول الصينيين- لا تجني الأرباح إلا بتبادل منتجات غيرها من الناس.

لكن التجار مع ذلك آثروا ونقلوا غلات حقول الصين وسلع متاجرها إلى جميع أطراف آسية، وصاروا في آخر الأمر الدعامة المالية للحكومة الصينية. وكانت التجارة الداخلية تعرقلها الضرائب الفادحة، وأما التجارة الخارجية فكانت معرضة لهجمات قطاع الطريق في البر والقرصان في البحر. ومع هذا فقد استطاع التجار الصينيون أن ينقلوا بضائعهم إلى الهند وفارس وبلاد النهرين ورومة نفسها في آخر الأمر بالطواف حول شبه جزيرة الملايو بحرا وبالسير في طرق القوافل التي تخترق التركستان (٥٥). وكانت أشهر الصادرات هي الحرير والشاي والخوخ والمشمش والبارود وورق اللعب، وكان العالم يرسل إلى الصين بدل هذه الغلات والبضائع الفصفصة (١)

---

(١) هو المعروف بالإنجليزية باسم Alfalfa واللفظة الأسبانية محرفة عن اللفظة العربية "الفصفصة" وهو نبات ذو ثلاث أوراق.." (١)

"الفصل الثالث

بداية عهد جديد

التغيير في القرية – وفي المدينة – المصانع – التجارة – اتحادات العمال-

الأجور – الحكومة الجديدة – القومية واتباع الأساليب الغربية – إنزال

كنفوشيوس عن عرشه – مناهضة الدين – المبادئ الخلقية الجديدة – التحول في

نظام الزواج – تحديد النسل – التعليم المشترك بين الذكور والإناث – "التيار الجديد"

في الأدب والفلسفة – لغة الأدب الجديدة – هوشي – عناصر التدمير – عناصر التجديد

كان كل شيء في الماضي يتغير ماعدا الشرق، أما الآن فليس شيء في الشرق لا يتغير، وأضحت أشد الأمم استمساكا بالقديم أكثرها تطرفا بعد الروسيا، وأخذت تدمر عامدة عادات ونظما كانت تعدها من قبل حرما آمنا غير قابل للتعديل. فليس الأمر الآن مقصورا على القضاء على أسرة حاكمة كما حدث في عام ١٦٤٤م بل هو اقتلاع جذور حضارة قديمة.

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٢٤٨/٤

وقد جرت العادة أن يكون آخر التغيير وأقله في القرية، لأن اعتدال القرية وبطء سيرها لا يشجعان على التجديد، والجيل الجديد نفسه لا بد له أن يزرع أولا ثم يحصد ما زرعه فيما بعد. وأما الآن فإن سبعة آلاف ميل من الخطوط الحديدية تخترق الريف الصيني، ولا تزال تربط القرى الشرقية بالمدن الساحلية وتحمل كل جديد من سلع الغرب إلى الملايين من بيوت الزراع، رغم ما أصابها من الدمار في خلال الفوضى وسوء الإدارة اللذين داما عشرات السنين، ورغم ما تحملته من الأعباء الباهظة بسبب حاجات الحرب ومطالبها الملحة. ففي هذه القرى يرى السائح كثيرا من الواردات الأجنبية مثل الكيروسين، ومصابيح الكيروسين، وعيدان الثقاب، ولفافات التبغ، بل يرى فيها القمح الأمريكي نفسه. ولعل القارئ يظن أن وجود هذه البضائع والسلع في داخل البلاد أمر عادي غير جدير بالذكر؛ والحق أن." (١)

"هؤلاء كلهم يبغضون ترف الأغنياء وامتيازاتهم، ويرفعون إلى مصاف الزعامة في أثينة رجالا من أمثال كليون Cleon دابغ الجلود، ولسكليز Lysicles بائع الأغنام، ويكراتيز Eucrates بائع حبال السفن، وكليوفون Cleopehon صانع القيثارات، وهيبربولس صانع المصابيح. وأفلح بركليز مدى جيل كامل في إبعاد هذا الحزب عن الحكم بسياسته التي كانت مزيجا من الدمقراطية والأرستقراطية، فلما مات ورث الحزب الحكم واستمتع كل الاستمتاع بمستلزماته. وظل النزاع المرير قائما بين الألجركيين والدمقراطيين من أيام صولون إلى أيام الفتح الروماني عن طريق الخطابة والاقتراع والنفي والاغتيال والحرب الأهلية الداخلية. وكان كل ناخب يعد بهذا الوصف عضوا في الهيئة الحاكمة الأساسية – وهي الإكليزيا أو الجمعية. وعند هذا الحد من الحكم لم تكن هناك حكومة نيابية. وإذ كان الانتقال فوق تلال أتكا من أشق الأمور فلم يكن يحضر أي اجتماع من اجتماعاتها إلا عدد قليل من أعضائها، فلما كان يزيد على ألفين أو ثلاثة آلاف، وكان المواطنون الذين يعيشون في أثينة أو في ثغرها بيرية يحضرون وكأنهم مصممون على أن يكون موطنهم هو المسيطر على الجمعية؛ وكان الدمقراطيون بهذه الطريقة يتفوقون على المحافظين لأن كثرة هؤلاء كانت مشتتة في مزارع أتكا وضياعها. وكانت الجمعية تعقد جلساتها أربع مرات في الشهر، تعقدها في المناسبات الهامة في السوق العامة، أو في ملهى ديونيسس، أو في ثغر بيرية. أما الجلسات العادية فكانت تعقد في مكان نصف دائري يدعى البنيكس Pnyx على منحدر تل غرب الأريوبجوس؛ وكان الأعضاء في هذه الحالات كلها يجلسون على مقاعد مكشوفة للسماء وتبدأ الجلسات عند مطلع الفجر، ويفتتح كل دور اجتماع بالتضحية بخنزير إلى زيوس. **وقد جرت العادة أن** تؤجل الجلسات على الفور إذا ثارت عاصفة

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٤/٣٠٦

أو حدث زلزال أو خسوف أو كسوف، لأن هذه الظواهر كانت في رأيهم أدلة على غضب الآلهة. ولم يكن." (١)

"وكان الممثل في المآسي والمسالي على السواء يلبس على وجهه قناعا، يركب فيه عند فمه مبسم من الشبهان. وكانت طريقة تنظيم الصوت في الملهى اليوناني، ووضع المسرح بحيث يراه الجالس في أي مقعد من المقاعد، طريقة فذة مدهشة. على أن اليونان مع هذا رأوا أنه يحسن بهم أن يقووا صوت الممثل، وأن يساعدوا عين الناظر البعيد على تمييز مختلف أشخاص الرواية، وكانوا يضحون في سبيل هذا بكل مميزات الصوت والوجه وتعبيراتها. فإذا كانوا يمثلون على المسرح أشخاصا حقيقيين مثل يوربديز في مسرحية إكلزيازوسي، وسقراط في مسرحية السحب، فإن الأقنعة كانت تحاكي ملامحهم الحقيقية، وتحاكيها في الغالب محاكاة هزلية.

وقد جاءت الأقنعة إلى المسرحيات من طريق التمثيل الديني، وكانت فيها من وسائل الإرهاب أو الفكاهة. وقد ظلت تسير على هذه السنة في المسالي؛ وكان فيها من القبح، وغرابة الشكل، والإسراف في هذا كل ما يستطيع خيال اليونان أن يبتدعه. وكانت الوسائد والمساند تزيد من أجسام الممثلين، والقلانس العالية والأحذية ذات النعال السميكة تزيد من أطوالهم، كما كانت الأقنعة تقوي أصواتهم وتزيد في وجوههم. وقصارى القول أن الممثل القديم كان، كما يقول لوشيان، شخصا ذا "منظر بشع مفزع" (٢٨).

وليس النظارة أقل جدارة باهتمامنا من المسرحية نفسها. لقد كان الدخول لمشاهدة التمثيل مباحا لجميع الرجال والنساء من كافة الطبقات (٢٩). وكان جميع المواطنين بعد عام ٤٢٠ ق. م. يعطون من الدولة الأبلتين اللتين يؤدونهما أجرا للدخول إذا كانوا في حاجة إليهما. وكان النساء يجلسن بمعزل عن الرجال كما كان للسراري مكان خاص بهن؛ **وقد جرت العادة أن** تمنع النساء الساقطات من حضور المسرحيات إلا إذا كانت المسرحية مسلاة (٣٠).." (٢)

"الوسطى بخطى واسعة من البساطة الرواقية إلى التنعم والترف الطليق، وبلغ هذا التبدل أقصى مداه أو كاد في أيام كاتو (٢٣٤ – ١٤٩)؛ فاتسعت البيوت، وتناقصت الأسر، وتسابق الناس في تأثيث دورهم بأفخم الأثاث وأغلاه ثمنا؛ فأخذوا يشترون الطنافس البابلية بأغلى الأثمان، ويبتاعون الأسرة المطعمة بالعاج أو الفضة أو الذهب؛ وكانت الأحجار والمعادن الثمينة تتلألأ على النضد والكراسي وأجسام النساء، وسروج

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٢٣/٧

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت ٢٥١/٧

الخيل. ولما قل المجهود الجسمي وزاد الثراء استبدل الناس بغذائهم القديم البسيط وجبات ثقيلة طويلة من لحوم الحيوان والطير وغيرهما من ألوان الطعام الشهي والتوابل والمشهيات، وأصبحت الأطعمة النادرة المستوردة من خارج البلاد لا تخلو منها موائد ذوي المكانة في المجتمع ومن يدعون أن لهم فيه مكانة. وحسبنا شاهدا على هذا الإسراف أن أحد كبار الموظفين قد ابتاع حيوانات بحرية في وجبة واحدة بألف سترس، و ا ستورد آخر "أنشوجة" بألف وستمائة سترس للبرميل، وابتاع ثالث كمية من البطارخ بألف ومائتي سترس، وكان الطاهي الماهر يباع بأغلى الأثمان في سوق النخاسة. كذلك كان شأن الشراب، فقد انتشر وزادت مقاديره وكان لابد أن تكون الكؤوس كبيرة ومصنوعة من الذهب قدر المستطاع، وقل مقدار ما يمزج به الخمر من ماء، بل إنه كان يشرب أحيانا بلا ماء على الإطلاق. وسن مجلس الشيوخ قوانين صارمة تحدد مقدار ما ينفق من الأموال على المآدب والملابس، ولكن الشيوخ أنفسهم كانوا يتجاهلون هذه القوانين ولذلك لم يأبه بها غيرهم من الأهلين. وفي ذلك يقول كاتو في ألم وحسرة: "إن المواطنين لم يعودوا يستمعون النصح لأن البطون لا آذان لها (٩) " وأخذ الناس يشعرون بأنهم أفراد لا شأن للدولة بهم، وثاروا عليها وعلى تدخلها في شئونهم، كما ثار الابن على أبيه، وكما ثارت المرأة على الرجل.

وقد جرت العادة من قديم الزمان أن يقوى سلطان المرأة كلما زادت ثروة." (١)

"الفصل الرابع

العلماء

كيف كانت الكتب اللاتينية تكتب وتوضح بالرسوم، وتجلد وتنشر وتباع؟ لقد كان الرومان من أقدم الأزمان يكتبون التمارين المدرسية، والرسائل القصيرة، والسجلات التجارية التي لا يقصد بها أن تبقى طويلا؛ كانوا يكتبون هذه كلها بقلم معدني ذي طرف رفيع على ألواح مطلية لطيفة من الشمع، ويمحون ما يكتبونه عليها بإبهامهم. وأقدم ما وصل إلينا من الأدب اللاتيني مكتوب بريش الطير والحبر على ورق مصنوع في مصر من أوراق نبات البردي التي يضم بعضها إلى بعض ويضغط ويلصق بالغراء. ثم بدأ الرق المتخذ من جلود الحيوان المجففة ينافس نبات البردي في القرن الأول الميلادي لكتابة الآداب والوثائق الهامة. وكانت الدبوما (المزدوجة) تتكون من ورقة مطوية من الرق. وكان الكتاب الأدبي يصدر عادة في صورة ملف (Volumen أي الملفوف) وتفك طياته في أثناء قراءته. وكان النص يكتب عادة في عمودين أو ثـلاثة أعمدة في كل

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٩/١٨٦

صفحة، خاليا في كثير من الأحيان من علامات الترقيم والفواصل بين الجمل أو بين الكلمات نفسها. وكانت بعض المخطوطات توضحها رسوم بالحبر، فقد كان كتاب Imagines لفارو Varro مثلا يتألف من سبعمائة صورة لعظماء الرجال، ومع كل صورة ترجمة لصاحبها. وكان في وسع أي إنسان أن ينشر أي مخطوط يشاء باستئجار الأرقاء لنسخ صور منه، وأن يبيع النسخ بعد كتابتها. وكان للأغنياء كتبة ينسخون لهم ما يشاءون من الكتب، ويطعمونهم، ولكنهم يأجرونهم على عملهم، ولذلك كانت الكتب رخيصة، **وقد جرت العادة في** أول الأمر أن تكتب." (١)

"والصابئة تقول أن الشفاء كان يؤخذ من هياكلهم على يد كهانهم وصلحائهم، بعض بالرؤيا وبعض بالإلهام، ومنهم من قال أنه كان يوجد مكتوباً في الهياكل لا يعلم من كتبه، ومنهم من قال أنها كانت تخرج يد بيضاء مكتوب عليها الطب، ونقل عنهم إن شيت أظهر الطب، وأنه ورثه عن آدم، عليهما الصلاة والسلام، فأما المجوس فإنها تقول أن زرادشت الذي تدعي أنه نبيهم، جاء بكتب علوم أربعة زعموا أنها جلدت باثني عشر ألف جلد جاموس، ألف منها طب، وأما نبط العراق والسورانيون والكلدانيون والكسدانيون وغيرهم من أصناف النبط القدم، فيدّعي لهم أنهم اكتشفوا مبادئ صناعة الطب، وأن هرمس الهرامسة المثلث بالحكمة كان بينهم ويعرف علومهم، فخرج حينئذ إلى مصر وبث في أهلها العلوم والصنائع، وبنى الأهرام والبرابي ثم انتقل العلم منهم إلى اليونانيين، وقال الأمير أبو الوفاء المبشر بن فانك؛ في كتاب مختار الحكم ومحاسن الكلِم؛ أن الاسكندر لما تملك مملكة داراً، واحتوى على فارس، أحرق كتب دين المجوسية وعمد إلى كتب النجوم والطب والفلسفة، فنقلها إلى اللسان اليوناني وأنفذها إلى بلاده، وأحرق أصولها، وقال الشيخ أبو سليمان المنطقي قال لي ابن عدي إن الهند لهم علوم جليلة من علوم الفلسفة وأنه وقع إليها أن العلم من ثمَّ وصل إلى اليونانيين، وقال الشيخ أبو سليمان ولست أدري من أين وقع له ذلك، وقال بعض علماء الإسرائيليين أن الذي استخرج صناعة الطب يوقال بن لامخ بن متوشالخ،

القسم الثاني

أن يكون قد حصل لهم شيء منها بالرؤيا الصادقة

مثل ما حكى جالينوس في كتابه في الفصد، من فصده للعرق الضارب الذي أُمر به، وذلك أنه قال إني أمرت في منامي مرتين بفصد العرق الضارب الذي بين السبابة والإبهام من اليد اليمنى، فلما أصبحت فصدت هذا العرق وتركت الدم يجري إلى أن انقطع من تلقاء نفسه، لأني كذلك أمرت في منامي، فكان

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٣٢٣/٩

م١ جرى أقل من رطل، فسكن عني بذلك على المكان وجع كنت أجده قديماً في الموضع الذي يتصل به الكبد بالحجاب، وكنت في وقت ما عرض لي هذا غلاماً، قال وأعرف إنساناً بمدينة فرغامس، شفاه اللّٰه تعالى من وجع مزمن كان به في جنبه، بفصد العرق الضارب من كفه، والذي دعا ذلك الرجل إلى أن يفعل ذلك رؤيا رآها، وقال في المقالة الرابعة عشرة من كتابه في حيلة البرء قد رأيت لساناً عظم وانتفخ حتى لم يسعه الفم، وكان الذي أصابه ذلك رجلاً لم يعتد إخراج الدم قط، وكان من أبناء ستين سنة، وكان الوقت الذي رأيته فيه أول مرة الساعة العاشرة من النهار، فرأيت أنه ينبغي لي أن أسهله بهذا الحب الذي **قد جرت العادة باستعماله**، وهو الحب المتخذ بالصبر والسقمونيا وشحم الحنظل، فسقيته الدواء نحو العشاء، وأشرت عليه أن يضع على العضو العليل بعض الأشياء التي تبرِّد، وقلت له افعل هذا حتى أنظر ما يحدث، فأقدر المداواة عى حسبه، ولم يساعدني على ذلك رجل حضره من الأطباء، فبهذا السبب أخذ الرجل ذلك الحب، وتأخر النظر في أمر ما يداوي به العضو نفسه إلى الغد، وكنا نطمع جميعاً أن يكون قد تبين فيه حسن أثر الشيء الذي يداوي به ونجربه عليه، إذ كان فيه يكون البدن قد استفرغ كله، والشيء المنصب إلى العضو قد انحدر إلى أسفل، ففي ليلته رأى في حلمه رؤيا ظاهرة بينة، فحمد مشورتي واتخذ مشورتي مادة في ذلك الدواء، وذلك أنه رأى النائم آمراً يأمره بأن يمسك فيه عصارة الخس، فاستعمل هذه العصارة كما أمره وبرأ برءاً تاماً، ولم يحتج معها إلى شيء آخر يتداوى به، وقال في شرحه لكتاب الإيمان لأبقراط وعامة الناس يشهدون على أن اللّٰه تبارك وتعالى هو الملهم لهم صناعة الطب من الأحلام والرؤيا التي تنقذهم من الأمراض الصعبة، من ذلك أنا نجد خلقاً كثيراً ممن لا يحصى عددهم أتاهم الشفاء من عند اللّٰه تبارك وتعالى، بعضهم على يد سارافس، وبعضهم على يد اسقليبيوس بمدينة أفيداروس ومدينة قو ومدينة فرغامس، وهي مدينتي، وبالجملة فقد يوجد في جميع الهياكل التي لليونانيين وغيرهم من سائر الناس، الشفاء من الأمراض الصعبة التي تأتي بالأحلام وبالرؤيا." (١)

"ومن نوادره إن الخليفة كان قد فوض إليه رئاسة الطب ببغداد، ولما اجتمع إلىه سائر الأطباء ليرى ما عند كل واحد منهم من هذه الصناعة، كان من جملة حضره شيخ له هيئة ووقار وعنده سكينة، فأكرمه أمين الدولة وكانت لذلك دربة ما بالمعالجة، ولم يكن عنده من علم صناعة الطب إلا التظاهر بها، فلما انتهى الأمر إليه قال له أمين الدولة ما السبب في كون الشيخ لم يشارك الجماعة فيما يبحثون فيه حتى نعلم ما عنده من هذه الصناعة؟ فقال يا سيدنا، وهل شيء مما تكلموا فيه إلا وأنا أعلمه، وقد سبق إلى فهي

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص/٦

أضعاف ذلك مرات كثيرة؟ فقال له أمين الدولة فعلى من كنت قد قرأت هذه الصناعة؟ فقال الشيخ يا سيدنا إذا صار الإنسان إلى هذه السن ما يبقى يليق به إلا أن يسأل كم له من التلاميذ، ومن هو المتميز فيهم، وأما المشايخ الذين قرأت عليهم فقد ماتوا من زمان طويل، فقال له أمين الدولة يا شيخ، هذا شيء قد جرت العادة به ولا يضر ذكره، ومع هذا، فما علينا، أخبرني أي شيء قد قرأته من الكتب الطبية؟ وكان قصد أمين الدولة أن يتحقق ما عنده، فقال سبحان اللّه العظيم، صرنا إلى حد ما يسأل عن الصبيان، وأي شيء قد قرأته من الكتب، يا سيدنا لمثلي ما يقال إلا أي شيء صنفته في صناعة الطب، وكم لك فيها من الكتب والمقالات؟ ولا بد إنني أعرفك بنفسي، ثم إنه نهض إلى أمين الدولة ودنا منه وقعد عنده، وقال له، فيما بينهما يا سيدي، إعلم أنني قد شخت وأنا أوسم بهذه الصناعة، وما عندي منها إلا معرفة اصطلاحات مشهورة في المداواة، وعمري كله أتكسب بها، وعندي عائلة، فسألتك باللّه ياسيدنا مشي حالي ولا تفضحني بين هؤلاء الجماعة، فقال أمين الدولة على شريطة، وهي أنك لا تهجم على مريض بما تعلمه، ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل إلا لما قرب من الأمراض، فقال الشيخ هذا مذهبي منذ كنت، ما تعديب السكنجبين والجلاب، ثم إن أمين الدولة قال له معلناً، والجماعة تسمع يا شيخ، اعذرنا فإننا ما كنا نعرفك، والآن قد عرفناك، استمر فيما أنت فيه، فإن أحداً ما يعارضك، ثم إنه عاد بعد ذلك فيما هو فيه مع الجماعة، وقال لبعضهم على من قرأت هذه الصناعة وشرع في امتحان، فقال يا سيدنا، أنا من تلامذة هذا الشيخ الذي قد عرفته، وعليه كنت قد قرأت صناعة الطب، ففطن أمين الدولة بما أراد من التعريض بقوله، وتبسم ثم امتحنه بعد ذلك.

وكان لأمين الدولة بن التلميذ أصحاب وجماعة يترددون إليه، فلما كان في بعض الأيام أتى إليه ثلاثة، منجم، ومهندس، وصاحب أدب، فسألوا عن أمين الدولة غلامه قنبر، فذكر له أن سيده ليس في الدار، وأنه لم يأت في ذلك الوقت، فراحوا، ثم إنهم عادوا في وقت آخر، وسألوه عنه، فذكر لهم مثل قوله الأول، وكان لهم ذوق من الشعر فتقدم المنجم وكتب على الحائط عند باب الدار

قد بلينا في دار أسعد قوم، بمدبر

ثم كتب المهندس بعده

بقصير مطول ... وطويل مقصر

ثم تقدم صاحب الأدب وكان عنده مجون فكتب

كم تقولون قنْبراً ... دحرجوا رأس قنْبرَ

ومضوا، فلما جاء أمين الدولة قال له قنبر يا سيدي جاء ثلاثة إلى ها هنا يطلبونك، ولما لم يجدوك، كتبوا هذا على الحائط، فلما قرأه أمين الدولة قال لمن معه يوشك أن يكون هذا البيت الأول خط فلان المنجم؛ وهذا البيت الثاني خط فلان المهندس؛ وهذا الثالث خط فلان صاحبنا، فإن كل بيت يدل على شيء مما يعانيه صاحبه، وكان الأمر كما حدسه أمين الدولة سواء، وكانت دار أمين الدولة هذه يسكنها ببغداد في سوق العطر مما يلي بابه المجاور لباب الغربة من دار الخلافة المعظمة، بالمشرعة النازلة إلى شاطئ دجلة.

وقال أمين الدولة بن التلميذ فكرت يوماً في أمر المذاهب فرأيت هاتفاً في النوم وهو ينشدني

أعوم في بحرك علي أرى ... فيه لما أطلبه قعرا

فما أرى فيه سوى موجة ... تدفعني عنها إلى أخرى

وحدثني سعد الدين بن أبي السهل البغدادي العواد، وكان قد عمر، قال رأيت أمين الدولة بن التلميذ واجتمعت به، وكان شيخاً ربع القامة، عريض اللحية، حلو الشمائل كثير النادرة، قال وكان يحب صناعة الموسيقى وله ميل إلى أهلها.." (١)

"الكعبة المشرفة بحضور صاحب السمو الملكى الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولى العهد ونائب رئيس الوزراء ورئيس الحرس الوطنى نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز وذلك فى السابع من شعبان عام ١٤١٧ هـ الموافق ١٧ ديسمبر ١٩٩٦م(١).

وقد جرت العادة حديثًا على أن يتم احتفال غسل الكعبة المشرفة مرتين فى العام الأولى فى أول شهر شعبان والثانية فى ذى الحجة استعدادًا لموسم الحج ويحضر الاحتفال الملك أو من ينوب عنه وكبار رجال الدولة والشخصيات العامة.

وأركان الكعبة الأربعة هى:

الركن الجنوبى الشرقى: ويطلق عليه الركن أو الركن الأسود لأنه يوجد به الحجر الأسود وهو مبدأ الطوف ومنتهاه ويواجه هذا الركن من البلاد الجزء الجنوبى من بلاد الحجاز إلى عدن وهرر ومدغشقر واستراليا وجنوب الهند والصين.

الركن الشمالى الشرقى: ويسمى بالركن الشامى أو العراقى ويواجه من البلاد الجزء الشمالى من بلاد الحجاز وإيران وتركمان والعراق وشمال الهند والصين وسيبريا

الركن الشمالى الغربى: ويسمى بالركن الغربى ويواجه من البلاد مصر والمغرب وتركيا وأوروبا وغرب روسيا.

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص/٢٤٣

الركن الجنوبى الغربى: ويسمى بالركن اليمانى ويواجه اليمن وجنوب أفريقيا وجنوب شرق أفريقيا الخ..

قياس الكعبة من الداخل فى العصر الحديث

قياس مركز ابحاث الحج جامعة أم القرى ... قياس لجنة المهندسين المصريين ... الجدار

٩٫٨٩ م ... ٩٫٧٩ م ... الجدار الشرقى

١٠٫١٥ م ... ١٠٫١١م ... الجدار الغربى

٨ م ... ٧٫٩٨م ... الجدار الشمالى

٨٫٢٤ م ... ٨٫١٧ م ... الجدار الجنوبى

وهذه الاختلافات الضئيلة بين القياسين ربما تعود إلى طريقة القياس(٢)

(١) الحرمان الشريفان . وزارة الإعلام السعودى . الإعلام الخارجى ص ٢٤.

(٢) الكعبة المشرفة . سرة الأرض ووسط الدنيا . د . أحمد السيد دراج ص ٩٦.." (١)

"هو فإن يكن تركيا أو فارسيا او ممن لا يعرفون العربية ولم يقرأ أحكام الشريعة فهو في حاجة إلى نائب يتولى الأمرعنه والقضاة كلهم نواب للملك الذي يجب عليه أن يشد أزرهم ويسندهم ويحفظ لهم حرماتهم ومنازلهم كاملة فهم نوابه الذين ينفذون دستوره ووكلاؤه الذين يصرفون أعماله الخطباء

كذلك ينبغي اختبار الخطباء الذين يصلون بالناس في المساجد الجامعة للتأكد من تقواهم وحفظهم القران فالصلاة من الأمور الدقيقة وصلاة الناس مرهونة بالأمام فإذا ما اختلت صلاته اختلت صلاتهم أيضا المحتسبون

وكذلك ينبغي تعيين محتسب في كل مدينة تكون مهمته مراقبة الأوزان والأسعار ومعرفة المبيعات والمشتريات للسير بموجبها والتقيد بها ومراقبة البضائع التي يؤتى بها من الأطراف لتباع في الأسواق من أن يغشوها او يقسطوا فيها وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر

إن من واجب الملك وولاته مؤازرة المحتسب والأخذ بيده فمهمته ركيزة من ركائز المملكة وهي نتيجة العدل في الوقت نفسه وإلا فسيضيق على الفقراء ويشتري التجار ومن يتعاطون البيع والشراء في الأسواق ويبيعون على هواهم ويقسطون في الميزان فيعم الفساد وتعطل أحكام الشريعة

(١) فى رحاب البيت العتيق، ص/١٧٨

وقد جرت العادة دائما في إسناد هذا العمل إلى أحد خاصة الملك أو خدمه أو إلى تركي عجوز ممن لا يحابون أبدا وممن يهابهم الخاص والعام هكذا كانت الأمور تصرف بالعدل وقواعد الإسلام تطبق بإحكام فيما جاءت به القصص والحكايات علي بن نوشتكين والمحتسب

يقال أن السلطان محمودا كان قد شرب الخمر مرة مع خاصته وندمائه طوال

". (١)

" ليطلب برجه الذي هو مستوطنه إذا أرسل فإذا عرض أمر مهم أو ورد بريد أو غيره ممن يحتاج إلى مطالعة الأبواب السلطانية به إلى مكان من الأمكنة التي فيها برج من أبراج الحمام كتب واليها المتحدث فيها بذلك للأبواب السلطانية وبعث بها على أجنحة الحمام **وقد جرت العادة أن** تكتب بطاقتان وتؤرخان بساعة كتابتهما من النهار ويعلق منهما في جناح طائر من الحمام الرسائلي ويرسلان ولا يكتفى بواحد لاحتمال أن يعرض له عارض يمنعه من الوصول إلى مقصده فإذا وصل الطائر إلى البرج الذي وجه به إليه أمسكه البراج وأخذ البطاقة من جناحه وعلقها بجناح طائر من حمام البرج الذي يليه أي من المنقول إلى ذلك البرج وعلى ذلك حتى ينتهي إلى برج القلعة فيأخذ البراج الطائر والبطاقة في جناحه ويحضره بين يدي الدوادار الكبير فيعرض عليه فيضع البطاقة عن جناحه بيده فإن كان الأمر الذي حضرت البطاقة بسببه خفيفا لا يحتاج إلى مطالعة السلطان به استقل الدوادار به وإن كان مهما يحتاج إلى إعلام السلطان به استدعى كاتب السر وطلع لقراءة البطاقة على السلطان كما يفعل في المكاتبات الواردة وكذلك الحكم فيما يطرأ من المهمات بالأبواب السلطانية فإنه يوجه بالحمام من برج القلعة إلى الجهة المتعلقة بذلك المهم وفي معنى ذلك كل نيابة من النيابات العظام بالممالك الشامية كدمشق وحلب وطرابلس ونحوها مع ما تحتها من النيابات الصغار والولايات على ما سيأتي ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى

الأمر الثامن نظره في أمور الفداوية

وهم طائفة من الإسماعيلية المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي أبي طالب كرم الله ." (٢)

---

(١) سياسة نامه أو سير الملوك، ص/٨٠

(٢) صبح الأعشى، ١/١٥٤

" الطرف الثاني في ذكر جسورها الحابسة لمياه النيل على أرض بلادها إلى حين استحقاق الزراعة وأصناف أرضها وما يختص بكل صنف من أرضها من الأسماء الدائرة بين كتابها ومزارعها وبيان أصناف مزدرعاتها وأحوال زرعها فأما جسورها فعلى صنفين

الصنف الأول الجسور السلطانية

وهي الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة التي تعمر في كل سنة في الديوان السلطاني بالوجهين القبلي والبحري ولها جراريف ومحاريث وأبقار مرتبة على غالب البلدان بكل عمل من أعمالها

وقد جرت العادة أن يجهز لكل عمل في كل سنة أمير بسبب عمارة جسوره ويعبر عنه بكاشف الجسور بالعمل الفلابي ويعرف بذلك في تعريف مكاتبته عن الأبواب الشريفة وربما أضيف كشف جسور عمل من الأعمال إلى متولي جريه ويقال في تعريفه والي فلانة وكاشف الجسور بها إذا كانت المكاتبة بسبب شيء يتعلق بالجسور ولهذه الجسور كاتب منفرد بها مقرر في ديوانه ما على كل بلد من الجراريف والأبقار وتكتب التذاكير السلطانية لكاشف كل عمل في الورق الشامي المربع ويشملها العلامة الشريفة السلطانية بالاسم الشريف وللجسور خولة ومهندسون لكل عمل يقومون في خدمة الكاشف في عمارة الجسور إلى أن تنتهي عمارتها ." (١)

" الضرب الثاني ما هو جار في الإقطاعات

وهو جل البلاد بالوجهين القبلي والبحري والبلاد النفيسة الكثيرة المتحصل في الغالب تقطع للأمراء على قدر درجاتهم فمنهم من يجتمع له نحو العشر بلاد إلى البلد الواحدة وما دون ذلك من البلدان يقطع للمماليك السلطانية يشترك الاثنان فما فوقهما في البلدة الواحدة في الغالب وربما انفرد الواحد منهم بالبلد الواحد

ومادون ذلك يكون لأجناد الحلقة تجتمع الجماعة منهم في البلد الواحد بحسب مقداره وحال مقطعيه وفي معنى أجناد الحلقة المقطعون من العربان بالبحيرة والشرقية من أرباب الأدراك وملتزمي خيل البريد وغيرهم

ثم اعلم أن لبلاد الديار المصرية حالين

الحال الأول أن تنجز إجارة طين البلد بقدر معين لا يزيد ولا ينقص وطلب الخراج على حكمها

---

(١) صبح الأعشى، ٥١٥/٣

الحال الثاني أن تكون البلاد مما جرت العادة بمساحة أرضها لسعة طينها واختلاف الري فيه بالكثرة والقلة في السنين **وقد جرت العادة في** ذلك أن كاتب خراج الناحية يطلب خولة القانون بذلك البلد وتوريخ الأحواض على المزارعين بفدن مقدرة وتكتب بها أوراق تسمى أوراق المسجل وتحمل نسختها إلى ديوان صاحب الإقطاع فتخلد فيه فإذا طلع الزرع خرج من باب صاحب الإقطاع مباشرون فيمسحون أرض تلك البلد في كل قبالة بأسماء المزارعين ويكتب ." (١)

" والأخذ على أيديهم **وقد جرت العادة أن** يكونوا أربعة أمراء واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه

الرابعة إمرة مجلس وموضوعها وهو يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم ولا يكون إلا واحدا

الخامسة إمرة سلاح وأصل موضوعها حمل السلاح للسلطان في المجامع الجامعة وصاحبها هو المقدم على السلاح دارية من المماليك السلطانية والمتحدث في السلاح خاناه السلطانية وما يستعمل لها ويقدم إليها ولا يكون إلا واحدا من الأمراء المقدمين

السادسة إمرة أخورية وموضوعها التحدث على إصطبل السلطان وخيوله وعادتها مقدم ألف يكون متحدثا فيها حديثا عاما وهو الذي يكون ساكنا بإصطبل السلطان ودونه ثلاثة من أمراء الطبلخاناه أما أمراء العشرات والجند فغير محصورين

السابعة الدوادارية قال في مسالك الأبصار وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلا غ عامة الأمور وتقديم القصص إليه والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد هو وأمير جاندار وكاتب السر ويأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكتب وإذا خرج عن السلطان بكتابة ." (٢)

" مع الدوادار وكاتب السر قال وصاحبها كالمستسلم للباب وله به البرددارية وطوائف الركابية والخازندارية وإذا أراد السلطان تعزير أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة وهو المتسلم للزردخاناه التي هي أرفع قدرا في الاعتقالات ولا تطول مدة المعتقل بها بل إما يعجل بتخلية سبيله أو إتلاف نفسه وصاحب هذه الوظيفة هو الذي يطوف بالزفة حول السلطان في سفره **وقد جرت العادة أن** يكون فيها أميران مقدم ألف وطبلخاناه والمشار إليه هو المقدم

---

(١) صبح الأعشى، ٥٢٥/٣

(٢) صبح الأعشى، ١٩/٤

العاشرة الاستادرية قال في مسالك الأبصار وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان وهو الذي يمشي بطلب السلطان ويحكم في غلمانه وباب داره وإليه أمر الجاشنكيرية وإن كان كبيرهم نظيره في الإمرة من ذوي المئين وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوي وما يجري مجرى ذلك للمماليك وغيرهم **وقد جرت العادة أن** يكونوا أربعة واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه وربما نقصوا عن ذلك

الحادية عشرة الجاشنكيرية وموضوعها التحدث في أمر السماط مع الأستادار على ما تقدمت الإشارة إليه ويقف على السماط مع أستادار الصحبة وأكبرهم يكون من الأمراء المقدمين

الثانية عشرة الخازندارية وموضوعها التحدث في خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك وكانت عادتها طبلخاناه ثم استقرت تقدمه ألف ويطالبه في حساب ذلك ناظر الخاص الآتي ذكره ." (١)

" الأدوية والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلك يصرف ذلك لمن يعرض له مرض بالطريق

الهيئة السابعة النوم

وقد جرت العادة أنه يبيت عنده خواص مماليكه من الأمراء وأرباب الوظائف من الجمدارية وغيرهم يسهرون بالنوبة بقسمة بينهم على بناكيم الرمل كلما انقضت نوبة قوم أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم ويتعانى كل منهم ما يشاغله عن النوم فقوم يقرأون في المصاحف وقوم يلعبون بالشطرنج والأكل وغير ذلك

المقصد السادس في عادته في إجراء الأرزاق وهو على ضربين الضرب الأول الجاري المستمر وهو على نوعين النوع الأول الإقطاعات

والإقطاعات في هذه المملكة تجري على الأمراء والجند وعامة إقطاعاتهم بلاد وأراض يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيف شاء وربما كان فيها نقد يتناوله من جهات وهو القليل وتختلف باختلاف حال أربابها

فأما الأمراء بالديار المصرية فقد ذكر في مسالك الأبصار أن أكابر الأمراء ." (٢)

" ثم في آخر الدولة الظاهرية برقوق استقرت الكتابة صفراء مشعرة بالذهب ولهذه الكسوة ناظر مستقل بها ولها وقف أرض بيسوس من ضواحي القاهرة يصرف منها على استعمالها

---

(١) صبح الأعشى، ٢١/٤

(٢) صبح الأعشى، ٥١/٤

وأما دوران المحمل **فقد جرت العادة أنه** يدور في السنة مرتين المرة الأولى في شهر رجب بعد النصف منه يحمل وينادي لأصحاب الحوانيت التي في طريق دورانه بتزيين حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام ويكون دورانه في يوم الإثنين أو الخميس لا يتعداهما ويحمل المحمل على جمل وهو في هيئة لطيفة من خركاه وعليه غشاء من حرير أطلس أصفر وبأعلاه قبة من فضة مطلية ويبيت في ليلة دورانه داخل باب النصر بالقرب من باب جامع الحاكم ويحمل بعد الصبح على الجمل المذكور ويسير إلى تحت القلعة فيركب أمامه الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم ويركب جماعة من المماليك السطانية الرماحة ملبسين المصفات الحديد المغشاة بالحرير الملون وخيولهم ملبسة البركستوانات والوجوه الفولاذ كما في القتال وبأيديهم الرماح عليها الشطفات السلطانية فيلعبون تحت القلعة كما في حالة الحرب ومنهم جماعة صغار بيد كل من م رمحان يديرهما في يده وهو واقف على ظهر الفرس وربما كان وقوفه في نعل من خشب على ذباب سيفين من كل جهة وهو يفعل كذلك ويهيئوا من أزيار النفط وغيرها جملة مستكثرة ويطلق تحت القلعة في خلال ذلك ثم يذهب إلى الفسطاط فيمر في وسطه ثم يعود إلى تحت القلعة ويفعل كما في الأول إلا أنه أقل من ذلك ثم يحمل من جامع الحاكم ويوضع في مكان هناك إلى شوال وفي خلال ذلك كله الطبلخانات والكوسات السلطانية تضرب خلفه ويخلع فيه على جماعة مستكثرة وكذلك يفعل في نصف شوال إلا ." (١)

" أنه يرجع من تحت القلعة إلى باب النصر ويخرج إلى الريدانية للسفر ولا يتوجه إلى الفسطاط

المقصد الثامن في انتهاء الأخبار إليه وهو على ثلاثة أنواع النوع الأول أخبار الملوك الواردة عليه مكاتبات منهم

وقد جرت العادة أنه إذا وصل رسول من ملك من الملوك إلى أطراف مملكته كاتب نائب تلك الجهة السلطان عرفه بوفوده واستأذنه في إشخاصه إليه فتبرز المراسيم السلطانية بحضوره فيحضر فإذا وقع الشعور بحضوره فإن كان مرسله ذا مكانة عظيمة من الملوك كأحد القانات من ملوك الشرق خرج بعض أكابر الأمراء كالنائب وحاجب الحجاب ونحوهما للقائه وأنزل بقصور السلطان بالميدان الذي يلعب فيه بالكرة وهو أعلى منازل الرسل وإن كان دون ذلك تلقاه المهمندار واستاذن عليه الدوادار وأنزله دار الضيافة أو ببعض الأماكن على قدر رتبته ثم يرتقب يوم موكب فيجلس السلطان بإيوانه وتحضر أعيان المملكة الذين شأنهم الحضور من أرباب السيوف والأقلام ويحضر ذلك الرسول وصحبته الكتاب الوارد معه فيقبل

---

(١) صبح الأعشى، ٥٩/٤

الأرض ويتناول الدوادار الكتاب منه فيمسحه بوجه الرسول ثم يدفعه إلى السلطان فيفضه ويدفعه إلى كاتب السر فيقرؤه على السلطان ويأمر فيه أمره

النوع الثاني الأخبار التي ترد عليه من جهة نوابه

عادة هذا السلطان أن يطالعه نوابه في مملكته بكل ما يتجدد عندهم من مهمات الأمور أو ما قاربها وتؤخذ أوامره وتعود أجوبته عليهم من ديوان الإنشاء بما يراه في ذلك أو يبتدئهم هو بما يقتضيه رأيه وينفذ على البرد أو أجنحة ." (١)

" الحمام الرسائلي على ما يأتي ذكره في المقالة الثالثة من الكتاب إن شاء الله تعالى

وقد جرت العادة أنه إذا ورد بريد من بلد من بلاد المملكة أو عاد المجهز من الأبواب الشريفة بجواب أحضره أمير جاندار والدوادار وكاتب السر بين يدي السلطان فيقبل الأرض ثم يأخذ الداوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدي ثم يناوله للسلطان فيفضه ويجلس كاتب السر فيقرؤه عليه ويأمر بأمره

وأما بطائق الحمام فإنه إذا وقع طائر من الحمام الرسائلي ببطاقة أخذها البراج وأتى بها الدوادار فيقطع الدوادار البطاقة عن الحمام بيده ثم يحملها إلى السلطان ويحضر كاتب السر فيقرؤها كما تقدم

النوع الثالث أخبار حاضرته

جرت العادة أن والي الشرطة يستعلم متجددات ولاياته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك في كل يوم من نوابه ثم تكتب مطالعة جامعة بذلك وتحمل إلى السلطان صبيحة كل يوم فيقف عليها قال في مسالك الأبصار وأما ما يقع للناس في أحوال انفسهم فلا

المقصد التاسع في هيئة الأمراء بالديار المصرية وترتيب إمرتهم

واعلم أن كل أمير من أمراء المئين أو الطبلخانات سلطان مختصر في غالب أحواله ولكل منهم بيوت خدمة كبيوت خدمة السلطان من الطشت خاناه والفراش خاناه والركاب خاناه والزردخاناه والمطبخ والطبلخاناه خلا الحوائج خاناه فإنها مختصة بالسلطان ولكل واحد من هذه البيوت مهتار متسلم حاصله وتحت يده رجال وغلمان لكل منهم وظيفة تخصه وكذلك لكل منهم الحواصل من إصطبلات الخيول ومناخات الجمال وشون الغلال وله من أجناده ." (٢)

---

(١) صبح الأعشى، ٤/٦٠

(٢) صبح الأعشى، ٤/٦١

" ومعاملاتها بالدنانير وبالدراهم النقرة وصنجتها في الذهب والفضة كصنجة الديار المصرية وكان بها فلوس كل ثمانين منها بدرهم ويعبر عن كل اربعة منها بحبة ثم راجت بها الفلوس الجدد في أوائل الدولة الناصرية فرج بن برقوق ولكن كل ستة وثلاثين فلسا منها بدرهم ورطلها سبعمائة وعشرون درهما بالدرهم المصري وأواقيه اثنتا عشرة أوقية كل أوقية ستون درهما ومكيلاتها معتبرة بالغرارة وكل غرارة من غرائرها ثلاثة أرادب بالمصري وقياس قماشها بالذراع المصري وأرضها معتبرة بالفدان الإسلامي والفدان الرومي على ما تقدم في دمشق وجيوشها مجتمعة من الترك ومن في معناهم ومن العرب والتركمان وبها من الوظائف النيابة ثم تارة يصرح لنائبها بنيابة السلطنة وبكل حال فنائبها أو مقدم العسكر بها لا يكون إلا مقدم ألف وبها أمراء الطبلخاناه والعشرات والخمسات ومن في معناهم وفيها من وظائف أرباب السيوف الحجوبية وحاجب،ا أمير طبلخاناه وولاية المدينة وولاية البر وشد الدواوين والمهمندارية ونقابة النقباء وغير ذلك

وبها من الوظائف الديوانية كاتب درج وناظر جيش وناظر مال وولايتهم من الأبواب السلطانية

ومن الوظائف الدينية قاض شافعي وولايته من قبل قاضي دمشق إذا كانت غزة تقدمة عسكر وإلا فهي من الأبواب السلطانية وقاض حنفي قد استحدث وولايته من الأبواب السلطانية وبها المحتسب ووكيل بيت المال ومن في معناهم وكلهم نواب لأرباب هذه الوظائف بدمشق كما في القاضي الشافعي وليس بها قضاء عسكر ولا إفتاء دار عدل

الثانية نيابة القدس وقد تقدم أنها كانت في الزمن المتقدم ولاية صغيرة وأن النيابة استحدثت فيها في سنة سبع وسبعين وسبعمائة ونيابتها إمرة طبلخاناه **وقد جرت العادة أن** يضاف اليها نظر القدس ومقام الخليل عليه السلام ." (١)

" عيسى في وقتنا هم ملوك البر فيما بعد واقترب وسادات الناس ولا تصلح الا عليهم العرب

وأما الإمرة عليهم **فقد جرت العادة أن** يكون لهم أمير كبير منهم يولى من الأبواب السلطانية ويكتب له تقليد شريف بذلك ويلبس تشريفا أطلس أسوة النواب إن كان حاضرا أو يجهز اليه ان كان غائبا ويكون لكل طائفة منهم كبير قائم مقام أمير عليهم وتصدر اليه المكاتبات من الأبواب الشريفة الا انه لا يكتب له تقليد ولا مرسوم قال في مسالك الأبصار ولم يصرح لأحد منهم بإمرة على العرب بتقليد من السلطان إلا من أيام العادل أبي بكر أخي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر منهم حديثة يعني ابن عقبة بن فضل بن ربيعة والذي ذكره قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون في تاريخه أن الإمرة عليهم في ايام العادل

---

(١) صبح الأعشى، ٢٠٥/٤

ابي بكر بن ايوب كانت لعيسى بن محمد بن ربيعة ثم كان بعده ماتع ابن حديثة بن عقبة بن فضل وتوفي سنة ثلاثين وستمائة وولي عليهم بعده ابنه مهنا وحضر مع المظفر قطز قتال هولاكو ملك التتار وانتزع سلمية من المنصور ابن المظفر صاحب حماة وأقطعها له ثم ولى الظاهر بيبرس عند مسيرة الى دمشق لتشييع الخليفة المستعصم الى بغداد عيسى بن مهنا بن ماتع ووفر له الإقطاعات على حفظ السابلة وبقي حتى توفي سنة اربع وثمانين وستمائة فولى المنصور قلاوون مكانة ابنه مهنا بن عيسى ثم سافر الأشرف خليل بن قلاوون الى الشام فوفد عليه مهنا بن عيسى في جماعة من قومه فقبض عليهم وبعث بهم الى قلعة الجبل بمصر فاعتقلوا بها وبقوا في السجن حتى افرج عنهم العادل كتبغا عند جلوسه على التخت سنة اربع وتسعين وستمائة ورجع الى إمارته ثم كان له في ايام الناصر بن قلاوون نصرة واستقامة تارة وتارة وميل الى التتر بالعراق ولم يحضر شيئا من وقائع غازان ووفد اخوه فضل بن عيسى على السلطان الملك الناصر سنة اثنتي عشرة وسبعمائة فولاه مكانه وبقي مهنا مشردا ثم لحق سنة ست ." (١)

" السلطانية بمرسوم شريف

الثالثة نيابة الرها قال في التثقيف **وقد جرت العادة ان** تكون نيابتها طبلخاناه ثم استقر بها في الدولة المنصورية في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة مقدم الف

الصنف الثاني من ارباب السيوف بخارج حلب الولاة وولاية جميعها من نائب حلب بتواقيع كريمة والمشهور منها اثنتا عشرة ولاية

الأولى ولاية برحلب كما في دمشق الا ان والي برحلب هو والي الولاة

الثانية ولاية كفرطاب وواليها جندي

الثالثة ولاية سرمين وواليها في الغالب جندي وربما كان امير عشرة

الرابعة ولاية الجبول وواليها جندي

الخامسة ولاية جبل سمعان وواليها جندي وهو مقيم بمدينة حلب يحضر المواكب مع والي المدينة ووالي البر لقربه منها

السادسة ولاية عزاز وواليها جندي وربما كان امير عشرة

السابعة ولاية تل باشر وكان لها وال بمفردها جندي ثم اضيفت آخرا لعينتاب ." (٢)

---

(١) صبح الأعشى، ٢١٣/٤

(٢) صبح الأعشى، ٢٣٦/٤

" قاسم بن جماز بن قاسم بن مهنا بن الحسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر حجة الله بن عبد الله بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

وإمرتها الآن متداولة بين بني عطية وبين بني جماز وهم جميعا على مذهب الإمامية الرافضة يقولون بإمامة الاثني عشر إماما وغير ذلك من معتقدات الإمامية وأمراء مكة الزيدية أخف في هذا الباب شأنا منهم

الجملة الثالثة في ترتيب المدينة النبوية

أما معاملاتها فعلى ما تقدم في الديار المصرية من المعاملة بالدنانير والدراهم والأمر في الفلوس على ما تقدم في مكة ويعتبر وزنها في المبيعات بالمن وهومائتان وستون درهما على ما تقدم في مكة ويعتبر كيلها بالمد وقياس قماشها بالذراع الشامي وأسعارها نحو أسعارمكة بل ربما كانت مكة أرخى سعرا منها لقربها من ساحل البحر بجدة

وأما إمارتها فإمارة أعرابية كما في مكة من غير فرق

وأما وفود الحجيج عليها **فقد جرت العادة أن** كل من قصد السبق في العود إلى الديار المصرية من الجند وغيرهم يزور النبي عند ذهاب الركب إلى مكة ثم يعود بعد الحج إلى مصر من غير تعريج على المدينة وباقي الحجيج وأمير الركب لا يأتونها للزيارة إلا بعد انقضاء الحج

واعلم أن كسوة الحجرة الشريفة ليست مما يجدد في كل سنة كما في كسوة الكعبة بل كلما بليت كسوة جددت أخرى ويقع ذلك في كل نحو سبع سنين أو ما قاربها وذلك أنها مصونة عن الشمس بخلاف كسوة الكعبة فإنها بارزة للشمس فيسرع بلاؤها ." (١)

" الصنف الثاني ما يصدر عن غير صاحب ديوان الإنشاء كالأمور التي يكتب بها من الدواوين السلطانية غير ديوان الإنشاء وتلتمس الكتب من ديوان الإنشاء على مقتضاها كالمكاتبات الخاصة بتعلقات شيء من الدواوين المذكورة وبعض التواقيع التي أصلها من ديوان الوزارة

وينحصر ذلك في أربعة دواوين

الديوان الأول ديوان الوزارة وهو أعظمها خطرا وأجلها قدرا

وقد جرت العادة أنه إذا دعت الضرورة إلى كتابة كتاب من ديوان الإنشاء يتعلق بديوان الوزارة أن تكتب به قائمة من ديوان الوزارة في ورقة ديوانية بما مثاله رسم بالأمر الشريف شرفه الله تعالى وعظمه أن

---

(١) صبح الأعشى، ٤/٣٠٦

يكتب مثال شريف إلى فلان الفلاني بكذا وكذا وكيفية وضع هذه القائمة أن يكون السطر الأول في رأس الورقة من الوجه الأول منها وآخره شرفه الله تعالى وعظمه وبينه وبين السطر الثاني قدر إصبعين معترضين بياضا وباقي السطور مسترسلة متقاربة بقلم الرقاع ويكتب الوزير في البياض الذي بين السطر الأول والثاني بقلم الثلث ما مثاله يكتب ويوجه بالقائمة إلى ديوان الإنشاء صحبة مدير من ديوان الوزارة أو غيره فيكتب على حاشيتها يكتب بذلك ويعينها على بعض كتاب الإنشاء فيكتب مثالا بما فيها ويخلد القائمة عنده شاهدا له وربما خلدت بديوان الإنشاء في جملة ما يخلد في الأضابير شاهدا لديوان الإنشاء والأول هو ال أليق

وإن كان الذي يكتب من ديوان الوزارة توقيعا بإطلاق أو نحوه مما أصله من ديوان الوزارة كتب الوزير على حاشية قصة صاحبه ما مثاله يكتب بذلك أو ." (١)

" المقصود منها لطولها واختلاط بعض مقاصدها ببعض وأما كونها مبلغة للغرض المطلوب وفهم المخاطب فلأنها إذا كانت بصدد الاختصار المجحف والتعقيد نبا عنها فهم الرئيس ومجها سمعه فإما أن يعرض عنها فيفوت على صاحبها المطلوب وإما أن يسأل غيره عن معناها فيكون سببا لتنزله عن عز الرياسة إلى ذل السؤال وكلاهما غير مستحسن

وقد جرت العادة في مثل ذلك أن يخلى من أول الورقة قليلا ويجعل لها هامش بحسب عرضها ويبتدأ فيها بالبسملة ثم يكتب تحت أول البسملة المملوك فلان يقبل الأرض وينهي كذا وكذا إلى آخر إنهائه ثم يقال وسؤاله كذا وكذا فإن كان السؤال للسلطان قال وسؤاله من الصدقات الشريفة كذا وكذا وإن كان السؤال لغير السلطان قال وسؤاله من الصدقات العميمة كذا وكذا ثم إن كان المسؤول كتابا فإن كان عن السلطان قال وسؤاله مثال شريف بكذا وكذا وإن كان عن غير السلطان قال مثال كريم بكذا وكذا ثم يقول إن شاء الله تعالى ويحمد الله تعالى ويصلي على النبي ويحسبل وربما كتب المملوك فلان بحاشية القصة خارجا عن سمت البسملة وربما أبدل لفظ المملوك بلفظ الفقير إلى الله تعالى ويقال حينئذ بدل يقبل الأرض يبتهل إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة أو يواصل بالأدعية الصالحة ونحو ذلك

وقد جرت العادة في كتابة القصص أن صاحبها إن كان أميرا ونحوه كتب تحت البسملة الملكي الفلاني بلقب سلطانه مخليا بياضا من جانبيها على أنه قد تصدى لكتابة القصص من لا يفرق بين حسنها وقبيحها ولا ينظر في دلالتها ولا يراعي مدلولها وذلك كسنة الزمان في أكثر أحواله

---

(١) صبح الأعشى، ١٩١/٦

قلت وقد جرت عادة أكثر الناس في القصص أنه إذا فرغ الكاتب من ." (١)

" وتدخل القصص إليه فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتا له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولا فأولا فينظر فيه لئلا يقدم بعضها على بعض

قال وقدم عليه رجل فتظلم فأنصفه فاستخفه الفرح حتى غشي عليه فلما أفاق قال ما حسبت أني أعيش حتى أرى هذا العدل فلما رأيته داخلني من السرور ما زال معه عقلي فقال له المهدي كان الواجب أن ننصفك في بلدك وكان قد صرف في نفقة طريقه عشرين دينارا فأمر له بخمسين دينارا وتحلل منه

قال أبو الفضل الصوري ومهما كان من الرقاع يحتاج إلى العرض على السلطان عرضه عليه وأحسن السفارة والتلطف فيه ووقع بما يؤمر به فقد تحدث في هذه الرقاع الأمور المهمة التي تنتفع بها الدولة وتستضر بتأخير النظر فيها ويفهم من طي هذه الرقاع من جور بعض الولاة والمستخدمين ما توجب السياسة صرفهم عما ولوه منها ومهما كان منها مما يشك السلطان في صحته ندب من يثق به للكشف مع رافعه فإن صح قوله أنصف من خصمه وإن بان تمحله قوبل بما يردع أمثاله عن الكذب والتمرد ويعلم الولاة والمشارفون وسائر المستخدمين أن السلطان متفرغ للنظر في قصص الناس وشكاويهم وقد نصب لذلك من يتفرغ له ويطالعه بالمهم منه فيكف أيديهم عن الظلم ويحذرون سوء عاقبة فعلهم ويقل المتظلمون قولا واحدا وتحسن سمعة الدولة بذلك فيكون لها به الجمال الكبير

قلت والذي يرفع من القصص في معنى ذلك في زماننا على ستة أنواع

النوع الأول منها ما يرفع إلى السلطان في آحاد الأيام

وقد جرت العادة فيه أن يقرأ على السلطان فما أمضاه منه كتب على ظهر ." (٢)

" القصة ما مثاله يكتب ثم تحمل إلى كاتب السر فيعينها على بعض كتاب الإنشاء فيكتب بمقتضاها ويخلدها عنده شاهدا له

النوع الثاني ما يرفع لصاحب ديوان الإنشاء

وقد جرت العادة في ذلك أن رافع القصة والمحتاج إلى الأمثلة الشريفة السلطانية في مهماته ومتعلقاته إن كان من الأعيان والمعتبرين كأحد من الأمراء أو المماليك السلطانية وأكابر أرباب الأقلام بعث

---

(١) صبح الأعشى، ١٩٤/٦

(٢) صبح الأعشى، ١٩٦/٦

بقصته لديوان الإنشاء فيقف عليها صاحب ديوان الإنشاء ويتأملها وينظر ما تضمنته فإن كان مما يحتاج فيه إلى مخاطبة السلطان ومؤامرته أخذها ليقرأها عليه عند حضوره بين يديه ويمتثل ما يأمر به فيها فيكتب بمقتضاه سواء طابق سؤال السائل أم لا ويعينها على كاتب من كتاب الإنشاء فيكتب بمقتضاها ويخلد القصة شاهدا عنده وهذه المثالات ورقها من ديوان الإنشاء من المرتب السلطاني وإن كان رافع القصة من غير المعتبرين كآحاد الناس دفع القصة إلى مدير من مدراء ديوان الإنشاء فيجعل عليها علامة له ويجمع كل مدير ما معه من القصص وترفع إلى صاحب ديوان الإنشاء فما كان منها غير سائغ للكتابة عليه قطعه أو رده وما كان منها سائغا كتب عليه وعينه وربما استشكل بعضها فأخره ليقرأه على السلطان وينظر ما يأمر به فيه فيعتمده وإذا عينها على كاتب من كتاب الإنشاء كتب بمقتضاها وخلد القصة عنده شاهدا

النوع الثالث ما يرفع من القصص بدار العدل عند جلوس السلطان للحكم في المواكب

وقد جرت العادة في ذلك أنه إذا ترتب مجلس السلطان على ما تقدم في ترتيب المملكة أن القصص تفرق على كاتب السر ومن حضر من كتاب ." (١)

" الدست فيقرأ كاتب السر منها ما عن له قراءته ثم يقرأ الذي يليه من كتاب الدست ثم الذي يليه إلى آخرهم ويشير السلطان برأسه أو يده بإمضاء ما شاء منها فيكتب كاتب السر أو كاتب الدست على تلك القصة بما فيه خلاص قلمه ثم تحمل إلى ديوان الإنشاء فيعينها على من يشاء من كتاب الإنشاء فيكتبها ويخلد تلك القصص عنده شاهدا

النوع الرابع ما يرفع منها للنائب الكافل إذا كان ثم نائب

وقد جرت العادة أن النائب يكون عنده كاتب من كتاب الدست يجلس بين يده لقراءة القصص عليه وتنفيذ ما يكتب عنه فإذا رفعت القصة إلى النائب الكافل قرأها عليه كاتب الدست وامتثل أمره فيها وأصلح في القصة ما يجب إصلاحه وضرب على ما يجب الضرب عليه وزاد بين سطوره ما تقتضيه الزيادة ثم تدفع القصة إلى النائب الكافل فيكتب على حاشيتها في الوسط آخذا من جهة أسفلها إلى جهة أعلاها بقلم مختصر الطومار ما مثاله يكتب ثم تحمل بعد ذلك إلى كاتب السر فيعينها على بعض كتاب الإنشاء فيكتبها

النوع الخامس ما يرفع من القصص إلى الأتابك إذا كان في الدولة أتابك عسكر وهو الأمير الكبير

---

(١) صبح الأعشى، ١٩٧/٦

وغالب ما يكون ذلك إذا كان السلطان طفلا أو نحو ذلك **وقد جرت العادة أن** يكون عند الأتابك كاتب من كتاب الدست أيضا فإذا رفعت القصة إلى الأتابك وإن كان الأمر فيها واضحا كخلاص حق أو نحوه كتب كاتب الدست ." (١)

" الدار وتجب موافقتهم عليه وإن كان خطأ جريا على المصطلح

الجملة الثانية في موضع كتابة المستند

وقد اصطلح الكتاب على أن يكتب المستند في الغالب بعد التاريخ ويكون الظرف أو الجار والمجرور فيه متعلقا من التاريخ بلفظ كتب وكأنه يقول كتب في تاريخ كذا حسب الأمر الشريف أو بالإشارة الفلانية وربما كتب بحاشية المكتوب في المراسيم الصغار التي تكتب على ظهور القصص ونحوها وكذلك أوراق الطريق وموضع كتابته يقابل بين السطرين الأولين آخذا من جهة الأسفل إلى جهة الأعلى بحيث يكون آخر كتابة المستند مسامتا للسطر الأول فإن كان حسب المرسوم الشريف فقط كتبه سطرا واحد وإن كان من دار العدل كتب حسب المرسوم الشريف سطرا ومن دار العدل الشريف سطرا تحته وكذلك إن كان من ديوان الخاص كما يكتب في أسفل الكتاب وإن كان برسالة الدوادار **فقد جرت العادة أن** يكتب حسب المرسوم الشريف في أسفل الكتاب تحت التاريخ سطرا واحدا ويكتب برسالة الجناب العالي الأميري الكبيري الفلاني الدوادار الفلاني ضاعف الله تعالى نعمته بالهامش في المحل المتقدم سطرين كما كان يكتب بآخر الكتاب وإن كان المستند الإشارة كتب جميعه بحاشية الكتاب في المحل المقدم ذكره سطرين على ما تقدم بيانه

الطرف الرابع في الحمدلة في آخر الكتاب وفيه جملتان

الجملة الأولى في الأصل في كتابتها

والأصل في ذلك أن الله سبحانه كما جعل الحمد مفتاحا للأمور تيمنا ." (٢)

" المكاتبة إلى الخلفاء ذكر ترتيبها إن شاء الله تعالى

وأن كان المكتوب عنه ملكا **فقد جرت العادة أن** يعبر عنه بنون الجمع للتعظيم فيقال فعلنا كذا وأمرنا بكذا واقتضت آراؤنا الشريفة كذا وبرزت مراسيمنا بكذا ومرسومنا إلى فلان أن يتقدم بكذا أو يتقدم أمره بكذا وما أشبه ذلك وذلك أن ملوك الغرب كانوا يجرون على ذلك في مخاطباتهم فجرت الملوك على

---

(١) صبح الأعشى، ١٩٨/٦

(٢) صبح الأعشى، ٢٥٤/٦

سننهم في ذلك وفي معنى الملوك في ذلك سائر الرؤساء من الأمراء والوزراء والعلماء والكتاب ونحوهم من ذوي الأقدار العلية والأخطار الجليلة والمراتب السنية في الدين والدنيا ممن يصلح أن يكون آمرا وناهيا إذا كتبوا إلى أتباعهم ومأموريهم إذ كانت هذه النون مما يختص بذوي التعظيم دون غيرهم وشاهد ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى (حتى إذا حضر أحدهم الموت قال رب ارجعون) فدعاه دعاء المفرد لعدم المشاركة له في ذلك الاسم وسأله سؤال الجمع لمكان العظمة إلى غير ذلك من الآيات الواردة مورد الاختصاص له كما في قوله تعالى (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها) وقوله (إنا نحن نحيي الموتى) وقوله (نحن الوارثون) وغير ذلك من الآيات قال في معالم الكتابة وقد أخذ كتاب المغرب بهذا مع ولاة أمورهم في الجمع بالميم فخاطبوا الواحد مخاطبة الجمع مثل أنتم وفعلتم وأمرتم وما أشبه ذلك

قلت والأمر في ذلك عندهم مستمر إلى الآن قال ابن شيث وهو غير ما صور به عند غيرهم ." (١)

" قلت قد تقدم في صدر الكلام على المكاتبات ذكر أصول يعتمدها الكاتب في كتبه تعم الكتب السلطانية وغيرها وأنا أذكر هنا ما يختص منها بالكتب الصادرة عن السلطان على النمط الجاري عليه الاصطلاح الآن ليسهل القصد إليها لقربها ويحصل الغرض من ذلك بذكر تسعه أمور

أولها مقادير قطع الورق قد تقدم في الكلام على مقادير قطع الورق المستعملة في دواوين الإنشاء جملة والذي يختص منها بالكتب الصادرة عن السلطان أربعة مقادير

أحدها قطع البغدادي الكامل وقد مر أنه يكتب فيه للقانات

وثانيها قطع النصف وفيه يكتب إلى أكابر الملوك ممن دون القانات

وثالثها قطع الثلث وفيه يكتب إلى الرتبة الثانية من الملوك

ورابعها قطع العادة وفيه يكتب إلى أصاغر الملوك والولاة وغيرهم

الثاني العنوان قد تقدم في مقدمة الكتاب أن الذي كان يكتب عنوانات الكتب السلطانية في الزمن المتقدم هو صاحب ديوان الإنشاء دون غيره أما الآن فإن كاتب كل كتاب صار هو الذي يكتب عنوانه بنفسه

وقد جرت العادة في عامة الكتب السلطانية أن يكون المكتوب فيها هي ألقاب المكتوب إليه ونعوته التي في صدر المكاتبة في الباطن ثم يدعى للمكتوب إليه في آخر الألقاب بالدعوة التي صدر بها الدعاء في الصدر مثل أعز الله أنصاره أو ضاعف الله نعمته وما أشبه ذلك من الأدعية التي تفتتح بها

---

(١) صبح الأعشى، ٦/٢٨٩

المكاتبات فإن كان الكتاب مفتتحا بالحمدلة أو بلفظ من فلان كتب في العنوان الألقاب التي في صدر الكتاب بعد ذلك ثم بعد الدعاء يخلي بياضا قليلا ثم يذكر تعريف المكتوب إليه مثل صاحب فلانة ونحو ذلك مما تقدم ذكره من التعريفات وتكون كتابة العنوان بنظير قلم الباطن في الدقة والغلظ وتكون أسطره متصلة من أول عرض الدرج إلى آخره وأسطره متلاصقة متتالية ." (١)

" الثالث الطرة التي يكتب فيها تعريف المكتوب إليه والعلامة التي يكتبها المكتوب عنه والسبب في كتابته

وقد جرت العادة في ذلك أنه يكتب في رأس الدرج في الجانب الأيمن إلى فلان وفي الجانب الأيسر بسبب كذا وكذا وفي الوسط العلامة التي يعلمها السلطان مثل أخوه أو والده أو اسمه لينظر عند علامة السلطان على الكتاب فيعلم حال الكتاب ويجرى الأمر في العلامة على هذا الرسم وتكون كتابتها بقلم الكتاب من ثلث أو رقاع أو غيرهما إلا أن يكون الكتاب بمختصر الطومار في قطع البغدادي فيكون ذلك بقلم الثلث وهذه الطرة تقطع بعد أن يعلم على الكتاب

الرابع البياض في أعلى الكتاب **وقد جرت العادة في** الكتب السلطانية أن العلامة إلى المكتوب إليه إن كانت أخوه أو والده ترك فيه ثلاثة أوصال بياضا بما فيه من وصل العنوان ثم تكتب البسملة في رأس الوصل الرابع وإن كانت العلامة إليه الاسم ترك وصلان بياضا فقط وكتبت البسملة في أول الوصل الثالث ثم يكتب السطر الأول من الكتاب على سمت البسملة ملاصقا لها ثم يخلى موضع العلامة بياضا ويكتب السطر الثاني على سمت الأول في أواخر ذلك الوصل على قدر إصبعين من آخره ثم يجعل بين كل سطرين أربعة أصابع مطبوقة إن كان القطع صغيرا وإن كان القطع كبيرا كان فيه قدر ربع ذراع أو نحوه بحسب المناسبة فإذا أنتهى إلى آخر الكتاب كتب إن شاء الله تعالى في ." (٢)

" الفصل الخامس

من الباب الثاني من المقالة الرابعة في الكتب الواردة على الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية ممن جرت العادة بمكاتبته إليها من أهل المملكة وغيرها من سائر الممالك المكاتبة عن هذه المملكة وهي نوعان

النوع الاول المكاتبات الواردة عن ملوك المسلمين وهي على قسمين

---

(١) صبح الأعشى، ٢٠/٨

(٢) صبح الأعشى، ٢١/٨

القسم الأول في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة بالديار المصرية والبلاد الشامية ممن يؤهل للمكاتبة إلى الأبواب السلطانية من النواب وغيرهم من الأمراء وأرباب الأقلام من الوزراء والعلماء ومن في معناهم وهم على ضربين

الضرب الأول في المطالعات الواردة عن أكابر أهل الدولة بالديار المصرية والبلاد الشامية من النواب ومن في معناهم

قد جرت عادة من يكتب إلى الأبواب السلطانية من أهل هذه المرتبة أن يكتب جميعهم كتبهم في قطع العادة فإن كان بالديار المصرية فمن الورق البلدي وإن كان بالبلاد الشامية فمن الورق الشامي وجميع ذلك في الورق الأبيض إلا نائب الشام ونائب الكرك فإنهما **قد جرت العادة فيهما** بأنهما يكتبان إلى الأبواب السلطانية في الورق الأحمر الشامي شيء اختصا به دون سائر أهل المملكة ." (١)

" المهيع الأول في رتب المكاتبات المصطلح عليها

وقد اختلفت مقاصدهم في ترتيبها اختلافا متقاربا في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير مع مراعاة أصول المراتب وها أنا أذكر ما أستقر عليه الحال من ذلك وأنبه على ما خالفه من ترتيبهم المتقدم الذكر لتحصل الإحاطة به ويعلم ما جرى عليه أهل كل عصر منهم مما لعل مختارا يختاره أو ينسج على منواله منبها على وهم من وهم في شيء من ذلك

واعلم أنهم قد بنوا هذا النوع من الإخوانيات على قاعدتين تتعين معرفتهما قبل الخوض في رتب المكاتبات

القاعدة الأولى فيما يتعلق بورق هذه المكاتبات

قد جرت العادة أن تكون جميع هذه المكاتبات من الأعلى إلى الأدنى ومن الأدنى إلى الأعلى ومن النظير إلى النظير في ورق قطع العادة دون ما فوقه من مقادير قطع الورق المتقدمة الذكر غير أن أعيان أهل الديار المصرية يكاتبون في الورق المصري وأعيان أهل الشأم يكاتبون في الورق الشامي لكثرة وجوده عندهم والمعنى في ذلك أن كتب السلطان الصادرة عنه إلى جميع أهل المملكة من النواب وغيرهم في هذا القطع فلا جائز أن تعلو مكاتبة أحد منهم على مكاتبة السلطان في ذلك

ثم قد اصطلحوا على أن يكون في أعلى المكاتبة عن كل أحد من أعيان الدولة قبل البسملة وصل واحد بياضا إذ كان أقل ما يجعل بياضا في كتب السلطان وصلين فاقتصروا على وصل واحد كي لا يساويه

---

(١) صبح الأعشى، ٥٦/٨

غيره في ذلك واصطلحوا أيضا على أن لا تنقص المكاتبات المذكورة عن ثلاثة أوصال الوصل الأبيض في أعلى المكاتبة على ما تقدم ووصلان مكتوبان إذ لو نقص عن ذلك لخرج الكتاب في القصر عن الحد فيزدرى أما لو دعت الضرورة إلى الزيادة على الثلاثة لزيادة الكلام فلا مانع منه واصطلحوا على أن يترك للكتاب حاشية بيضاء تكون بقدر ربع الدرج على ما تقدم ذكره في غير هذا الموضع ." (١)

" قلت وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية لا يمتنع وقوعه في وقت من الأوقات فإن عرض له موجب راعى الكاتب فيه صورة الحال وكتب على ما يوجبه المقام وتقتضيه تلك الوقعة

الصنف الثاني والعشرون ما يكتب مع الإنعام لنواب السلطنة بالخيل والجوارح وغيرها من أنواع الإنعامات وهذا الصنف من المستعمل في زماننا كل وقت

فأما ما يكتب مع الإنعام بالخيل **فقد جرت العادة أن** السلطان ينعم بالخيل على نواب السلطنة بالشام ويكتب بذلك مثالات شريفة إليهم وربما أنعم بالخيل وكتب بها في غير ذلك

وهذه نسخة مثال شريف من ذلك

ضاعف الله تعالى نعمة الجناب وخصه من النعم بما لا تحصى له آثار ولا يتعلق له بغبار ولا يوصف بحال واحدة لأنه إن جرى فبحر وإن وقف فنار

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي بكل سلام لا تدرك لسوابقه غاية ولا تحصى له نهاية ولا يرد منه كل ما جاء وله في وجهه كفلق الصبح آية ولا يتقدم في ميدان إلا وقد حمل له في كل مكان راية وتوضح لعلمه الكريم أنه قد جهز له قرينها ما جرت به عادته من الحصن التي لا يدعي البرق أنه لها نظير ولا تجاري الرياح من سوابقها ما يطير كم لها في ميدان مجال وكم لها في رؤية دوية ارتجال وكم دعي الوغى بها على كل ضامر فأتت رجالا تقدح سنابكها نارا وتفيض جوانبها من الركض عقارا ويتكفل بديعها بكل مرام وتعطي ما في يديها لأنها من الكرام وقد تشرفت من نعمنا الشريفة بالسروج واللجم والعدة المكملة وتحلت من الذهب والفضة ما يغني بجملته المفصلة وأرسلناها إليه ترقص في أعنتها زهوا وتترك بطيب صهيلها كل بحر تخوضه إلى المنايا رهوا وتوجه بها فلان كالعرائس المجلوة في حللها والنجوم لولا ما تميزت به من حلي عطلها والسحاب إلا أنها لا تحتاج منة الرياح في تنقلها ." (٢)

---

(١) صبح الأعشى، ١٧٣/٨

(٢) صبح الأعشى، ٣٥٤/٨

" الضرب الثالث من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نواب السلطنة الى النواب بسبب ما يرد عليهم من المثالات السلطانية

اعلم أنه **قد جرت العادة بأنه** إذا ورد على نائب السلطنة بالشام مثال شريف من الابواب السلطانية يأمرهم كتب نائب الشام الى نواب السلطنة بورود المثال الشريف مبشرا بذلك ويجهز إلى كل منهم مع المثال الوارد إلى كل نائب من نواب السلطان معنى المثال الوارد من الأبواب السلطانية بذلك إلا أنه يكون حاكيا لصورة المثال الوارد بذلك لا أنه مبتدئه ويشتمل ذلك على عدة أمور

فمن ذلك جلوس السلطان على تخت الملك فيخبر نائب الشام في الكتاب الصادر عنه إلى بعض النواب بان المثال الشريف ورد عليه بذلك وأنه ورد كتاب إلى المكتوب إليه فجهزه إليه

وهذه نسخة كتاب من ذلك كتب به عن نائب الشام الى بعض نوات السلطنة بالبشارة بسلطنة السلطان الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ابن قلاوون وقد ورد على يد بعض الحجاب من إنشاء الشيخ جمال الدين بن ." (١)

" المهيع الثاني من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب به عن نواب السلطان والاتباع إلى السلطان ابتداء

وهو على أنواع كثيرة نذكر منها ما يستضيء به الكاتب في مثله

فمن ذلك ما يكتب عن نائب كل مملكة إذا وصل إلى محل ولايته

قد جرت العادة أن النائب إذا وصل الى مملكته ومقر ولايته كتب الى السلطان يخبره بذلك وبما المملكة عليه

وهذه نسخة مكاتبة من ذلك كتب بها عن نائب حلب في معنى ذلك وهي

يقبل الارض وينهى أن المملوك وصل الى المملكة الفلانية المحروسة وحل محلها المأنوسة التي شملته الصدقات الشريفة بكفالتها واهلته المراحم المنيفة لايالتها رافلا في حلل الانعام الشريف متفيئا ظل العز الوريف صحبة فلان مسفره ودخلها يوم كذا من شهر كذا لابسا تشريفه الشريف المنعم به عليه ماشيا لمحل الكرامة الذي سار إليه بحضور من جرت العادة بحضوره من قضاة القضاة والأمراء والحجاب والعساكر المنصورة والأصحاب على أجمل العوائد وأكمل القواعد وقبل الأرض بباب القلعة المنصورة ودخل دار العدل الشريف وقطوف الأماني له مهصورة وقريء بها بحضرة أولياء الدولة تقليده وعظم المراسم الشريفة

---

(١) صبح الأعشى، ٣٦٣/٨

تأييده وتصدى لما نصبته له المراسم الشريفة من إنصاف المظلوم وتنفيذ كل مهم شريف ومرسوم وتصفح أحوال المملكة وسلك كل أحد مسلكه واستجلبت الأدعية لمولانا السلطان واجتهد في حياطة البلاد ممن يمد إليه شيطان المفسدين بأشطان وانتظم له امر المملكة بالمهابة ." (١)

" يسوغ أن يهنأ بإدراك ما كتب الله له أن يدركه بأقلام الأقدار على صفحات الليل والنهار والعبد يسأل الله تعالى ضارعا إليه في إنهاض أمير المؤمنين بما حمله وكلفه وتوفيقه فيما كفله واستخلفه وأن يمكن له في الارض ويعلي يده بالبسط والقبض ويمده بعز السلطان وعلو الشان وظهور الأولياء وثبور الأعداء وإعزاز الدين وابتزاز الملحدين وتقوية يده في نصره الإسلام وسياسة الأنام ويعرف رعيته من يمن دولته وسعادة ولايته ما يجمعهم على الطاعة والموافقة ويعصمهم من المعصية والمفارقة ويوفقهم من الإخلاص في موالاته لما يوفر حظهم من مرضاته ويجعل ولايته هذه مقرونة بانفساح المدة والأجل وبلوغ المنى والأمل وصالح القول والعمل ويبلغه في مملكته ودولته أفضل ما بلغه خليفة من خلفائه ووليا من أوليائه

ومن ذلك ما يكتب في البشارة بالفتوح

قد جرت العادة أن السلطان إذا وجه جيشا لفتح قلعة أو قطر من الأقطار وحصل الفتح على يديه أن يكتب السلطان مبشرا بذلك الفتح منوها بقدره معظما لأمره وما كان فيه من عزيز النصر وقوة الظفر

فمن مكاتبة في البشارة بفتح حصن المرقب وهي

قد أسفر عن الفتح المبين صباحه والتأييد وقد طار به محلق التباشير فخفق في الخافقين جناحه والإسلام وقد وطيء هامة الكفر بمقدمه والدين وقد عز بفتكات سيفه المنصور فأنف أن يكون الشرك من خدمه والأفلاك وقد علمت أنه لهذا الفتح القريب كان اجتماع كواكبها والأملاك وقد نزلت لتشهد ." (٢)

" الوسن ومن زائد الاكتئاب ما كاد يحرمه التقمص بثوب الثواب بحيث إنه عوض بالزمن الأسود عن العيش الأخضر وذاق من موجب لبس الأبيض طعم الموت الأحمر وأنه ضمه إليه ضم المحبوب وابتهج به ابتهاج من ظفر بغاية السول والمطلوب فأغمدت الكآبة خوفا من قلمه سيفها وأزالت الدنيا الدنية عنه حيفها وعزى نفسه وسلاها وشغله إحسانه عن محاسن محا الموت سناها فرفض من توجعه ما فرضته حادثته وسلك منهجا غير المنهج الذي فتتت فيه حشاه ومهجته فالله تعالى يكفينا ما نحاذره في المجلس ويحرس سناه ويديم سعده وعلاه

---

(١) صبح الأعشى، ٣٩٢/٨

(٢) صبح الأعشى، ٣٩٥/٨

النوع الثالث من مقاصد المكاتبات التهادي والملاطفة

قال في مواد البيان رقاع التهادي يجب أن تودع من الألفاظ المستحسنة ما يمهد لقبول الملاطفة والمبرة التي تتميز في المودة قال وينبغي أن يطرف الكاتب إذا كان مهديا أو مستهديا **وقد جرت العادة أن** تودع هذه الرقاع من أوصاف الشيء المهدى ما يحسنه في نفس المهدى إليه قال وينبغي لمن ذهب هذا المذهب أن لا يعتمد تفخيم هديته ولا الإشارة إلى جلالة خطرها فإن ذلك يخل بشروط المروءة ويتحاماه الكرماء

ثم هي على ثلاثة أضرب

الضرب الأول ما يكتب مع التقادم إلى الملوك من أهل مملكتهم إلى القائمين بإيصال التقدمة إلى الملك وكاتب السر ونحوهما

الشيخ جمال الدين بن نباتة إلى كاتب السر بالأبواب السلطانية ." (١)

" ومقدمي العساكر والأجناد ورؤساء البلاد متابعته وموافقته وطلب مصالحهم من جنابه والتصرف على استصوابه وقد أكدت وصاته في الرفق بهم والاشتمال عليهم والإحسان إليهم وإجمال السيرة فيهم وكلما أشكل عليه أمر من المتجددات يطالع به الديوان العزيز مجده الله تعالى لينهج له السبيل إلى فتح رتاجه وسلوك منهاجه والله ولي التوفيق والهداية وجمع الكلمة في كل إعادة وبداية والمعونة على العصمة من الزلل والتأييد في القول والعمل إن شاء الله تعالى وهو حسبنا ونعم الوكيل

الوجه السابع فيما يكتب في مستند عهد السلطان عن الخليفة وما يكتبه الخليفة في بيت العلامة وما يكتب في نسخة العهد من الشهادة أو ما يقوم مقامها

أما ما يكتب في المستند **فقد جرت العادة أن** يكتب فيه نحو ما تقدم في البيعات وعهود ولاة العهد بالخلافة وهو بالإذن العالي المولوي الإمامي النبوي الفلاني بلقب الخلافة أعلاه الله تعالى

وأما ما يكتبه الخليفة في بيت العلامة فإنه يكتب علامته وتحتها فوضت إليه ذلك وكتب فلان بن فلان

ورأيت في بعض الدساتير نقلا عن الحاكم بأمر الله أبي العباس ابن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان أنه كان يكتب وكتب أحمد ابن عم سيدنا محمد

---

(١) صبح الأعشى، ٩/١٠١

وأما ما يكتب في نسخة العهد من الشهادة **فقد جرت العادة أن** يكتب قاضيان فأكثر من قضاة القضاة الأربعة في حاشية العهد أو في ذيله ما صورته أشهدني مولانا أمير المؤمنين العاهد المشار إليه فيه أدام الله تعالى أيامه بما نسب إليه فيه من العهد إلى فلان بن فلان أو ما في معنى ذلك ." (١)

" ثم الذي رأيته في دستور معتمد ينسب للمقر العلائي بن فضل الله أنه يكون بين كل سطرين قدر ربع ذراع

وأخبرني بعض فضلاء الكتاب أنه رأى في بعض الدساتير أن سطوره تكون مزدوجة على نظير البسملة والسطر الأول وبين كل سطرين بعد بيت العلامة تقدير خمسة أصابع مطبوقة

قلت ولعل ذلك تفنن من الكاتب وتطريز للكتابة لا على سبيل اللزوم

فإن قيل لم كان مقدار البياض بين سطور العهد مع كبر قطع الورق دون بياض ما بين سطور التقاليد ونحوها مما يكتب عن السلطان على ما سيأتي ذكره فالجواب أن العهد كالمكاتبة من العاهد للمعهود إليه كما أن التقليد كالمكاتبة من المقلد للمقلد والأعلى في حق المكتوب إليه أن تكون السطور متضايقة على ما تقدم في الكلام على المكاتبات فناسب أن تكون سطور العهد أكثر تقاربا من سطور التقليد وما في معناه تعظيما لشأن السلطان في الحالتين

فإن قيل ينقض ذلك بعظم قلم العهد ضرورة أنه كلما غلظ القلم كان أنزل في رتبة المكتوب إليه على ما تقدم أيضا فالجواب أن غلظ القلم في العهد تابع للورق في كبر قطعه وقاعدة ديوان الإنشاء أنه كلما كبر قطع الورق في المكاتبات كان تعظيما للمكتوب إليه بدليل أن كل من عظم مقداره من الملوك كان قطع الورق في مكاتبته أكبر ولو كتب العهد بقلم دقيق مع ضيق السطور وسعة الورق لجاء في غاية القصر

ثم **قد جرت العادة أن** تكون كتابة العهد من أوله إلى آخره من غير نقط ولا شكل وعليه عمل الكتاب إلى آخر وقت

قلت هذا بناء على المذهب الراجح في أن المكاتبة إلى الرئيس تكون من غير إعجام ولا ضبط لما في الإعجام والضبط من استجهال المكتوب إليه ونسبته للغباوة وقلة الفهم بخلاف من ذهب إلى أن الكتابة إلى الرئيس تقيد بالإعجام والضبط كي لا يعترضه الشك ولا يكلف إعمال الفكر على ما تقدم ذكره في أوائل المكاتبات فإنه يرى نقط العهد وشكله

---

(١) صبح الأعشى، ١٠/١٥٨

وإذا انتهى إلى آخر العهد كتب المشيئة ثم التاريخ ثم المستند ثم ." (١)

" ما تقتضيه الحال ويحتمله المقال بل ربما ولي بعض المناصب من فيه صفات تستحق ألقابا ونعوتا خاصة فيكتب له بذلك مراعاة لما يقتضيه حاله ويستوجبه مقامه ثم يلي ذلك المنصب بعده من لا يستحق الوصف بالألقاب والنعوت التي تخص المتقدم فيؤتى بها للثاني كما اتفق فيما كتب به في نيابة الشام حين وليها الأمير بيدمر الخوارزمي رحمه الله وكان من الديانة على ما لا يوجد في غيره فكتب في ألقابه حينئذ العابدي الناسكي الخاشعي فلزمت فيمن بعده وصارت مما يكتب به إلى الآن سواء اتصف نائبها بدين أم لا وكما اتفق في الصاحب علم الدين بن زنبور حين اجتمع له الوزارة ونظر الخاص والجيش فكتب له بألقاب ونعوت جامعة لألقاب تلك الوظائف ونعوتها فاستمر ذلك فيما يكتب به لكل من ولي الوزارة بعده إلى الآن حتى إنه يكتب في ألقاب الوزير الآن مرتب الجيوش وهو الألقاب الخاصة بناظر الجيش استطرادا لما كتب به لابن زنبور لانضمام نظر الجيش إليه على ما تقدم وكما اتفق فيما كتب به للشيخ تقي الدين السبكي من الألقاب الجليلة المقدار الرفيعة المكانة في قضاء الشام لرفعة مقامه واتساع باعه في العلم وعلو مكانته في الخاصة والعامة فلزم كتابة ذلك لقاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية من حيث إنه لا يليق بالحال أن يكون قاضي الشام أعلى رتبة من قاضي الديار المصرية ثم سرى ذلك في كل من ولي المنصب بعد ذلك وهلم جرا إلى زماننا

ومما يلتحق بذلك أنه **قد جرت العادة في** الزمن المتقدم وهلم جرا إلى ." (٢)

" من هذه الرتبة وتذكر بعض ألقابه ثم يقال أدام الله علوه أو أعزه الله فليتقدم ويكمل إلى آخره

واعلم أن المقر الشهابي ابن فضل الله رحمه الله قد ذكر في التعريف افتتاحات أخرى للتواقيع بين رتبة أما بعد حمد الله ورتبة رسم بالأمر الشريف فقال بعد الافتتاح بأما بعد حمد الله وقد تستفتح بقول أما بعد فإن أولى ما كان كذا أو ما هذا معناه وقد تستفتح بقول من حسنت طرائقه وحمدت خلائقه أو ما هذا معناه وجعلها رتبة بعد رتبة

قلت وهذه الافتتاحات كانت مستعملة في الدولة العباسية ببغداد وفي الدولة الفاطمية بالديار المصرية والبلاد الشامية ثم في الدولة التركية إلى زمن المقر الشهابي المشار إليه في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون

---

(١) صبح الأعشى، ١٠/١٦٠

(٢) صبح الأعشى، ١١/٨٥

ثم رفضت بعد ذلك وترك استعمالها بالديار المصرية البتة فلم يكن أحد من كتاب ديوان الإنشاء يستعمل شيئا منها

المقصد الثالث في بيان كيفية وضع ما يكتب في هذه الولايات في الورق ويتعلق به عشرة أمور

الأمر الأول الطرة وهي في اصطلاحهم عبارة عن طرف الدرج من أعلاه ثم أطلقوه على ما يكتب في رأس الدرج مجازا تسمية للشيء باسم محله

قلت وليس صحيحا من حيث اللغة فإنه في الأصل مأخوذ من طرة الثوب وقد ذكر الجوهري وغيره أن طرة الثوب هي طرفه الذي لا هدب فيه والذي لا هدب فيه من الثوب هو حاشيتاه بخلاف أعلاه وأسفله نعم يجوز أن تكون مأخوذة من الطر بمعنى القطع لأن الطرة مقتطعة عن كتابة المتن يفصل بينهما بياض ومنه سمي الشعر المرسل على الصدغ طرة **وقد جرت العادة في** كل ما يكتب له طرة أن يكتب في أعلى الدرج في الوسط بقلم الرقاع بكل حال ." (١)

" فإنه مبارك أينما كان ورحمة للأنام والاعتماد على الخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى

الوظيفة الثالثة نقابة الأشراف

وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية في المقالة الثانية أن موضوعها التحدث على الأشراف وهم أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من فاطمة بنت رسول الله

قلت **وقد جرت العادة أن** الذي يتولى هذه الوظيفة يكون من رؤوس الأشراف وأن يكون من أرباب الأقلام وإنما أوردته مع أرباب السيوف لأن المقر الشهابي بن فضل الله قد ذكر في بعض دساتيره الشامية أنه يكتب لنقيب الأشراف الأميري ولا يكتب له القضائي ولو كان صاحب قلم وقد رأيت له عدة تواقيع على ذلك مكتتبة من الأبواب السلطانية وعن نائبي الشام وحلب وغيرهما معبرا عنه فيها بالأميري وتوقيعه في قطع الثلث مفتتح بخطبة مفتتحة بالحمد لله

وهذه نسخة توقيع بنقابة الأشراف وهي

الحمد لله مشرف الأنساب وموفي الأحساب حقوق ملاحظتهم بغير حساب وجاعل أيامنا الشريفة تحمد الاكتساب

---

(١) صبح الأعشى، ١٢٦/١١

نحمده بمحامد حسنة الإيجاد والإيجاب ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا شك في مقالها ولا ارتياب ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ونبيه الذي أنزل عليه الكتاب وشرف به الذراري من شجرته المباركة الأعقاب وعلى آله وصحبه صلاة لا تتوارى شمسها بحجاب

وبعد فإن خير ما صرفت الهمم إلى تشييد مبانيه وتقييد مهمل رواعيه ." (١)

" وللرعايا في أكثر معايشهم وأسبابهم نافعة فإذا استقرت الفروع كانت الأصول لها جامعة وفقهاء مذهبه هم الفقراء لقلة المحصول وضعف الأوقاف وهم على الرقة كالرماح المعدة للثقاف فخذ بخواطرهم ومد آمالهم في غائب وقتهم وحاضرهم واشملهم بالإحسان الذي يرغبهم ويقل به طلبهم لوجوه الغنى ويكثر طلبهم

الطبقة الثانية من أرباب الوظائف الدينية أصحاب التواقيع وتشتمل على مراتب

المرتبة الأولى ما كان يكتب في النصف بالمجلس العالي كما كان يكتب للقضاة الأربعة أولا وقد تقدم

المرتبة الثانية ما يكتب في قطع الثلث بالسامي بالياء

واعلم أن الأصل فيما يكتب من التواقيع أن يفتتح بأما بعد إلا أن الكتاب تسامحوا فيه فافتتحوا لمن علت رتبته حيث اقتضى الحال الكتابة له في الثلث بالحمد لله وأبقوا من انحطت رتبته عن ذلك على ما كان عليه من الافتتاح بأما بعد وها أنا أورد ما سنح من ذلك مما أنشأه الكتاب في ذلك من الافتتاحين جميعا ويشتمل على وظائف

الوظيفة الأولى قضاء العسكر

وقد تقدم في المقالة الثانية أن موضوعها التحدث في الأحكام في الأسفار السلطانية وأن له مجلسا يحضره بدار العدل في الحضر **وقد جرت العادة أن** ." (٢)

" فكره مشيدة بما يبديه من أوضاح التقرير وغرره من سما همة وحسن سمتا وسلك في الأمانة طريقا لا عوج فيها ولا أمتا وحل في الرتب فحلاها وتنقل فيها فما قالت له إيه إلا وقال الذي فارقها آها وكان فلان هو الذي استحق بكفايته حسن التنقل واستوجب الصلة والعائد لما فيه من جميل التأتي والتوصل

---

(١) صبح الأعشى، ١٦١/١١

(٢) صبح الأعشى، ٢٠٢/١١

اقتضى حسن الرأي الشريف أن ننقله إلى رتب السعادة وأن نخصه كل حين من نعمنا بالحسنى وزيادة فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقر

فليضبط أصولها وفروعها ومفردها ومجموعها وليؤنس بحياطة اجتهاده ربوعها وليكفلها بأمانة تضم أطرافها ونزاهة تحلي أعطافها وكتابة تحصر جليلها ودقيقها ونباهة توفي شروطها وحقوقها وليحرر واردها ومصروفها ليغدو مشكور الهمم موصوفها وليلاحظ جرائد حسابها ويحفظ من الزيغ قلم كتابها حتى ينمي تصرفه فيها على الأوائل ويشكر تعرفه وتعطفه على كل عامل ومعامل والله تعالى يبلغه من الخير ما هو آمل بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى

الوظيفة الخامسة نظر خزائن السلاح

وقد تقدم أن موضوعها التحدث فيما يستعمل ويبتاع من أنواع السلاح الذي يحمل للزردخاناه السلطانية **وقد جرت العادة أن** يحمل ما يتحصل من ." [1]

" بدوامه ولوحظ بعين الإقبال ما أسلفه من حسن الطاعة لله ولرسوله ولإمامه من جد في الخدمة فأضحى الجد له خادما وداوم على المناصحة فغدا سعده دائما وأخذ من كل فضل بزمامه ومت بما له على الدولة الشريفة من حرمته وذمامه وسلك في أداء الأمانة السنن القويم وجعل على خزائن الأرض بما تلا لسان فضله (إني حفيظ عليم) وتمسك من الإخلاص بأقوى الأسباب وجعلت له التقوى محلا يدخل عليه ملائكة القبول من كل باب وزين سماء المعالي بكواكب مجده فما تشوف إليها طرف متطاول إلا واتبعه شهاب

ولما كان فلان هو الذي غدا حسن مناقبه إلى شكره مرشدا وإلى ذكره بالجميل مسعدا وألهج لسان القلم في وصفه منشدا واختص من هذه المحامد بأوفرها قسما وطلع في أفق هذا الثناء الجميل نجما فلذلك رسم

ومنها استيفاء الدولة

وموضوعها التحدث في كل ما يتحدث فيه الوزير وناظر الدولة وضبط الأموال الديوانية وكتابة الحسبانات وكل ما يجري مجرى ذلك **وقد جرت العادة أن** يكون فيها مستوفيان

وهذه نسخة توقيع باستيفاء الدولة

---

(١) صبح الأعشى، ٣٣٩/١١

أما بعد حمد الله الذي صان الأموال بالأقلام المحررة والدفاتر المسطرة والحسبانات المصدرة والجوامع المسيرة والتيقظ الذي استخرج ." (١)

" على مقتضى دينهم وغير ذلك

وقد تقدم في الكلام على النحل والملل أن الموجودين من اليهود ثلاث طوائف وهم الربانيون والقراؤون والسامرة **وقد جرت العادة أن** يكون الرئيس من طائفة الربانيين دون غيرهم وهو يحكم على الطوائف الثلاث

وهذه نسخة توقيع برآسة اليهود من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر وهي

أما بعد حمد الله الذي جعل ألطاف هذه الدولة القاهرة تصطفي لذمتها من اليهود رئيسا فرئيسا وتختار لقومها كما اختار من قومه موسى وتبهج لهم نفوسا كلما قدمت عليهم نفيسا والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي والرسول الذي أجمل الوصية بالملي والذمي وعلى آله وصحبه ما هطل وبلي وما نزل وسمي فإن معدلة هذه الدولة تكتنف الملل والنحل بالاحتياط وتعمهم من إنصافها وإسعافها بأوفر الأنصباء وأوفى الأقساط وتلمهم من حادث الزمن إذا اشتط ومن صرفه إذا شاط وتضمهم كما ." (٢)

" نومة لا ينتبهون بها من كراهم حتى يتأدب بهم كل من أغرض ويتداوى بمداواته كل من في قلبه مرض وما أشكل عليك فاسترشد فيه بمطالعة أبوابنا الشريفة لتجد هدى واضحا وحقا لائحا والله تعالى يجعلك من الممهدين لأرضه القائمين في أنواع الجهاد بفرضه والاعتماد على الخط الشريف أعلاه

الجهة الثالثة درب الحجاز الشريف

وقد تقدم أنه كان في الزمن المتقدم يكتب عن السلطان تقليد لأمير الركب في الدولة الفاطمية وما تلاها أما الآن فقد ترك ذلك ورفض كما رفض غيره من الكتابة لأرباب السيوف بالحضرة السلطانية ولم يبق الآن من يكتب له من ديوان الإنشاء شيء سوى قاضي الركب **وقد جرت العادة أن** يكتب له توقيع في قطع العادة مفتتحا برسم

وهذه نسخة توقيع من ذلك كتب به للشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله في مبدإ أمره وهي

رسم بالأمر الشريف لا زال يعين على البر والتقوى ويرتاد لوفد الله من يتمسك في نشر الأحكام الشرعية بينهم بالسبيل الأقوم والسبب الأقوى أن يستقر فلان في كذا لما اختص به من غزارة علومه وإفاضة فضائله المتنوعة إلى قوته في الحق وتصميمه فإن مثله من يختار لهذه الوظيفة الجارية بين وفد الله الذين

---

(١) صبح الأعشى، ١١/٣٥٠

(٢) صبح الأعشى، ١١/٣٧٩

هم أحق ببراءة الذمم وأولى بمعرفة حكم الله تعالى فيما يجب على المتلبس بالإحرام والداخل إلى الحرم وأحوج إلى الاطلاع على جزاء الصيد ." (١)

" والرعية فهم عند والي الأمر ودائع ينبغي أنها تكون محفوظة وبعين الاعتناء ملحوظة فأحسن جوارهم وأزل نفارهم واكفف عنهم مضارهم ولا تعاملهم إلا بما لا تسأل عنه غدا بين يدي ربك فإنه يراك حين تقوم وأعدد جوابا لذلك فكل راع مسؤول

وأما غير ذلك فلا بد أن تطلعك المباشرة على خفايا تغنيك عن المؤامرة وستتوالى إليك الأجوبة عند المسافرة في المكاتبات الواردة والصادرة والله يوفقك في كل منهج تسلكه وتقتفيه ويسددك فيما من ذلك تنتحيه

قلت أما سائر أرباب الوظائف بها كشد الدواوين وشد مراكز البريد وغيرهما **فقد جرت العادة أن** النائب يستقل بتوليتها فإن قدر كتابة شيء من ذلك لأحد بها كتب لمن يكون طبلخاناه في قطع النصف بالسامي بغير ياء ولمن يكون عشرة في قطع الثلث بمجلس الأمير كما في غيرها

النصف الثاني أرباب الوظائف الدينية وهم على مرتبتين

المرتبة الأولى من يكتب له في قطع الثلث بالسامي بالياء وهم قضاة القضاة الأربعة

المرتبة الثانية من يكتب له في قطع العادة إما في المنصوري مفتتحا بأما بعد وإما في الصغير مفتتحا برسم وعلى ذلك تكتب تواقيع قضاة العسكر بها ومفتي دار العدل والمحتسب ووكيل بيت المال ووظائف التداريس والتصادير ونظر الأحباس إن كتب شيء من ذلك عن الأبواب السلطانية وإلا فالغالب كتابة ذلك عن النائب بها ." (٢)

" موطن برها وأهلته الأقدار إلى جوار نبي هو خاتم الأنبياء وفاتح أمرها وأصبح للحكم في المدينة مستحقا لما فيه من سكينة وتحصيل للعلم ومن حصل العلم كان الله معينه

فلذلك رسم أن يستقر

فليباشر منصبا جليلا في محل جليل وليعلم أن سائر الأمصار تغبطه وتحسده وما لمنصبه من مثيل أين يوجد سواه في كل سبيل من قاض هو بسيد المرسلين نزيل ومن يصبح ويمسي جارا للمستجير في المحشر الطويل

---

(١) صبح الأعشى، ١١/٤٣٥

(٢) صبح الأعشى، ١٢/٢٠١

فاحكم بين ناس طيبة بورع وتأصيل وتحرير في تحريم وتحليل واتق الله في كل فعل وقيل واستقم على الحق حذار أن تميل فصاحب الشرع أنت منه قريب والنبي من الله قريب وحبيب وخليل وماذا عسى أن نوصيه وهو بحمد الله تعالى كالنهار لا يحتاج إلى دليل

وأما الخطابة فارق درج منبرها وشنف الأسماع من ألفاظك بدرها وحرر ما تقوله من المواعظ فإن صاحب العظات يسمعك وتواضع لله فإن الله يرفعك وهذا المرقى فقد قام فيه النبي الأمي سيد الثقلين ومن بعده الخليفتان قرتا العين ومن بعدهما عثمان ذو النورين وعلى رضي الله عنه أبو الحسنين فاخشع عند المطلع واصدع بما ينفع وانظر لما تقوله فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم وآله وصحبه هناك يسمع وقاضي المدينة وخطيبها يرجو أن ليس للشيطان فيه مطمع والله تعالى يحوز له الخير ويجمع بمنه وكرمه

الوظيفة الثالثة مشيخة الحرم الشريف

وقد جرت العادة أن يكون له خادم من الخصيان المعبر عنهم بالطواشية يعين لذلك من الأبواب السلطانية ويكتب له توقيع في قطع الثلث بالمجلس السامي بالياء مفتتحا بالحمد لله ." (١)

" رعايتنا وحضانة عنايتنا وكنف إحساننا ووديعة برنا وامتناننا لا تطمح إليها عين معاند ولا يمتد إليها إلا ساعد مساعد وعضد معاضد

فليقابل هذه النعمة بشكر الله الذي هداه إلى الطاعة وصان بإخلاص ولائه نفسه ونفائس بلاده من الإضاعة وليقرن ذلك بإصفاء موارد المودة وإضفاء ملابس الطاعة التي لا تزداد بحسن الوفاء إلا جدة واستمرار المناصحة في السر والعلن واجتناب المخادعة ما ظهر منها وما بطن وأداء الأمانة فيما استقر معه الحلف عليه ومباينة ما يخشى أن يتوجه بسببه وجه عتب إليه واستدامة هذه النعمة بحفظ أسبابها واستقامة أحوال هذه المنة برفض موجبات الكدر واجتنابها وإخلاص النية التي لا تعتبر ظواهر الأحوال الصالحة إلا بها

ومن ذلك ما يكتب به لحكم رماة البندق

قد جرت العادة أنه إذا كان للسلطان عناية برمي البندق أقام لرماته حاكما من الأمراء الذين لهم عناية برمي البندق

وهذه نسخة توقيع من ذلك

---

(١) صبح الأعشى، ٢٥٤/١٢

الحمد لله الذي خص أيامنا الزاهرة باستكمال المحاسن في كل مرام وجعل من أولياء دولتنا القاهرة من أصاب من كل مرمى بعيد شاكلة الصواب حتى أصبح حاكما فيه بين كل رام وجمع لخواصنا من أشتات المفاخر ما إذا برزوا فيه للرياضة ليلا أغنت قسيهم عن الأهلة ورجومها عن رجوم الظلام ." (١)

" فيلبس ذلك المريد ثيابا ثم يجعل في كوز أو نحوه ماء ويخلط به بعض ملح ويقوم كل منهم فيشرب من ذلك الماء وينسبه إلى كبيرة وربما اعتن بذلك بعض الملوك **وقد جرت العادة في** ذلك أنه إذا ألبس السلطان واحدا من الأمراء أن يكتب له بذلك توقيعا

وهذه نسخة توقيع بفتوة من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر وهو

الحمد لله الذي جعل أنساب الفتوة متصلة بأشرف أسباب النبوة وأفضل من أمده منه بكل حيل وقوة وأسعد من سما فكان عليا على كل من سام علوه

نحمده حمدا تغدو الأفواه به مملوة ونشكره على مواهبه بآيات الشكر المتلوة ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من جعل إلى منهج التوحيد رواحه وغدوه ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي شد الله أزره بخير من أفتى وفتى فنال كل فتوي من الفتيان به شرف الأبوة والبنوة صلى الله عليه و سلم وآله وصحبه الذين نصروا وليه وخذلوا عدوه صلاة موصلة إلى نيل الأماني المرجوة

وبعد فإن خير من اتصل به رجاء الرجال الأجواد وطوى البعيد إلى تحصيل مرامه كل طود من الأطواد وأماط به عن مكارم الأخلاق لثام كل جود وامتطى ظهر خير جواد واستمسك من ملابس الشرف بما يؤمن ويؤمل وما يشد به من كل خير لباس التقوى وما تؤيد به عزيمته فتقوى وما يتقيد به على رؤوس الأحزاب وما يتنزل به عليه أحسن آية من هذا الكتاب من اشتهر بالشجاعة التي تقدم بها على قومه وحمد أمسها في يومه وبالشهامة التي لها ما للسهام من تفويق ولزرق الأسنة من تحذيق ولبيض الصفاح من حدة متون وللسمهرية من ازدحام إذا ازدحمت المنون ومن صدق العزيمة ما يشهد به كرم الشيمة ومن شدة الباس ما يجتمع به على طاعته كثير من الناس ومن صدق اللهجة واللسان ما اتصف عفافه منهما بأشرف ما يتصف به ." (٢)

" الباب الثاني فيما يكتب في المسامحات والإطلاقات وفيه فصلان

الفصل الأول فيما يكتب في المسامحات

---

(١) صبح الأعشى، ٢٦٤/١٢

(٢) صبح الأعشى، ٢٦٩/١٢

والمسامحات جمع مسامحة وهي الجود والموافقة على ما أريد منه والمراد المسامحة بما جرت به عادة الدواوين السلطانية من المقررات واللوازم السلطانية وهي على ضربين

الضرب الأول ما يكتب من الأبواب السلطانية

وقد جرت العادة أن السلطان إذا سمح بترك شيء من ذلك كتب به مرسوم شريف وشملته العلامة الشريفة وهو على مرتبتين

المرتبة الأولى المسامحات العظام

وقد جرت العادة أن تكتب في قطع الثلث مفتتحة بالحمد لله

وصورتها أن يكتب في أعلى الدرج بوسطه الاسم الشريف كما في مراسيم الولايات ثم يكتب من أول عرض الورق إلى آخره مرسوم شريف ان يسامح بالجهة الفلانية وإبطال المكوس بها أو أن يسامح بالباقي بالجهة الفلانية أو أن ." (١)

" الباب الثالث من المقالة السادسة في الطرخانيات

والمراد بها أن يصير الشخص مسموحا له بالخدم السلطانية يقيم حيث شاء ويرتحل متى شاء تارة بمعلوم يتناوله مجانا وتارة بغير معلوم وفيه فصلان

الفصل الأول في طرخانيات أرباب السيوف

واعلم أن الطرخانية تكتب للأمراء تارة وللأجناد أخرى وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية

وقد جرت العادة أن يسمى ما يكتب فيها مراسيم وهي على ثلاث مراتب

المرتبة الأولى أن يفتتح المرسوم المكتتب في ذلك بالحمد لله

والرسم فيه على نحو من الولايات وهو أن تستوفي الخطبة إلى آخرها ثم يقال وبعد ثم يقال ولما كان فلان ونحو ذلك ثم يقال اقتضى رأينا ." (٢)

" هذا التقرير تكتب سجلات التحضير وتنتظم الحسبانات المرفوعة والمشارع الموضوعة وتطرد القوانين المشروعة وتثبت المكلفات المقطوعة ولو لم يكن بين دواعي نقلها وعوارض زللها وزوالها إلا ان الأجناد إذا قبضوا واجباتهم عن منشور إلى سنة خمس في أواخر سنة سبع وسقط ساقطهم بالوفاة وجرى

---

(١) صبح الأعشى، ١٣/٢٤

(٢) صبح الأعشى، ١٣/٥١

بحكم السمع لا بالشرع إلى أن يرث وارثه دون بيت المال مستغل السنة الخراجية التي يلتقي فيها تاريخ وفاته من السنة الهلالية وفي ذلك ما فيه مما يباين الإنصاف وينافيه لكفى

وإذا كان العدل وضع الاشياء في مواضعها فلسنا نحرم أيامنا المحرمة بذمامنا ما رزقته أبناؤها من عدل أحكامنا بل نخلع على جديدها المس كل المس ونمنع تبعة الضلال أن تسند مهادنته إلى نور الشمس ولا نجعل أيامنا معمورة بالإسقاط التي تجمعها بل مغمورة بالإقساط التي تنفعها فليبن التاريخ على بنيانه وليحسم الخلف الواقع في السنين بهذا الحق الصادع المبين ولينسخ المشهود به في جميع الدواوين وليكاتب بحكمه من الخراج إلى من يمكنه من المستخدمين ومنها أن المستجد من الأجناد لو حمل على السنة الخراجية في استغلاله وعلى الهلالية في استقباله لكان محالا على ما يكون محالا وكان يتعجل استقبالا ويباطن استغلالا وفي ذلك ما ينافر أوصاف الإنصاف ويصون الفلاح إن شاء الله تعالى

الضرب الثاني ما يكتب به في زماننا

وقد جرت العادة أن يكتب في قطع الثلث وأنه يفتتح بخطبة مفتتحة ب الحمد لله ثم يقال وبعد فإنا لما اختصنا الله تعالى به من النظر في أمر الناس ." (١)

" الفصل الثاني من الباب الرابع من المقالة السادسة فيما يكتب في التذاكر وفيه ثلاثة أضرب

والتذاكر جمع تذكرة قال في مواد البيان **وقد جرت العادة أن** تضمن جمل الأموال التي يسافر بها الرسول ليعود إليها إن أغفل شيئا منها أو نسيه أو تكون حجة له فيما يورده ويصدره قال ولا غنى بالكاتب عن العلم بعنواناتها وترتيبها

فأما عنوان التذكرة فيكون في صدرها تلو البسملة فإن كانت للرسول يعمل عليها قيل تذكرة منجحة صدرت على يد فلان عند وصوله إلى فلان بن فلان وينتهي بمشيئة الله تعالى إلى ما نص فيها وإن كانت حجة له يعرضها لتشهد بصدق ما يورده قيل تذكرة منجحة صدرت على يد فلان بن فلان بما يحتاج إلى عرضه على فلان

وأما الترتيب فيختلف أيضا بحسب اختلاف العنوان فإن كانت على الرسم الأول كان بصدرها قد استخرنا الله عز و جل وندبناك أو عولنا عليك أو نفذناك أو وجهناك إلى فلان لإيصال ما أودعناك وشافهناك به من كذا وكذا ويقص جميع الأغراض التي ألقيت إليه مجملة وإن كانت محمولة على يده كالحجة له

(١) صبح الأعشى، ٧٨/١٣

فيما يعرضه قيل قد استخرنا الله عز و جل وعولنا عليك في تحمل تذكرتنا هذه والشحوص بها إلى فلان أو النفوذ أو التوجه أو المصير أو القصد ." (١)

" الشريف مفردا كما في الأمثلة السلطانية إلى من جرت العادة أن تكون العلامة له الاسم الشريف وما يتعلق بالتقاليد والتواقيع والمراسيم الشريفة وأوراق الطريق أو يضاف إلى الاسم الشريف والده أو أخوه وذلك مما يتعلق بالأمثلة الشريفة خاصة إلى من جرت عادته بأن تكون العلامة إليه كذلك وذلك بخلاف المناشير فإن العلامة فيها على ما جرت به العوائد أن يكتب السلطان الله أملي أو الله وليي او الله حسبي أو الملك لله أو المنة لله وحده لا يختلف في ذلك اعلى ولا أدنى فلا يحتاج إلى إشارة بسببها ينبه عليها لأن ترك الإشارة إليها دليل عليها وإشارة إليها كما ذكر النحاة علامات الاسم والفعل ولم يذكروا للحرف علامة فصار ترك العلامة إليها علامة بخلاف الأمثلة فإنها تختلف فتكون العلامة فيها تارة الاسم وتارة أخوه وتارة والده

الجملة الرابعة في الطغرى التي تكون بين الطرة المكتتبة في أعلى المنشور وبين البسملة

قال في التعريف **قد جرت العادة أن** تكتب للمناشير الكبار كمقدمي الألوف والطبلخانات طغرى بالألقاب السلطانية ولها رجل مفرد بعملها وتحصيلها بالديوان فإذا كتب الكاتب منشورا أخذ من تلك الطغراوات واحدا وألصقها فيما كتب به قال في التعريف وتكون فوق وصل بياض فوق البسملة قال في التثقيف فبعد وصلين أو ثلاثة من الطرة

قلت ولم تزل هذه الطغرى مستعملة في المناشير إلى آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين ثم تركت بعد ذلك ورفض استعمالها وأهملت ولا يخفى أنه يرد عليها السؤال الوارد على الطغرى المكتتبة في أول المكاتبات إلى سائر ملوك الكفر من تقديم اسم السلطان على البسملة على ما تقدم بيانه في موضعه ." (٢)

" المنصورية الواصلة من مصر المحروسة وتعليقها على الكعبة الشريفة في كل موسم وان لا يعلوها كسوة غيرها وان أقدم علمه المنصور على كل علم في كل موسم وأن لا يتقدمه علم غيره وإنني أسهل زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين والآمين لحرمه والحاجين والواقفين وإنني أجتهد في حراستهم من كل عاد بفعله وقوله ومتخطف للناس من حوله وإنني أؤمنهم في سربهم

---

(١) صبح الأعشى، ٨٤/١٣

(٢) صبح الأعشى، ١٦٧/١٣

وأعذب لهم مناهل شربهم وإنني والله أستمر بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصوري وأفعل في الخدمة فعل المخلص الولي وإنني والله والله امتثل مراسيمه امتثال النائب للمستنيب وأكون لداعي أمره أول سامع مجيب وإنني ألتزم بشروط هذه اليمين من أولها إلى آخرها لا أنقضها

المهيع الخامس في صورة كتابة نسخ الأيمان التي يحلف بها

وقد جرت العادة أنه إذا استقر ملك في الملك يحلف له جميع الأمراء والنواب في المملكة وإذا استقر نائب من النواب في نيابة حلف ذلك النائب عند استقراره وربما اقتضت الحال التحليف في غير هذه الأوقات

ثم الأيمان التي يحلف بها على ضربين

الضرب الأول الأيمان التي يحلف بها الامراء بالديار المصرية

وقد جرت العادة ان كتاب ديوان الإنشاء يجتمع من يجتمع منهم بالقلعة ويتصدى كل واحد منهم لتحليف جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية وغيرهم وينصب المصحف الشريف على كرسي أمام الحالفين ويحلف كل كاتب من كتاب الإنشاء من يحلفه تجاه المصحف بألفاظ اليمين المتقدمة الذكر على الوجه الذي يرسم تحليفهم عليه ويكتب كل واحد من أولئك الكتاب أسماء الذين حلفهم في ورقة ويؤرخها ويحملها إلى ديوان الإنشاء فتخلد فيه ." (١)

" الضرب الثاني الأيمان التي يحلف بها نواب السلطنة والأمراء بالممالك الشامية وما انضم إليها

وقد جرت العادة أنه إذا أريد تحليف نائب من نواب الممالك الخارجة عن الحضرة بالديار المصرية أو أمير من أمرائها أن تكتب نسخة يمين من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية وتجهز إلى النائب أو الأمير الذي يقصد تحليفه فيحلف على حكمها متلفظا بألفاظها جميعا قال في التثقيف وصفة ما يكتب في النسخة بعد البسملة من يمين الورق أقول وأنا . . . . . . ثم يخلي بياضا قليلا بقدر أصبعين لموضع كتابة الحالف اسمه ثم يكتب تحته من يمين الورق بهامش دقيق جدا والله والله وتكمل تتمة النسخة على ما تقدم ذكره وتكون سطورها متلاصقة سطرا إلى سطر إلى عند قوله وهذه اليمين يميني وأنا . . . . فيخلي بعد ذلك بياضا قليلا لموضع كتابة اسم الحالف أيضا ثم يكتب من يمين الورق والنية في هذه اليمين بأسرها إلى آخر النسخة

---

(١) صبح الأعشى، ٣١٩/١٣

قلت وكذلك نسخ الأيمان التي تكتب ليحلف بها في الهدن التي تفرد الأيمان فيها عن الهدن يخلى فيها بياض لكتابة الاسم بعد قوله أقول وأنا . . . . . وبعد قوله وهذه اليمين يميني وأنا . . . . سواء في ذلك اليمين التي يحلف بها السلطان أو الملك الذي تقع معه المهادنة من ملوك الإسلام أو ملوك الكفر

وقد جرت العادة أن يكون الورق الذي تكتب فيه نسخ الأيمان التي يحلف بها النواب وغيرهم من الأمراء الخارجين عن الحضرة في قطع العادة أما ما يحلف به على الهدن فلم أقف فيه على مقدار قطع الورق والذي يظهر أن كل يمين تكون في قطع الورق الذي يكاتب بها ذلك الملك الذي يحلف ." (١)

" المرأة الكافرة فإنه لا يمنع الصحة

قال الغزالي **وقد جرت العادة أن** يقول نهادنكم على أن من جاءكم من المسلمين رددتموه ومن جاءنا مسلما رددناه

فإن كان في المسلمين ضعف وخيف عليهم جاز التزام المال لهم دفعا للشر كما يجوز فك الأسير المسلم إذا عجزنا عن انتزاعه

الرابع أن لا تزيد مدة الهدنة عن أربعة أشهر عند قوة المسلمين وأمنهم ولا يجوز أن تبلغ سنة بحال وفيما دون سنة وفوق أربعة أشهر قولان للشافعي رضي الله عنه أصحهما أنه لا يجوز أما إذا كان في المسلمين ضعف وهناك خوف فإنه تجوز المهادنة إلى عشر سنين فقد هادن رسول الله أهل مكة عشر سنين كما رواه أبو داود في سننه

ولا تجوز الزيادة عليها على الصحيح وفي وجه تجوز الزيادة على ذلك للمصلحة

فلو أطلق المدة فالصحيح من مذهب الشافعي أنها فاسدة وقيل إن كانت في حال ضعف المسلمين حملت على عشر سنين وإن كانت في حال القدرة فقد قيل تحمل على الأقل وهو أربعة أشهر وقيل على الأكثر وهو ما يقارب السنة

ولو صرح بالزيادة على ما يجوز عقد الهدنة عليه فإن زاد على أربعة أشهر في حال القوة أو على عشر سنين في حال الضعف صح في المدة المعتبرة وبطل في الزائد فإن احتيج إلى الزيادة على العشر عقد على عشر ثم عشر ثم عشر قبل تقضي الأولى قاله الفوراني وغيره من أصحابنا الشافعية

---

(١) صبح الأعشى، ٣٢٠/١٣

وذهب أصحاب مالك رحمهم الله إلى أن مدتها غير محدودة بل يكون موكولا إلى اجتهاد الإمام ورأيه ." (١)

" المعقود معه الهدنة كافرا

وإن شرط له مالا عند ضعف المسلمين للضرورة أتى في كلامه بما يقتضي أن ذلك رغبة في الصلح المأمور به لا عن خور طباع وضعف قوة إذ الله تعالى يقول (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم)

ومنها أن يتحفظ من سقط يدخل على الشريعة نقيصة إن كانت المهادنة مع أهل الكفر أو يجر إلى سلطانه وهيصة إن كانت بين مسلمين ويتحذر كل الحذر من خلل يتطرق إليه من إهمال شيء من الشروط أو ذكر شرط فيه خلل على الإسلام أو ضرر على السلطان أو ذكر لفظ مشترك أو معنى ملتبس يوقع شبهه توجب السبيل إلى التأول وأن يأخذ المأخذ الواضح الذي لا تتوجه عليه معارضة ولا تتطرق إليه مناقضة ولا يدخله تأويل

ومنها أن يبين أن الهدنة وقعت بعد استخارة الله تعالى وتروية النظر في ذلك وظهور الخير فيه ومشاورة ذوي الرأي وأهل الحجى وموافقتهم على ذلك

ومنها أن يبين مدة الهدنة

فقد تقدم أن الصحيح من مذهب الشافعي أنه إذا لم تبين المدة في مهادنة أهل الكفر فسدت الهدنة

قال في التعريف وقد جرت العادة أن يحسبوها مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمرية

ويذكر سنين وأشهرا وأياما وساعات حتى يستوفي السنين الشمسية المهادن عليها

أما في عقد الصلح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك بل ربما قالوا إن ذلك صار لازما حتى في الولد وولد الولد ." (٢)

" صورة الحلف الذي يقع في الهدن في الكلام على الأيمان فيما بعد إن شاء الله تعالى

ومنها أن يحرر أمر التاريخ بالعربي وما يؤرخ به في مملكة الملك المهادن من السرياني والرومي وغيرهما

---

(١) صبح الأعشى، ٩/١٤

(٢) صبح الأعشى، ١٤/١٤

قال في التعريف ولهم عادة أن يحسبوها مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمرية ويذكر سنين وأشهرا وأياما وساعات حتى يستكمل السنين الشمسية المهادن عليها

وقد تقدم في الكلام على التاريخ من المقالة الثالثة كيفية معرفة التواريخ واستخراجها

ومنها أن يقع الإشهاد على كل من المتعاقدين بذلك ولا بأس بإثبات ذلك

وقد جرت العادة أنه يشهد على كل ملك جماعة من أهل دولته ليقضى على ملكهم بقولهم وإن كان مخالفا في الدين

وقد ثبت في الصحيح أن النبي أشهد على مصالحته مع قريش رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين

وربما طلب النائب عن الملك الغائب إحضار نسخة مهادنة من جهة مستنيبه على ما وقع به العقد مشمولة بخط الكتاب مشهودا عليه فيها بأهل مملكته أو تجهز إليه نسخة يكتب عليها خطه ويشهد عليه فيها أهل مملكته

والغالب الاكتفاء بالرسل في ذلك ." (١)

" الفصل الثاني في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات ومذاهب الكتاب في ذلك وفيه طرفان

الطرف الأول فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم وتخلد منه نسخ بالأبواب السلطانية وتدفع منه نسخ إلى ملوك الكفر

ثم ما يكتب في ذلك على نمطين

النمط الأول ما يكتب في طرة الهدنة من أعلى الدرج

وقد جرت العادة أن يفتتح بلفظ هذا أو لفظ هذه وما في معنى ذلك مثل أن يكتب هذا عقد صلح أو هذا كتاب هدنة أو هذه موادعة أو هذه مواصفة وما أشبه ذلك

وربما حذف المبتدأ وهو هذا واكتفي بالخبر عنه مثل أن يقال كتاب هدنة أو كتاب موادعة أو عقد مصالحة وما أشبه ذلك ." (٢)

" الملك الأشرف وبين الملك دون حاكم

---

(١) صبح الأعشى، ١٦/١٤

(٢) صبح الأعشى، ١٧/١٤

أما سائر النسخ المتقدمة فإنها مبتذلة الألفاظ غير رائقة الترتيب لا يصدر مثلها من كاتب عنده أدنى ممارسة لصناعة الكلام

والعجب من صدور ذلك في زمن الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وهما من همامن عظماء الملوك وكتابة الإنشاء يومئذ بيد بني عبد الظاهر الذين هم بيت الفصاحة ورؤوس أرباب البلاغة ولعل ذلك إنما وقع لأن الفرنج كانوا مجاورين للمسلمين يومئذ ببلاد الشام فيقع الاتفاق والتراضي بين الجهتين على فصل فصل فيكتبه كاتب من كل جهة من جهتي المسلمين والفرنج بألفاظ مبتذلة غير رائقة طلبا للسرعة إلى أن ينتهي بهم الحال في الاتفاق والتراضي إلى آخر فصول الهدنة فيكتبها كاتب الملك المسلم على صورة ما جرى في المسودة ليطابق ما كتب به كاتب الفرنج إذ لو عدل فيها كاتب السلطان إلى الترتيب وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب لا ختل الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج أولا فينكرونه حينئذ ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق لقصورهم في اللغة العربية فيحتاج الكاتب إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المسودة

وبالجملة فإنما ذكرت النسخ المذكورة على سخافة لفظها وعدم انسجام ترتيبها لاشتمالها على الفصول التي جرى فيها الاتفاق فيما تقدم من الزمان ليستمد منها الكاتب ما لعله لا يحضر بباله من مقاصد المهادنات أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها

واعلم أنه **قد جرت العادة إنه** إذا كتبت الهدنة كتب قرينها يمين يحلف بها السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة على التوفية بفصولها وشروطها ويمين يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بعقد الهدنة ممن يأذن له في عقدها عنه بكتاب يصدر عنه بذلك أو تجهز نسختها إلى الملك الكافر ليحلف عليها ويكتب خطه بذلك وتعاد إلى الأبواب السلطانية ." (١)

" الباب السادس من المقالة التاسعة في الفسوخ الواردة على العقود السابقة وفيه فصلان

الفصل الأول الفسخ وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر

قال في التعريف وقل أن يكون فيه إلا ما يبعث به على ألسنة الرسل

قال وقد كتب عمي الصاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله سنة دخول العساكر الإسلامية ملطية سنة أربع عشرة وسبعمائة فسخا على التكفور متملك سيس كان سببا لأن زاد قطيعته ولم يذكر صورة ما كتبه في ذلك

---

(١) صبح الأعشى، ٨٣/١٤

وقد جرت العادة أنه إذا كان الفسخ من الجانب الواحد أن يذكر الكاتب فيه موجب الفسخ الصادر عن المفسوخ عليه من ظهور ما يوجب نقض العهد ونكث العقد وإقامة الحجة على المفسوخ عليه من كل وجه ." (١)

" الفصل الرابع من الباب الأول من المقالة العاشرة في الصدقات وفيه طرفان

الطرف الأول في الصدقات الملوكية وما في معناها

قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تكتب له خطبة صداق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد فتطال للملوك وتقصر لمن دونهم بحسب الحال

وهذه نسخة صداق كتب به للملك السعيد بركة ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي قبل سلطنته بالقلعة المحروسة من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر وهي

الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة ومصدق الفأل لمن جعل عنده أعظم بركة ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانه وصهره ملكه الذي جعل للأولياء من لدنه سلطانا نصيرا وميز أقدارهم باصطفاء تأهله حتى حازوا نعيما وملكا كبيرا وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أفاد شمس آمالهم ضياء وزاد قمرها نورا وشرف به وصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيما وإنعامه كثيرا مهييء أسباب التوفيق العاجلة والآجلة وجاعل ربوع ." (٢)

" الفصل الخامس من الباب الأول من المقالة العاشرة فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت العادة بمراعاة النثر المسجوع فيه ومحاولة الفصاحة والبلاغة وفيه طرفان

الطرف الأول فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ثم هو على صنفين

الصنف الأول الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات الكتب ونحوها

أما الإجازة بالفتيا **فقد جرت العادة أنه** إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس ويكتب له بذلك

---

(١) صبح الأعشى، ١٢١/١٤

(٢) صبح الأعشى، ٣٤١/١٤

وجرت العادة أن يكون ما يكتب في الغالب في قطع عريض إما في فرخة الشامي أو نحوها من البلدي وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطرا متوالية بين كل سطرين نحو أصبع عريض

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن الشهير بابن الملقن سقى الله تعالى عهده ." (١)

" محمد بن إسماعيل البخاري ومنها البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير للإمام أبي القاسم الرافعي وبه تكمل معرفة الفقيه ويصير محدثا فقيها

وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعني روايته بشرطه عند أهله زاده الله وإياي من فضله ومنها الكتب الستة البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والمسانيد مسند أحمد ومسند الشافعي وغير ذلك

وكان ذلك في تاريخ كذا

وكتب عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي غفر الله لهم حامدا ومصليا ومسلما وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخره

قلت وتكون ألقاب المجاز على قدر رتبته مثل أن يكتب له الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام العالم العامل الأوحد الفاضل المفيد البارع علم المفيدين رحلة القاصدين فلان الدين أبو فلان فلان فلان بحسب رتب آبائه

وإنما أهملت ذكر الألقاب في هذه الإجازة من حيث إنه لا يليق بأحد أن يذكر ألقاب نفسه في مصنف له لأنه يصير كأنه أثنى على نفسه

وأما الإجازة بعراضة الكتب **فقد جرت العادة أن** بعض الطلبة إذا حفظ كتابا في الفقه أو أصول الفقه أو النحو أو غير ذلك من الفنون يعرضه على مشايخ العصر فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ويفتح منه أبوابا ومواضع يستقرئه إياها من أي مكان اتفق فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب وكتب له بذلك كل من عرض عليه في ورق مربع صغير يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها فمن عال ومن هابط

---

(١) صبح الأعشى، ١٤/٣٦٤

وربما خفف بعضهم فكتب ." (١)

" الصنف الثاني التقريضات التي تكتب على المصنفات المصنفة والقصائد المنظومة

قد جرت العادة أنه إذا صنف في فن من الفنون أو نظم شاعر قصيدة فأجاد فيها أو نحو ذلك أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقريض والمدح ويأتي كل منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي الشافعي في الاستدلال على أن البسملة من أول الفاتحة وهي

وقفت على هذا التصنيف الذي وضعه هذا العلامة ونشر به في المذهب الشافعي أعلامه وأصبح ونسبته إليه أشهر علم وأبهر علامة فأقسم ما سام الروض حدائقه ولا شام أبو شامة بوارقه كل الأئمة تعترف بما فيه من الأدلة وكل التصانيف تقول أمامه بسم الله كم فيه من دليل لا يعارض بما ينقضه وكم فيه من حجة يكل عنها الخصم لأن عقله على محك النقد يعرضه قد أيد ما ادعاه بالحديث والأثر ونقل مذهب كل إمام سبق وما عثر لقد سر الشافعي بنص قوله الذي هذبه وجعل أعلام مذهبه مذهبة وأتى فيه بنكت تطرب من أسرار الحرف وفوائد عرف بها ما بين ابن الدرهم بين البوني من البون في تفاوت الصرف

(أكرم به مصنفا ... فاق تصانيف الورى)

(ليل المداد فيه بالمعنى ... المنير أقمر)

(كم فيه برد حجة ... قد حاكه محررا)

(وكم دليل سيفه ... إذا التقى خصما فرى)

(فلم يكن من بعده ... مخالف قط يرى)

ومن ذلك ما كتب به المقر الشهابي بن فضل الله على قصيدة ميمية ." (٢)

" الصنف الثاني إسجالات العدالة) **قد جرت العادة أن** أبناء العلماء والرؤساء تثبت عدالتهم على الحكام ويسجل لهم بذلك ويحكم الحاكم بعدالة من تثبت عدالته لديه ويشهد عليه بذلك ويكتب له بذلك في درج عريض إما في قطع فرخة الشامي الكاملة وإما في نحو ذلك من الورق البلدي وتكون كتابته بقلم الرقاع وأسطره متوالية وبين كل سطرين تقدير عرض أصبع أو نحو ذلك

---

(١) صبح الأعشى، ٣٦٩/١٤

(٢) صبح الأعشى، ٣٧٨/١٤

قلت وهذه نسخة سجل أنشأته كتب به لولدي نجم الدين أبي الفتح محمد وكتب له بها عند ثبوت عدالته على الشيخ العلامة ولي الدين أحمد ابن الشيخ الإمام الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي خليفة الحكم العزيز بمصر والقاهرة المحروستين في شهور سنة ثلاث عشرة وثمانمائة وهي

الحمد لله الذي أطلع نجم العدالة من سماء الفضائل في أفق معاليها وأنار بدراري العلماء من حنادس الجهالة مدلهم لياليها وكمل عقود النجابة من نجباء الأبناء بأغلى جواهرها وأنفس لآليها وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ترقي قائلها إلى أرفع الذرا ويمتطي منتحلها صهوة الثريا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المخصوص بمحاسن الشيم والموصوف بكرم المآثر ومآثر الكرم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا من عرا الدين بالسبب الأقوى وسلكوا جادة الهداية فحصلوا من أقصى مغياها على الغاية القصوى وسلم تسليما كثيرا

وبعد فلما كانت العدالة هي أس الشريعة وعمادها وركنها الأعظم في الاستناد إلى الصواب وسنادها لا تقبل دونها شهادة ولا رواية ولا يصح مع عدمها إسناد أمر ولا ولاية فقد بينت الشريعة المطهرة على أركانها ." (١)

" **وقد جرت العادة أن** المراكب إذا سفرت سفر معها من يتدركها من ثلاجين لمداراتها ثم الواصلون بها في البحر يعودون على البريد في البر ." (٢)

" واعلم أن الثلج إذا وصل على المراكب والهجن حتى انتهى إلى القلعة خزن بالشرابخاناه السلطانية

قال في التعريف ومذ قرر أن يحمل من الثلج على الظهر ما يحمل استقر منه خاص المشروب لأنه يصل أنظف وآمن عاقبة على أن المتسفرين يأخذون الجاشني منه بحضور أمير مجلس وشاد الشرابخاناه السلطانية وخزانها

أما المنقول في البحر فلما عدا ذلك

قال وللمجهزين به من الخلع ورسوم الإنعام رسوم مستقرة وعوائد مستمرة

قلت **وقد جرت العادة أن** واصل الثلج في كل نقلة في البر والبحر تكتب به رجعة من ديوان الإنشاء وهذا هو وجه تعلقه بديوان الإنشاء ." (٣)

---

(١) صبح الأعشى، ٣٨٩/١٤

(٢) صبح الأعشى، ٤٤٢/١٤

(٣) صبح الأعشى، ٤٤٤/١٤

"فلما كَانَ ذَلِكَ اليوم الَّذِي عزموا فِيهِ عَلَى قتله بكرنا كالعادة فلما جاء قيم السجن فرآنا فتح الباب وجاء القضاة الأحد عشر فدخلوا ونحن مقيمون عَلَى الباب فلبثوا ملياً فخرجوا من عنده وَقَدْ قطعوا حديده ثُمَّ داءنا السجان فقالوا ادخلوا فدخلنا وهو عَلَى سرير كَانَ يكون عَلَيْهِ فسلمنا وقعدنا فلما استقر بِنَا المجلس نزل عن السرير ونزل معنا أسفل منه وكشف عن ساقيه فمسحهما وحكهما ثُمَّ قال مَا أعجب فعل السياسة الإلهية كَيْفَ قرنت الأضداد بعضها ببعض فإنه لا يكون لذة إلاَّ وتبعها ألم ولا ألم إلاَّ وتبعته لذة فإنه قَدْ عرض لَنَا بعد الألم الَّذِي كنا نجده من ثقل الحديد فِي موضعه لذة وَكَانَ هَذَا القول منه سبباً للقول فِي الأفعال النفسانية ثُمَّ اطرد القول بينهم فِي النفس حَتَّى أتي عَلَى جميع مَا سئل عنه من أمرها بالقول المتقن المستقصى ووافي ذلك منه عَلَى مثل الحال الَّتِي كَانَ يعهد عَلَيْهَا فِي حال سروره من البهج والمزح فِي بعض المواضع وكلتا تتعجب منه أشد التعجب من صرامة نفسه وشدة استهانته بالنازلة الَّتِي قَدْ نهكتنا لَهُ ولفراقه وبلغت منا وشغلتا كل الشغل وَلَمْ يشغله عن تقصي الحق فِي موضعه وَلَمْ يزل شيء من أخلاقه وأحوال نفسه الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي زمن أمنه الموت وقال لَهُ سيماس فِي بعض مَا يقول لَهُ وأمسك بعض الإمساك عن السؤال أن التقصي فِي السؤال عَلَيْكَ مع هَذِهِ الحال لثقل علينا شديد وسماجة فاحشة وأن الإمساك عن التقصي فِي البحث لحسرة علينا غداً عظيمة لما نعدم فِي الأرض من وجود الفاتح لما تريده فقال لَهُ يَا سيماس لا تدعنَّ التقصي لشيء أردته فإن تقصيك لذلك هو الَّذِي أسر بِهِ وَلَيْسَ بَيْنَ هَذِهِ الحال عندي وبين الحال الأخرى فرق فِي الحرص عَلَى تقصي الحق فإنا وإن كنا نعدم أصحاباً ورفقاء إشرافاً محمودين فاضلين فإنا أيضاً إذ كنا معتقدين متيقنين بالأقاويل الَّتِي لَمْ تزل منا نصير إِلَى إخوان فاضلين إشراف محمودين منهم اسلاؤس واملوس وارقيليس وجميع من سلف من ذوي الفضائل الإنسانية وعدد أقواماً غير من ذكرنا فلما تصرم القول فِي السفس وبلغوا من سؤالهم الغرض الَّذِي أرادوا سألوه عن هيئة العالم وَمَا عنده من الخبر فِي ذَلِكَ فقال أما مَا اعتقدناه وبيناه فهو أن الأرض كروية وأن الأفلاك محيطة بِهَا ومحيط بعضها ببعض الأعظم بالذي يليه فِي العظم وأن لَهَا من الحركات مَا **قَدْ جرت العادة بالقول** بِهِ وسمعتموه منا كثيراً فأما مَا وصف أناس آخرون فإنهم وصفوا شيئاً كثيراً ثُمَّ قص قصصاً طويلة فِي ذَلِكَ مما ذكره الشعراء اليونانيون القائلون فِي الأشياء الإلهية كاوميروس وارقاؤس وأسيدوس وابيذقليس ثُمَّ قال أما مَا قلنا فِي النفس وَفِي هيئة الأرض والأفلاك فلم نخدع فِيهِ وَلَمْ نقل غير الحق فأما هَذِهِ الأشياء الأخر فإنه لَيْسَ بحثها من فعل رجل حكيم فلما فرغ من ذَلِكَ قال أما الآن فأظنه قَدْ حضرت الساعة الَّتِي ينبغي أن نستجم فِيهَا فلا نكلف النساء إحمام الموتى فِي صيوان الحكم فإن الأمر يأتي يعني السياسة قَدْ دعتنا

ونحن ماضون إِلَى اذوس فإن الأمر فانٍ ونحن ماضون إِلَى تراوس وأما أنتم فتنصرفون إِلَى أهاليكم ثُمَّ نهض ودخل بيتاً يستحم فِيهِ فأطال اللبث فِيهِ ونحن نتذاكر مَا نزل بِنَا من فقده وإنا نعدم أباً شفيقاً وتبقى بعده كاليتامى ثُمَّ خرج إلينا وَقَدْ استحم فجلس ودعا بولده ونسائه فأتى بهم وَكَانَ لَهُ ابنان صغيران وابن كبير فودعهم وأوصاهم بالذي أراد وأمر بصرفهم فقال لَهُ قريطون مَا الَّذِي تأمرنا بِهِ أن نفعله فِي ولدك وأهلك وغير ذَلِكَ من أمرك فقلت لست آمركم بشيء جديد بل هو الَّذِي لَمْ أزل آمركم بِهِ من الاجتهاد فِي إصلاح أنفسكم فإنكم إِذَا فعلتم ذَلِكَ سررتموني وسررتم كل من هو مني بسبيل فقال لَهُ اقريطون فما الَّذِي تأمرنا بك أن نعمل إِذَا مت فضحك ثُمَّ التفت إِلَى جماعتنا فقال أن قريطون لا يصدق بجميع مَا سمع مني ولا أن الَّذِي يخطب ويخاطبه منذ اليوم هو سقراط ولا يظن أن الَّذِي يفعل ذَلِكَ بِهِ لَيْسَ الأجد سقراط وأنا أظن الآن أنني سأفر منكم بعد ساعة فإن وجدتني يَا قريطون فافعل بي مَا تشاء فأقبل خادم الأحد عشر قاضياً فوقف بَيْنَ يدي سقراط فقال." (١)

""""""" صفحة رقم ٢٧١ """""""

الذكرى وإن أغناه الاستبصار ، ولا يأبى ورود الموعظة ، وإن كفاه الاعتبار ، والله تعالى يقي الرئيس المصاب ، ويعيذه من النوائب ، ويرعاه بعينه التي لا تنام ، ويجعله في حماه الذي لا يرام ، ويبقيه موفورا غير منتقص ، ويقدمنا إلى السوء أمامه ، وإلى المحذور قدامه ، ويبدأ بي من بينهم في هذه الدعوة ، إذ كنت أراها من أسعد أحوالي ، وأعدها من أبلغ أماني وآمالي .

وكتب إلى بعض الرؤساء : **قد جرت العادة –** أطال الله بقاء الأمير – بالتمهيد للحاجة قبل موردها ، وإسلاف الظنون الداعية إلى نجاحها ، وسالك هذه السبيل يسيء الظن بالمسؤول ؛ فهو لا يلتمس فضله إلا جزاء ، ولا يستدعي طوله إلا قضاء ؛ والأمير بكرمه الغريب ، ومذهبه البديع ، يؤثر أن يكون السلف له ، والابتداء منه ، ويوجب للمهاجم برغبته عليه حق الثقة به منه ، والحمد لله الذي أفرده بالطرائق الشريفة ، وتوحده بالخلائق المنيفة ، وجعله عين زمانه البصيرة ، ولمعته الثاقبة المنيرة .

وكتب البديع في بابه إلى بعض أصحابه : لك ، أعزك الله ، عادة فضل ، في كل فصل ، ولنا شبه مقت ، في كل وقت ؛ ولعمري إن ذا الحاجة مقيت الطلعة ، ثقيل الوطأة ، ولكن ليسوا سواء ؛ أولو حاجة تحتاج إليهم الأموال ، وأولو حاجة تحوجهم الآمال .

والأمير أبو تمام عبد السلام بن الفضل المطيع لله أمير المؤمنين – أيده الله – إن أحوجه الزمان فطالما

---

(١) أخبار العلماء بأخيار الحكماء، ص/٩١

خدمه ، وإن أهانه فكثيرا ما أكرمه ونعمه . وقديما أقله السرير ، وعرفه الخورنق والسدير . وإن نقصه المال فالعرض وافر ، وإن جفاه الملك فالفضل ظاهر ، وإن ابتلاه الله فليبتليكم به فينظر كيف تفعلون . وأنت تقابل مورده عليك من الإعظام ، بما يستحق من الإكرام ، فلا تنظرن إلى ثوب بال ، فتحته شرف عال ، ولا تقس على البرد ، ما وراءه من المجد ، ولكن إن نظرت ففي شامخ أصله ، وراسخ عقده ، وشهادة الفراسة له . ثم ليأت بعد هذه الآيات ما هو قضية المروءة معه ، والأخوة معي ، بالغا في ذلك غاية جهده ، والسيف لا يرى في غمده ، والحمد لله حق حمده .

وله إلى أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن حمزة :." (١)

"لما مات أبو طالب ذهب إلى محمد يقول له: "يا محمد، امضِ لما أردت وما كنت صانعًا إذا كان أبو طالب حيًّا فاصنعه، ولا واللات لا يوصل إليك حتى أموت"١.

ولقد أبقى الإسلام على رابطة العشيرة والأرحام فلم يمحُها بل جعلها داخل النطاق العام، فقد بقيت على العشائر النفقات التي ليست ذات صبغة خاصة محضة وخصوصًا دفع الدية وفداء الأسرى، كذلك أبقى للعشيرة مسألة الولاء٢. كذلك أراد الإسلام الانتفاع بسلطان هذه العصبية العشيرية في تقريب الناس للإسلام بدعوة المخالفين إلى مهادنة المسلمين. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء]٣ فهو يهتف بهم أن يتقوا الأرحام التي يتساءلون بها ويعز عليهم أمرها ويتأثرون بها في حياتهم المادية والمعنوية، ثم إنه كان يذكر قريشًا بالرحم التي بينها وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبأنه لا يحرص على إيمانهم وهداهم إلا استجابة لعاطفة الرحم التي تدعوه إلى الحرص على خيرهم، كما يجب أن تدعوهم لتصديقه واتباعه، فهو غير متهم في مصلحة أهله ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى] كما أنه دائمًا كان يذكي روح المسلمين، ويعير المنافقين والمتخاذلين بأنهم إنما يقطعون أرحامهم بجبنهم عن نصرة إخوانهم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد]. ومع أن رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت شاملة عامة، إلا أنه كلف أول ما كلف بأن ينذر عشيرته الأقربين ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء] حتى إذا آمنوا انتصروا له فكانوا درعًا يحول دون أذى الناس له، ولقد جرى الإسلام في هذا على مفهوم الوضع الاجتماعي في المجتمع العربي على أن موقف أقاربه من عدم تصديقه كان له أثر كبير في مقابلة أهل مكة الدعوة بالفتور والاستخفاف، إذ **قد جرت العادة أن** يتابع الشخص أقرباءه بدافع العصبية فهم ينتصرون له ويتفاخرون به ويفاخرون به غيرهم.

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب، ٢/٢٧١

ولقد واجه المسلمون كثيرًا من الحرج والمشاكل نتيجةً لعصبية الأرحام خاصة، فقد كان يحدث أن يكون الابن أو الأخ أو الأب في صفوف المسلمين، والأب أو الأخ

–

١ ابن سعد: الطبقات: ١/ ١٩٥.

٢ انظر الصحيفة التي كتبها النبي –صلى الله عليه وسلم– بالمدينة. ابن هشام، ٢/ ١٢١– ١٢٣.

٣ تفسير الطبري ٧/ ٥١٨– ٥٢٠.." (١)

". إلا أننا نرجّح أن تكون الزيتونة قد أدّت دوراً فعلياً منذ تأسيسها كما كان شأن المساجد الجامعة سواء كان بإفريقية أو في المشرق الإسلامي (١). ويذكر أبو العرب تسعة من بين أهم أهل العلم والفضل بتونس (تراجم من عدد ١٠٦ إلى ١١٤)، وهو ما يدفعنا إلى احتمال أنهم كانوا درّسوا بالجامع الأعظم(٢). غير أن إشارات المصادر تعوزنا فيما يتعلق بالقرون الخمسة الأولى من تاريخ هذا الجامع.

---

(١) **فقد جرت العادة منذ** الفترات الأولى للإسلام أن يتخذ من جامع كل مدينة مركز للتعليم.

(٢) أبو العرب، طبقات، صص. ٢١٢ - ٢٢٦.." (٢)

"حجارة الكذال الوردي اللون، والذي يعتبر الرخام المحلي، والمجلوب من منطقتين قريبتين من المدينة العتيقة، أولاها بضاحية حمام الأنف والثانية بالوطن القبلي وبالتحديد قريباً من القرية الأندلسية: سليمان.

... أما المئذنة، **فقد جرت العادة في** مثل هذه الجوامع على أن تتحلى بمئذنة شديدة الارتفاع ومثمنة الأضلاع. غير أن هذا الجامع لم يساعده الحظ على استكمال الصومعة؛ إذ أن المنارة الحالية الموجودة في الركن الجنوبي الشرقي والمشرفة على سوق سيدي محرز لم تشيد خصيصاً للجامع الجديد، بل هي من توابع المسجد الصغير القديم." (٣)

"فنّه، ونظم ونثر، وقال وشَعَر، وكتب الخط الحسن الجيد على طريقة أهل بلاده، وكتب لبعض الملوك، ثم قَدِمَ تونس في سنة أربعٍ وستين وثمانماية، واتصل بخدمة المسعود بالله محمد بن عثمان

---

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول – الرقمية، ص/٥٣

(٢) مجلة التاريخ العربي، ص/٢٦١٠

(٣) مجلة التاريخ العربي، ص/٨٥٤٤

صاحب تونس وامتدحه، فقرّبه إليه وأدناه واختصّ به وجعله كاتبه.

[صلاة السلطان بجامع الزيتونة]

... »... وفيه في يوم الجمعة عاشره بتونس حضر صاحبها المتوكل على الله عثمان للصلاة بجامعها الأعظم الذي يقال له جامع الزيتونة، **وقد جرت العادة هناك** أن السلطان إذا قدم من سفر صلّى أول جمعة دخوله بهذا الجامع وترك حضور الصلاة بجامع قصبته." (١)

"سرواله ودفعه إليه لأنه لم يكن عنده، فانفصل الرجل والسروال بيده.

... كان السروال في بلاد المغرب الإسلامي ذا أهمية خاصة عندما أصبح يشكل زياً رسمياً لرجال الدولة، بالإضافة إلى أزياء أخرى استعملت معه. ومع ذلك، فينبغي أن نأخذ في الاعتبار أن كل طبقة من الطبقات التي سبقت الإشارة إليها كانت تختلف سراويلها من حيث شكلها ولونها ومناسبات لبسها. **فقد جرت العادة في** بلاد المغرب على أن الجند المقاتل وخصوصاً فرقة المشاة، كانوا يرتدون "جبا دولي" الأحمر أو الأخضر، ومن لباسهم أيضاً السروال الأزرق، والصدرية." (٢)

"كانت قد هدمت إبان الفتح وكذا بناء كنيستهم العظمى خارج قرطبة (١) . وكانت الأناجيل أيضا شائعة الرواج يطالعها النصراني وغير النصراني . وقد أفاد منها ابن حزم كثيرا في كتابه " الفصل " ، وكان يصاحب رجال الكنيسة ويجادلهم (٢) .

... ظلت سلطة اليهود ومقاليد أمورهم الدينية الخاصة بهم بين أيديهم ، **فقد جرت العادة على** أن تعين السلطة رأس

---

(١) البيان ، ج ٢ ، ص . ٢٢٩ ؛ وأبو الأصبغ بن سهل ، صص . ٧٧- ٨٠ .

(٢) أنظر مثلا : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح و أولاده ، القاهرة ، ج ٢ ، ص . ٢٠ .." (٣)

---

(١) مجلة التاريخ العربي، ص/١٣١٧٤

(٢) مجلة التاريخ العربي، ص/١٣٧٢٨

(٣) مجلة التاريخ العربي، ص/١٣٩٢٦

"بحقائق الشرع، وشدة الفرقة والانقسام.

... بدأ ابن فودي(١)

---

(١) ... كلمة "فودي" تعني الفقيه باللغة الفُلاَّنية، وقد ضبطها الشيخ عبد الله بن فودي (أخو عثمان) في فهرسته المسماة "إيداع النسوخ" فقال: "ولقبه فُودي (بفاء مضمومة ضمة إشمام، وبعد الواو دال مهملة مضمومة وبعدها ياء ممالة). وقد رأيت هذا الضبط موجوداً على عدد من عناوين كتب الشيخ عثمان المخطوطة على هذا النحو "فودي"، أي على نحو ما ترسم كلمات كثيرة في المصحف برواية ورش عن نافع مثل: الهدى . الضحى . الأولى . الحسنى . سجى . قلى . أغنى...، أي بياء بها علامة الإمالة، وهي ألف فوقها ونقطة واحدة تحتها. **وقد جرت العادة على** كتابة الكلمة في المطبوعات الحديثة بياء مثناة عادية "فودي". ولذلك سار يقرأها الكثيرون بدال مكسورة عوض المضمومة تيسيراً للنطق. أما الذين كتبوا عن الشيخ عثمان وعائلته باللغات الأجنبية، فهم تارة يكتبون: Fodio (فوديو)، وتارة: Fudi (فودي)، وأخرى Fodiye (فوديي). أما المتداول حالياً على الألسنة في منطقة الهوسا وبلاد الفلان، فهو: "فُودْيُو".."

(١)

"القول بأن هؤلاء العرفاء أشبه ما يكون في العصر الحاضر بسلاح المهندسين الذي لاتستغني عنه الجيوش.

ونختتم الحديث عن أولئك العرفاء بالإشارة إلى أن لهم في بعض الأحيان مهام خاصة كأن يكلف الأمير أو الخليفة مجموعة منهم سرا للكشف عن مسألة معينة ورفع الأمر إليه على حقيقته(١).

وهنك فئات مساندة للجيش ليس بوسعه الاستغناء عن خدماتها، وتعتبر الأدوار التي تؤديها تلك الفئات على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لمسيرة الجيش وكذلك سير الأحداث العسكرية.

من هذه الفئات، فئة اختصت بحمل الرسائل بين القيادة المركزية في العاصمة وبين قيادة الجيش المتجه إلى الأعداء، **وقد جرت العادة أن** يتولى حمل هذه الرسائل مجموعة من الخصيان الذين يتم تكليفهم في بعض الأحيان بنقل الأموال إلى الجيش، ولهم عرفاء يتولون عملية الإشراف عليهم(٢).

---

(١) مجلة التاريخ العربي، ص/١٤٠٩١

(١) – انظر: المقتبس، تحقيق: أنطونيه، ص ١١١.

(٢) – المقتبس، تحقيق: د.عبد الرحمن الحجي، ص ٩١.." [1]

"وقد كان بنو أمية شديدي الإهتمام بأخبار الثغور ولهم عيون تأتيهم بأنبائها تباعا، وإذا حدث أن أبطأت الأخبار عنهم فإنه يتم إرسال أحد الثقات ليقف على حقيقة الأمر.

فالأمير محمد بن عبد الرحمن عندما خفيت عليه أخبار الثغر استدعى رجلا يدعى مطرف بن نصير فأمره باستطلاع الخبر، وضرب له أجلا مقداره أربعة عشرة يوما لا يتجاوزها و إلا ضرب عنقه(١).

وإذا حدث أن هجم العدو على الأراضي الإسلامية، تولى أحد الوزراء مهمة استنفار الناس(٢) كما أن صاحب المدينة يقوم بحشدهم(٣) ولا يؤذن لأحد بالتخلف إلا إن كان صاحب عذر شرعي، أو أغلق عليه باب داره شريطة ألا يغادرها إلا بعد عودة الجيش(٤).

وقد جرت العادة أن تخرج الصوائف في أواخر الربيع وأوائل الصيف، فالخليفة عبد الرحمن الناصر خرج إلى بنبلونه في يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر المحرم سنة ٣١٢هـ (مايو ٩٢٤م) وذلك بسبب اعتداء البشكنس على بني لب وبني ذي النون بحصن بقبره(٥).

وبصفة عامة فإن الحملات العسكرية الضخمة لا تخرج إلا بعد إعداد مسبق لها، فالصوائف يبدأ التجهيز لها في شهر يونيه(٦)، بعد أن تدرس الحالة الإقتصادية في الأقاليم التي سوف يمر عليها الجيش، وبالذات المحصولات، إذ أن الجيش كان يعتمد عليها في تمويله، يدل على ذلك أن السنوات التي يعم فيها القحط لا تكون فيها صائفة(٧).

---

(١) – المقتبس: تحقيق:د.محمود مكي ص١٣٢-١٣٣.

(٢) – المصدر السابق،ص١٤٠.

(٣) – نفسه، ٤٤.

(٤) – نفسه، ٤٥.

(٥) – المقتبس، تحقيق:شالميتا ص١٨٩.

---

(١) نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ٤٠/٣

(٦) – أعمال الأعلام، ٢/٩٨.

(٧) – البيان المغرب، ٢/١٦٨.." (١)

"وعندما وصف ابن حيان بروز الخليفة عبد الرحمن الناصر، ذكر أنه برز "دارعا مستلئما متقلدا سيفه، راكبا لأشقر معروف بالعتق، من جياد المقرنات، قد حفته قواده وكتائبه معبأة أحسن تعبئة"(١).

وإن تعذر خروج الخليفة مع الجيش، اكتفى بالجلوس على السطح فوق باب السدة في قصر قرطبة، لمشاهدة مسيرة الجيش، فإذا مر الجيش من أمام الخليفة، رفع يديه إلى السماء يدعو الله تعالى أن ينصرهم ويمنحهم السلامة، ولا ينزل يديه إلا بعد أن يغيب الجيش عن بيوت قرطبة، ويكون إلى جانبه ولي عهده يفعل مثل فعله(٢).

وأما الحاجب عبد الملك المظفر فقد برز وهو "شاكي السلاح في درع جديدة سابغة وعلى رأسه بيضة حديد مثمنة الشكل مذهبة شديدة الشعاع وقد اصطفت القواد والموالي والغلمان الخاصة في أحسن تعبئة فساروا أمامه وقد تكنفه الوزراء الغازون معه(٣)"، **وقد جرت العادة أن** يتجمع أهل قرطبة كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم لمشاهدة بروز الخليفة أو غيره حيث يصبح ذلك البروز مجال حديثهم أياما عديدة(٤).

وبعد أن تكتمل الاستعدادات، ويتم عقد الألوية وفق الرسوم المتعارف عليها، ينطلق الجيش بقيادة الأمير أو الخليفة أو من ينوب عنهما إلى الجهة المتفق عليها، ويكون موعد الخروج بالحملة سرا لا يعرفه إلا كبار المسئولين فقط، وحتى الجهة التي سيتوجه الجيش إليها لا يعرفها إلا القادة، ففي أول غزوة للخليفة عبد الرحمن الناصر وهي مونش سنة ٣٠٨هـ (٩٢٠م) والتي كانت بالأصل موجهة إلى ألبة والقلاع، خرج من قرطبة ومر بمدينة الفرج "وادي الحجارة Guadalajara" وبعدها وصل مدينة سالم، وتظاهر بأنه يريد الثغر الأعلى، لكنه فجأة عرج على طريق ألبة والقلاع وواصل سيره حتى بلغ هدفه(٥).

---

(١) – نفسه ص٣٣٣-٣٣٤.

(٢) – نفسه، تحقيق: د.عبد الرحمن الحجي، ص ٢٢١.

(٣) – البيان المغرب، ٣/٥.

---

(١) نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ٣/٤٩

(٤) – المصدر السابق،٢٢٢/٢.

(٥) – المقتبس، تحقيق:شالميتا، ص ١٦١-١٦٣.." (١)

"فقد ذكر ابن حيان أنه في سنة ٣٠٨هـ (٩٢٠م) قام الخليفة عبد الرحمن الناصر بغزوة ضد نصارى الشمال، وفي إحدى مواطن القتال، التجأ حوالي خمسمائة رجل من أولئك النصارى إلى أحد الحصون للاحتماء به، إلا أن الخليفة أمر بتقديم المظل وأبنية العسكر إلى ساحة الحصن لمحاصرته (١) .

وتجدر الإشارة إلى أن المظل كان في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله يقدم هدية لمن يراد تكريمه وتشريفه على من سواه، فقد ذكر ابن حيان أنه في شهر رمضان سنة ٣٦٢هـ (يونيو ٩٧٣) صدرت أوامر الخليفة المستنصر بالله بمنح زعيم البربر رئيس كتامه، الوافد إليه من العدوة المغربية أبي العيش بن أيوب بن بلال مظلا فخما بفرشه وآلته لنزوله فيه إكراما له (٢) .

حجر الأعزة:

ويوجد في القصر مكان يعرف بحجر الأعزة، لا يركب من عنده إلا الأمير أو الخليفة ولا يسمح لغيرهما بالركوب منه إلا من أذن له من قبلهما تنويها بذكره وإكراما له، كما فعل الخليفة المستنصر بالله عندما جعل ركوب الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن الناصري من عند ذلك الحجر، عندما قلده سيفين وسماه بذي السيفين وذلك يوم الخميس السابع من شهر شعبان سنة ٣٦٤هـ (٣) (٢٢ إبريل ٩٧٥م) تقديرا له على جهوده في العدوة المغربية.

الطراز:

ومن مظاهر سلطان الأمير أو الخليفة الأموي في الأندلس اتخاذ الطراز (٤)

---

(١) – المقتبس، تحقيق: شالميتا، ص ١٦٦.

(٢) – المقتبس، تحقيق: د. عبد الرحمن الحجي ص ١١٥.

(٣) – المصدر السابق، ص٢١٩-٢٢٠

(٤) – الطراز: كلمة معربة عن الفارسية، استعملت في الشعر العربي عند التفاخر والمدح، كقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:-

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

---

(١) نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ٥٢/٣

كما استعملت للدلالة على مجموعة معمارية. إلا أن المعنى الحقيقي لكلمة الطراز يتضح عندما تنقش العبارة الرسمية على العملة أو النسيج الرسمي أو غير ذلك من الأوراق ذات الطابع الرسمي، **وقد جرت العادة أن** تتخذ كل دولة لنفسها طرازا أو عبارة مميزة. انظر: ديوان حسان بن ثابت، (تحقيق د. سيد حنفي حسين، القاهرة، وزارة الثقافة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ص١٢٣. د. حسن الباشا. الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية. (القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٦٦م)، ٦٨٦/٢. فريال داود المختار، دور الطراز في مدينة السلام (العراق وزارة الأعلام.مجلة المورد، المجلد الثالث، العدد الثالث، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) ص ١٢٣.." (١)

"وقد تحدث بعض المؤرخين (١) بشيء من الإعجاب عن دار الطراز التي أنشأها الأمير عبد الرحمن الأوسط، لكن ابن حيان (٢) ذكر أن هذه الدار كانت في الأساس من إنشاء الأمير عبد الرحمن الداخل، وعليه فربما يكون ما قام به الأمير عبد الرحمن الأوسط هو عبارة عن تجديد لتلك الدار التي أنشأها جده. وقد شهدت دور الطراز تطورا كبيرا في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر، وفي هذا يقول ابن الخطيب: "ومن أثاره – عبد الرحمن الناصر – التي ضربت بها الأمثال وقضيت فيها العجائب، حال الطراز ببابه لنسج ما يحتاج إليه من الخلع والكسى وملابس الحرم وغير ذلك (٣) " بالإضافة إلى "الأقمشة الناعمة والمنسوجات الحريرية السميكة" (٤) .

ولدار الطراز مسؤول يتولى الإشراف عليها، يسمى "صاحب الطراز"، **وقد جرت العادة ألا** يتولى هذا المنصب إلا الأعيان الذين لهم اختصاص بالأمير أو الخليفة الأموي (٥) .

---

(١) – ابن عذاري، البيان المغرب، ٩١/٢، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٠/٢، ابن خلدون، تاريخه، ١٣٨/٤.

(٢) – المقتبس، تحقيق: د.محمود مكي ص ١٩٥.

(٣) – أعمال الأعلام ٤٠/٢.

(٤) – وصف الأندلس للرازي ص ٦٥. ونتيجة لاهتمام عبد الرحمن الناصر بالطراز فقد ازدهرت عملية صناعة المنسوجات بالأندلس وبالذات في مدن المرية ولقنت وسرقسطة فأصبحت تنتج الأقمشة بأنواعها من الحرير المطرز بالذهب والوشي والسقلاطوني والبغدادي والخز وسائر أجناس الديباج والثياب الرقيقة

---

(١) نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ٦٣/٦

المطرزة المصنوعة من السمور، وقد بلغت تلك الصناعة من الدقة بحيث أن الكثير منها يصدر للبلاد الأخرى. انظر: وصف الأندلس للرازي، ص٦٧، ٧٠، ٧٨. فرحة الأنفس، ص٢٨٣-٢٨٤، ٢٨٧-٢٨٨. أعمال الأعلام، ٢/٤٠. المغرب في حلى المغرب ٢/١٩٣-١٩٤.

(٥) – المقتبس، تحقيق: د. محمود مكي، ص١٨٥، مقدمة ابن خلدون، ص ٧٠٩.." [١]

"وكان الأمراء والخلفاء يرتادون هذه المنتزهات عادة في وقت الحر والربيع، لأجل الفرجة والاستمتاع بالمناظر الطبيعية، فإذا حل الخريف ذهبوا إلى اشبيلية وشواطئها(١)، وأما في الشتاء فربما انتقل الخلفاء من الزهراء إلى قرطبة(٢).

وقد كان الشعراء يتبارون في وصف المنية التي يبنيها الأمير أو الخليفة لنزهته(٣)، وأما موكب النزهة، فلم يكن يختلف عن موكب الصيد، فبعد أن يتم تقديم المطبخ، كان الأمير أو الخليفة يظهر للناس بكامل زينته، والأعلام تخفق حوله، ورجاله المقربين بين يديه، والحرس قد أحاطوا به، ويخترق الموكب الشوارع، وسط هتافات الجماهير المصطفة على الجانبين، حتى يمضي إلى سبيله.

وقد جرت العادة أن الخليفة هشام المؤيد، كان يخرج مستخفيا، والحاجب العامري أمامه، بعد أن يكون قد أمر الجيش بطرد الناس عن طريق مرور موكب الخليفة، الذي يكون مع أهله وجواريه، لابسا للبرنس كما يفعل الجواري فلا يعرف منهن(٤).

موكب الحرب:

عند الإعلان عن خروج الجيش للغزو، يظهر موكب الحرب للناس، فإذا تجمع الجند في المكان المخصص، برز إليهم الأمير أو الخليفة، فيتفقد الجيش ويشرف على مدى استعداد أفراده، ويكون لابسا درعه، متلثما، متقلدا سيفه، ممتطيا جوادا عتيقا، وقواده قد حفوا به، والأعلام والرايات تخفق فوق رأسه(٥)، فإذا لم يتمكن من قيادة الجيش بنفسه، اكتفى بالجلوس على السطح فوق باب السدة، فإذا مر الجيش أمامه، رفع كفيه إلى السماء يدعو الله تعالى، أن يمنح الجيش التوفيق، ويستمر رافعا يديه بالدعاء حتى يغيب الجيش عن بيوت قرطبة، وبجانبه ولي عهده يفعل مثل فعله(٦).

---

(١) – قضاة قرطبة، ص ٤٩.

(٢) – المقتبس، تحقيق: د.عبد الرحمن الحجي، ص ٢١١-٢١٣.

---

(١) نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ٦٥/٦

(٣) – المصدر السابق، تحقيق: أنطونيه ص ٣٩.

(٤) – البيان المغرب ٤٠/٣.

(٥) – المقتبس، تحقيق: شالميتا، ص ٣٣٣-٣٣٤.

(٦) – المصدر السابق، تحقيق: د.عبد الرحمن الحجي ص ٢٢١.." (١)

"وهناك أبسط تعريف للمدلول أو المعنى ينطبق على الشعر وغير الشعر، وهو إيماء الرموز اللفظية وعلاقاتها النحوية إلى أشياء موجودة في العالم الخارجي أو إلى أفكار ووجدانات مشتركة بين الناس جميعاً.. فإذا أخذنا هذا التعريف أساساً لنا وجدناه يتضمن مبدأ الانتظام ومبدأ القاعدة.. فالأول يعني أنه يتطلب وجود علاقة سببية عامة بين التعبير في ظروف معينة وبين استجابة أناس ينتمون إلى فريق لغوي معين.. أما المبدأ الثاني فيتطلب أن يخضع استعمال الكلمة أو العبارة لقواعد الصحة أو الخطأ حسب ما يتواضع عليه الفريق اللغوي.. وقد توسع علماء اللغة في هذا المفهوم فقسموا المعنى على أساس أنواع الاستجابات التي يثرها إلى معنى انفعالي، ومعنى إدراكي أو وصفي وقد سماه أيضاً أوجدن ورتشاردز في كتابهما المشهور "معنى المعنى" الإحالة.

ويمكن تعريف المعنى الانفعالي بأنه ذلك المعنى المؤدي إلى مجموعة من الانفعالات لدى المستمع أو القارئ عند استجابته للمعنى، أو استعمال نوع من المثيرات في الكلام بالنسبة للمتكلم.. أما المعنى الإدراكي فالإثارة والاستجابة فيه لا تخرجان عن حيز الإدراك الذهني كالتفكير والاعتقاد والافتراض والشك مثلاً.

وقد جرت العادة على تقسيم المعنى الإدراكي إلى علاقتين: العلاقة بن الاسم والمسمى، وتسمى هنا بمدلول الكلمة.. والعلاقة بين الكلمة وبعض خصائص الأشياء أو صفاتها، فتعتبر هذه الصفات بمثابة مجموع الأوصاف والعناصر التي تساعد الذهن على تحديد مفهوم معين.

وقد اتفق المناطقة على تسمية هذه العلاقة بمفهوم الكلمة، ويمثل أحياناً لذلك بان كلمة الإنسان تعني في علاقتها الإدراكية الأولى زيداً من الناس، بينما تعني في علاقتها الإدراكية الثانية حيواناً ناطقاً ذا قدمين.." (٢)

---

(١) نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ١٤٢/٦

(٢) مبادئ في نظرية الشعر والجمال، ص/٢٠٢

"ولما حضرته الوفاة قيل له: من تقدم من ولدك على الناس، **فقد جرت العادة بذلك**؟ فقال: أما أنا فأريد أن أقدم قنصاً، والله يريد أن يقدم نزاراً! ثم قضى نحبه.

قال صاحب التيجان: ثم ولي أمر مكة بعد موت معد ابنه قنص بن معد بن عدنان.

قنص بن معد بن عدنان

ذكر صاحب الكمائم أن أخاه نزاراً كان أولى بالسلطنة منه، ولكن غلب حب قنص على قلب أبيه فولاه، وكان أيضاً أكبر ولده.

وعندما ولي أراد إخراج أخيه من الحرم، فوعظه واستعطفه فلم يفعل، فقال له: علام تخرجني وأنت أخي؟ فقال: الملك ليس معه إخوة، وإن لم أخرجك تخرجني، بذلك يحدثني خاطري؛ فقال: إذ عزمت على هذا فأمهلني قليلاً حتى أرحل بمن معي؛ فقال: ما أجد في خاطري أن في مهلتك ما يعود علي بخير، [ومع] ذلك فقد أمهلتك! فمضى نزار، واشتغل بنقله أهله وماله عن الحرم، فلما أبصره أهل مكة على تلك الحال قالوا: كنا نخاف على بني إسماعيل من غيرهم، وأما وقد بدأ هذا الظالم بأن يسلط بعضهم على بعض، ويفتح عليهم باب النفي والخلاف لا نتركه لذلك. قال: فما تصنعون؟ قالوا: نجعلك تقيم على رغمه. فقال: إذاً أذوق مرارة العيش من ملك من لا يريدني، ومجاورة من يقدر علي ولا أقدر عليه. فقالوا: فإن كان لك قلب يصبر على إخراجه أخرجناه؛ قال: لم يكن لي قلب يصبر على ذلك، ولكن قد قساه عليه وسهل عليه ما يصعب عقوقه. واتفق رأيهم على إخراجه، فرجعوا إليه وأنذروه بالخروج وإلا قتلوه! قال: قد كنت أعلم ذلك من إمهال نزار، وأنا خارج عنكم! فخرج بأهله وماله إلى أرياف العراق، ونزلوا بجهات الحيرة، وصادفوا وقت غلبة الإسكندر على سلطنة الفرس وتفرقها على ملوك الطوائف، فعاثوا هنالك وكثروا، واجتمعت إليهم أخلاط العرب، إلى أن كبر سابور [ذو] الأكتاف، فوضع فيهم السيف وأفناهم، فكان من بقاياهم على ما قيل رهط النعمان بن المنذر. وزعم بعض النسابين أنهم ضميمة في لخم.

واستقل بملك الحجاز:

نزار بن معد." (١)

"فالبادية أرض مكشوفة، وأبوابها مفتوحة لا تمنع أحدا من دخولها، فإذا جاء سيد قبيلة طامعا في مر كز وأرض وكلأ وماء، ووجد في عدده وعدته قوة، نافس من نزل قبله، وطمع في ملكه وتقرب إلى الحكام ليحلوه محله، وليأخذ مكانه. وإذا وجد أولئك الحكام في القادم شخصية قوية وأنه أقوى من السابق، لأنه

---

(١) نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، ص/١٢٦

ظهر عليه بعدد من معه وبقوة شخصيته، وأن السيد القديم لم يظل ذا نفع كبير لهم، فلا يهمهم عندئذ إزاحته عن مكانه، و إحلال الجديد محله. وكل ما يطلبه الحكام هو ضمان مصالحهم، ومن يتعهد بحماية مصالحهم صار حليفهم وصديقهم كائنا من كان. وهكذا البشر في كل مكان وزمان من أية أمة كانوا. لقد سيطرت القبائل العربية على شواطئ الفرات وهيمنت عليها في أيام السلوقيين. ونجد ساداتها و قد نصبوا أنفسهم عمالا "فيلاركا" على تلك الشواطئ منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد وبعده وتدل أسماء أولئك العمال على أن أصحابها كانوا من أصل عربي، وأن الأسر التي كونوها هي أسر عربية. وكلما كانت أسماء الملوك الأولين لهذه الأسر أسماء عربية، كانت أكثر دلالة على أصل أصحابها العربي. **فقد جرت العادة أن** الملوك المتأخرين يتأثرون بتيارات زمانهم الاجتماعية وبرسومه وعاداته، فيتخذون ألقابا وأسماء يونانية أو سريانية أو فارسية، تظهرهم وكأنهم من أصل يوناني أو سرياني أو فارسي، على حين هم من أصل عربي، ولهذا كانت لأسماء مؤسس، الأسر أهمية كبيرة في إثبات اصل الأسرة.." (١)

"وكانت الحمامات العامة قليلة العدد وربما لم تكن معروفة، إذ لم تكن شائعة بين الناس في الشرق الأدنى، لأنهم كانوا يستحمون في بيوتهم في الغالب، فجزيرة العرب حارة ومن الممكن الاغتسال في البيوت بكل سهولة. ولم يعرف اليهود الحمامات ألعامة، وإنما تعلموها من الروم والرومان. وكانوا يستحمون في المياه الجارية وفي البيوت. وقد ورد أن الرسول لم يدخل حماما قط، ولم يصح في الحمام حديث. مما يدل على أن الحمام العام لم يكن شائعا في أيامه. فكان الرسول يغسل جسمه في بيته. وإذا وجد الحمام العام فلم يكن الأغنياء وذوو اليسار وأهل البيوت يقصدونه، إذ كانوا يرون أن في تعري الرجل من ملابسه أمام الغرباء زراية ومنقصة، وأن في مخالطة الناس والاغتسال معهم في حمام، مثلبة ودلالة على نقص في البيت. فاستحموا في بيوتهم.

وقد قام السدر في الحجاز مقام الصابون في الاغتسال، فكانوا إذا أرادوا تنظيف أجسامهم استعملوا ورق السدر مع الماء، فيخرج له رغاء ابيض، وذلك بعد طحن الورق أو دقه. **وقد جرت العادة بغسل** الميت به. وذكر ان الرسول امر قيس بن عاصم بأن يغتسل بالماء والسدر.

وعندما تغتسل المرأة، تغسل رأسها بالخطمي والطين الحر والأشنان ونحوه.

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٣/٢٦٧

ثم تمشط شعرها. وقد تستعمل المرأة المتمكنة ورق الاس يطرى بأفاويه من الطيب لتمشيط شعرها به.." (١)

"وقد جرت العادة بإنزال الوفود في دار الضيافة، ليعتنى بالضيوف الوافدين ولينالوا حريتهم وراحتهم بها. ويظهر ان من عادة إلعرب إذ ذاك ان الوفد منهم إذا انتهت مهمته وقرر الرجوع إلى اهله، عملت له وليمة في آخر يومه،وقدمت له هدية، وتسلم له رسالة ان احتيج إلى ذلك. وقد اتبعت هذه العادة في يثرب حينما أخذت الوفود تترى على الرسول لمبايعته ب الإسلام. فقد اتخذ الرسول دارا خاصة بيثرب لتكون دارا تنزل بها الوفود، عرفت ب "دار رملة بنت الحارث" امرأة من بني النجار. ويظهر انها كانت دارا واسعة، بدليل ما ورد من ان ا الرسول حبس، بها "بنو قريظة" لما نزلوا إلى حكمه. ولا يمكن إنزال عشرات من الناس بها لو لم تكن دارا واسعة كبيرة. كما كان الرسول يأمر المكلف بأمر الوفود بإعطائهم بم جوائز يعينها له،فيعطى مقدار ما يأمره به الرسول، وما يكتبه لهم من اقطاع.

صكوك المسافرين

هي جواز السفر في اصطلاح هذا اليوم. كان على المسافر حمله معه لئلا يتعرض به أحد، يمنحها الملوك وسادات القبائل،وتختم بختمها، فلا يتحرش احد بحاملها. ويؤمن على سلامته. وإذا اعتدى عليه معتد طالب صاحب الجواز بحقه من المعتدي عليه.وتعطى مثل هذه الصكوك للوفود وللنابهين من الناس من أصحاب المكانة والجاه.

وقد يكون الجواز شيئا غير مكتوب. فقد كان "جواز" أهل مكة ومن كان في حلفهم لحاء شجر الحرم، يعقدونه في أعناقهم أو في أعناق ابلهم، ليكون علامة على أنهم من "قريش" أو من قوم لهم عهد وعقد معهم فلا يتجاسر أحد على التحرش بهم. للعهود المعقودة بين قريش وبين سادات القبائل، بعدم تحرش احد برجل من اهل مكة أو ممن يكون في جوارهم ومن له عهد معهم.

وقد يكون الجواز شيئا بسيطا عصا أو سهم أو اي شيء آخر. يعطيه شخص شخصا اخر ليكون جواز أمان وسلام، إذا ابرزه لم يتحرش أحد به.." (٢)

"ويظهر من نص معيني ناقص ويا للاسف، أن المعينيين كانوا يحاكمون الأشخاص في محاكم تسمى "معذر" "معنرن" "م ع ذ رن". وهي مجالس المدن أو القرى، فيحاكم من يراد محاكمته فيها وفقا للقوانين

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٢٩٣/٦

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠٠/٧

"سذ مرت" "س ذ م ر ت" فإذا أصدر "المعذر" قرارا بحق شخص فيه حكم أو فيه تبرئة، أعلن القرار على الناس. وتصدر القرارات وتعلن الأحكام باسم الالهة. **وقد جرت العادة بأن** ا يقدم الشخص ذبيحة يتقرب بها إلى الإله "ود" في مقابل النظر في أمره.

وفي محيط حضري، فيه شرائع وتقنين وأحكام، لا بد وأن تؤلف فيه محاكم للحكم بين الناس وللنظر في مخالفات المخالفين لاحكامها ولما تصدره من قوانين، ولبت في تهرب التجار أو الزراع من دفع ما عليهم من ضرائب وحقوق إلى الحكومة. ولا يستبعد أن يعثر المستقيل على نصوص قد تتحدث عن وجود محاكم وحكام وكتبة كانوا يدونون أحكام ما يصدره أولئك الحكام في أمور المتحاكمين.

ونظرا إلى ما نجده في أخبار أهل الأخبار من تحكيم المتحاكمين لسدنة المعابد وللكهان في خصوماتهم، ومن لجوئهم الى الأصنام للاستفسار منها عن السرقات وعن القتول، وعن الأشخاص الذين ارتكبوا الجنايات، فإن باستطاعتنا اعتبار المعابد محاكم مثل أي محاكم أخرى يكون من حقها الفصل في نزاع المتنازعين.

أصول المحاكمات وكيفية النظر في الدعاوي." (١)

"**وقد جرت العادة بأن** يدرس الشعر الجاهلي على أسلوب الجادة القديمة، بالاعتماد على الروايات المدونة عنه في الموارد الاسلامية القديمة، وهي روايات لاقت رواجا كبيرا بين المعنيين في الشعر الجاهلي، حتى صارت في درجة القضايا البديهية المسلم بصحتها، مع أنها في الواقع أخبار آحاد، وردت في كتب اسلامية قديمة نقلها عنها المؤلفون المتأخرون عن المؤلفين القدماء. مع أن الصحيح هو في وجوب درس الشعر الجاهلي، على ضوء شعر المخضرمين والشعراء الاسلاميين الذين عاشوا في صدر الإسلام، وعلى ضوء الدراسات المعروفة عن الشعر عند الساميين، مثل شعر السريان الذي يأخذ أيضا بالوزن والقافية وله مصطلحات قديمة في الشعر تعود إلى ما قبل الإسلام، ثم الشعر العبراني والشعر البابلي وشعر بقية الساميين.." (٢)

"المواصي : التي تقع إلى الغرب من مستوطنات ساحل قطاع غزة ، وخاصة جنوب مدينة خان يونس

.

السيفا : وهي المنطقة الواقعة شمال قطاع غزة ، بالقرب من بلدة بيت لاهيا .

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٢٨٧/٧

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٣٣٥/١٣

المنطقة الواقعة بين مستوطنة كفار دروم الرئيسية والدفيئات التابعة لها .

... **وقد جرت العادة أن** تعلن سلطات الاحتلال عن تلك الأماكن أنها مناطق عسكرية مغلقة ، وتمارس فيها الانتهاكات والمضايقات التالية :

لا يمكن أن يدخلها إلا الفلسطينيون الذين يعيشون فيها .

يسمح للسكان بالدخول إليها والخروج منها سيرا على الأقدام فقط ، وبين بعض الأوقات المحددة فقط .

في بعض الأحيان يمنع الجيش جميع السكان من مغادرة هذه المناطق أو العودة إليها طوال أيام متواصلة .

يفرض جيش الاحتلال عادة حظر التجوال في هذه المناطق من الغسق إلى الفجر .(١)

الآثار الإنسانية والسياسية والأمنية المترتبة على الإغلاق

... تشمل سياسة الإغلاق الإسرائيلية علىى قطاع غزة فرض حصار داخلي وخارجي على المدن والقرى والمخيمات ، ويأخذ الإغلاق صنوفا وألوانا من الحصار منها :

عزل القرى عن حقولها ، والمدن عن قراها ، ووووضع السكان تحت الإقامة الجبرية .

إغلاق المعابر في وجه الأفراد والسلع ، وتوقف حركة الاستيراد والتصدير .

توقف حركة التبادل التجاري الداخلي بين المدن والقرى الفلسطينية ، مما يؤدي إلى تعطيل وشل كافة المناحي الحياتية والاقتصادية والاجتماعية للسكان الفلسطينيين .

شل حركة السكان ، ومنعهم من التنقل للعمل أو التجارة أو التعليم أو العلاج الطبي أو السفر أو زيارة الأقارب .

إذ يحرم آلاف العمال من الوصول إلى أعمالهم في إسرائيل .

كما يحرم الطلبة من الوصول إلى جامعاتهم في الضفة الغربية .

---

(١) المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان ، العيش المر : الانتهاكات الإسرائيلية في المناطق الصفراء ، غزة ، ١٩٩٩، ص٣١ . ...." (١)

"سورة مريم

اعلم أنَّ حروف المُعْجمِ على نوعين : ثُنائي ، وثُلاثي ، **وقد جرت العادةُ** – عادةُ العرب – أن ينطقُوا

---

(١) الانتفاضة الفلسطينية الكبرى في قطاع غزة، ص/٢٢١

بالثنائيَّات المقطوعة ممالة ، فيقولوا : بَا ، تَا ، ثَا ، وكذلك أمثالها ، وأن ينطقوا بالثلاثيَّات التي في وسطها الألف مفتوحة مشبعة ، فيقولون : دال ذال ، صاد ، ضاد ، وكذلك أشكالها.

أما الرَّازي وحدُه من بين حُروف المعجم ، فمعتادٌ فيه الأمران ، ؛ فإنَّ من أظهر ياءَه في النُّطْق حتَّى يصير ثلاثيًّا ، لم يُملْه ، ومن لم يظهر ياءه في النطق ؛ حتَّى يشبه الثنائيَّ ، أماله.

واعلم أنَّ إشباع الفتحة في جميع المواضع أصلٌ ، والإمالة فرعٌ عليه ؛ ولذلك يجوزُ إشباعُ كُلِّ ممالٍ ، ولا يجوز كُلُّ مُشْبَعٍ من المفتوحات.

والعامَّة على تسكين أواخر هذه الأحرفُ المقطعة ، لذلك كان بعضُ القرَّاء يقفُ على كُلِّ حرفٍ منها وقفة يسيرة كبالغة في تمييز بعضها من بعض.

وقرأ [الحسن] " كافُ " [و " ها "] وتفخيمهما ، وبعضهم يُعبِّر عن التفخيم بالضمِّ ، كما يعبِّر عن الإمالةِ بالكسر ، وإنما ذكرته ؛ لأنَّ عبارتهم في ذلك مُوهمةٌ.

وأزهر دال " صاد " قبل ذالِ " ذكرُ " نافعٌ ، وابن كثير ، واعاصم ؛ لن الأصل ، وأدغمها فيها الباقون.

والمشهورُ إخفاء نون " عَيْن " قبل الصَّاد ؛ لأنها تقاربها ، ويشتركان في الفمِ ، وبعضها يظهرها ؛ لأنها حروفٌ مقطعةٌ يقصدون تمييز بعضها من بعض.

٣

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٣

قوله : ﴿ذِكْرُ﴾ : فيه ثلاثة أوجه : الأول : أنه مبتدأ محذوف الخبر ، تقديره : فيما يتلى عليكم ذكر.

الثاني : أنه خبر محذوف المبتدأ ، تقديره : أو هذا ذكر.

الثالث : أنه خبر الحروف المقطَّعة ، وهو قول يحيى بن زياد ، قال أبو البقاء " وفيه بعدٌ ؛ لأنَّ الخبر هو المبتدأ في المعنى ، وليس في الحروف المقطَّعة ذكرُ الرحمة ، ولا في ذكر الرحمة معناها ".

و " ذِكْرُ " مصدرٌ مضافٌ ؛ قيل : إلى مفعوله ، وهو الرحمة في نفسها مصدرٌ أيضاً مضافٌ إلى فاعله ، و " عَبدَهُ " مفعولٌ به ، والناصبُ له نفسُ الرحمةِ ، ويكون فاعلُ الذِّكرِ غير مذكورٍ لفظاً ، والتقدير : أن ذكر الله ورحمته عبدهُ ، وقيل : بل " ذِكْرُ " مضافٌ إلى فاعله على الاتِّساع ، ويكون " عبدهُ " منصوباً بنفس الذِكْر ، والتقدير : أن ذكرت الرحمة عبدُه ، فجعل الرحمة ذاكرةً له مجازاً.

و " زَكَرِيَّا " بدلٌ ، أو عطفُ بيانٍ ، أو منصوبٌ بإضمار " أعْنِي ".

وقرأ يحيى بن يعمر – ونقلها الزمخشريّ عن الحسن – " ذَكَّرَ " فعلاً ماضياً مشدداً ، و " رحمة " بالنصب

على أنها مفعولٌ ثانٍ ، قدمت على الأول ، وهو " عَبْدُهُ " والفاعلُ : إما ضمير القرآن ، أو ضمير الباري تعالى ، والتقدير : أن ذكَّر القرآنُ المتلُوُّ – أو ذكَّر الله – عبده رحمتُه ، أي : جعل العبد يذكرُ رحمته ، ويجوز على المجازِ المتقدِّم أن " رحمةَ ربِّك " هو المفعول الأول ، والمعنى : أنَّ الله جعل الرحمة ذاكرةً للعبد ، وقيل : الأصلُ : ذكَّر برحمةِ ، فلما انتزع الجارُّ نصب مجروره ، ولا حاجة إليه.

وقرأ الكلبيُّ " ذكر " بالتخفيف ماضياً " رَحْمَةَ " بالنصب على المفعول به ، " عَبْدُهُ " بالرفع فاعلاً بالفعل قبله ، " زَكَرِيَّا " بالرفع على البيان ، أو البدل ، أو على إضمار مبتدأ ، وهو نظيرُ إضمار الناصب في القراءة الأولى.

وقرأ يحيى بن يعمر – فيما نقله عنه الدَّاني – " ذَكَّرْ " فعل أمرٍ ، " رَحْمَةَ " و " عَبْدهُ "

٤

بالنصب فيهما على أنهما مفعولان ، وهما على ما تقدَّم من كون كلٍّ واحدٍ ، يجوز أن يكون المفعول الأول ، أو الثاني ، بالتأويلِ المتقدّم في جعل الرحمة ذاكرةً مجازاً.

فصل في تأويل هذه الحروف المقطعة قال ابنُ عباسٍ : هذه الحروف اسم من أسماء الله تعالى ، وقال قتادةُ : اسمٌ من أسماء القرآن.

وقيل : اسمٌ للسُّورة.

وقيل : هو قسمٌ أقسم الله به ويروى عن سعيد بن جبيرٍ ، عن ابن عباس في قوله ﴿كاهيعاصا﴾ قال : الكافُ من كريم وكبير ، والماء من هاد ، والياء من رحيم والعين من عليهم ، وعظيم ، والصاد من صادق.

وعن ابن عبَّاس أيضاً أنَّه حمل الياء على الكريم مرَّة ، وعلى الحكيم أخرى.

وعن ابن عباس في العين أنَّه من عزيز من عدل.

قال ابنُ الخطيب : وهذه أقوالٌ ليست قويَّة ؛ لأنَّه لا يجوزُ من الله تعالى أن يودعَ كتابهُ ما لا تدلُّ عليه اللغةُ ، لا بالحقيقةِ ، ولا بالمجازِ ، لأنَّا إن جوَّزنا ذلك ، فتح علينا بابُ قول من يزعم أنَّ لكلِّ أولي من دلالته على الكريم ، والكبير ، أو على اسم آخر من أسماء الرَّسُول – عليه الصلاة والسلام – أو الملائكة ، أو الجنَّة ، أو النَّار ، فيكون حملها على بعضها دون البعض تَحَكُّماً.

فصل في المراد بقوله تعالى : ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يكون المراد من قوله ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أنه عنى عبدهُ زكريَّا ، ثم في كونه رحمة وجهان : أحدهما : أن يكون " رحْمة " على أمَّته ؛ لأنَّه هداهُم إلى الإيمان والطَّاعة.

والثاني : أن يكون رحمة على نبيّنا محمد – عليه الصلاة والسلام – وعلى أمَّته ؛ لأنَّ
ه ." (١)

"وقرأ عليٌّ مُجَاهِدٌ . رضي الله عنهما . سُلَفاً . بضم السين.

وفيه وجهان :

٢٨٠

أشهرهما : أنه جمع سُلْفَةٍ كغُرْفَةٍ وغُرَفٍ.

والسُّلْفَة الأُمَّةُ.

وقيل : الأصل سُلُفاً بضمتين ، وإنَّما أبدل من الضمة فتحة.

وقوله : " مَثَلاً " إما مفعول ثان إن كانت بمعنى صير ، وإلاَّ حالاً.

قاق الفراءُ والزجاجُ : جعلناهم متفرقين ليتعظ بهم الآخرون ، وهم كفار أمة محمد . صلى الله عليه وسلم . والمعنى ومثلاً للآخرِينَ أي عِظة لمن بقي بعدهم وعبرة.

قال أبو علي الفارسي : المَثَلُ واحد يراد به الجمع ، ومن ثم عطف على سلف والدليل على وقوعه (على) أكثر من واحد قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾ [النحل : ٧٥].

فأدخل تحت المَثَل شَيْئَيْن وقيل : المعنى سلفاً لفكار هذه الأمة إلى النار ، ومثلاً لمن يجيء بعدهم.

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٧٠

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا﴾ اعلم أنه تعالى ذكر أنواعاً كثيرة من كفراناتهم ، فأولها : قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف : ١٥].

وثانيها : قوله : ﴿وَجَعَلُواْ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثاً﴾ [الزخرف : ١٩].

وثالثها : قوله : ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف : ٢٠].

ورابعها : قوله : ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف : ٣١].

٢٨١

وخامسها : هذه الآية : وليس في لفظها ما يدل على أن ذلك المثللا أي شيء كان والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً : أشهرها : قال ابن عباس وأكثر المفسرين : نزلت الآية في مجادلة عبدالله بن الزِّبَعْرى مع النبي .

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٣٤٧٢

صلى الله عليه وسلم ـ في شأن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما نزل قول الله عز وجل : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء : ٩٨] كما تقدم في سورة الأنبياء.

والمعنى : ولما ضرب عبدالله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً ، وجادل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه " إِذَا قَوْمُكَ " من قريش " مِنْهُ " أي من هذا المثل " يَصِدُّونَ " أي يرتفع لهم ضجيج فرحاً بسبب مارأوا من سكوت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصْمَيْن إذا انقطع ، أظهر الخصْمُ الثاني الفرحَ والضَّجيجَ.

وقيل : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إِلَهاً لأنفسهم قالت كفار قريش : إن محمداً يريد أن يجعل نفسه لنا إلهاً كما جعل النصارى المسيح إِلَهاً لأنفسهم فعند هذا قالوا : ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ فعند ذلك قالوا : إن محمداً يدعونا لعبادة نفسه وآباؤنا زعموا أنه يجبُ عبادة هذه الأصنام وإذا كان لا بد من عبادة أحد هذين فعبادة الأصنام أولى ؛ لأن آبائنا وآسلافنا أجمعوا على ذلك ، وأما محمد فإنه متهمٌ في أمرنا بعبادته.

ثم إنه تعالى لم يقل : إن عبادة المسيح طريق حسن ، بل هو كلام باطل ، وأن عيسى ليس إلا عبداً أنْعَمْنَا عَلَيِ ْ فزالت شبهتهم في قولهم : إن محمداً يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه.

وقيل : إن الكفار لما رأوا النصارى يعبدون عيسى قالوا إذا عبد النصارى عيسى فآلهتنا خير من عيسى فعبدوال الملائكة.

قوله : " يَصُدُّونَ " قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويصدون ـ بضم الصاد ـ والباقون بكسرها ، ـ فقيل : هما بمعنى واحد.

وهو الصحيح واللفظ ، يقال : صَدَّ يَصُدذُ ويَصِدُّ كَعَكَفَ يَعْكُفُ ويَعْكِفُ وعَرَشَ يَعْرُشُ وَيَعْرِشُ.

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) يضْجَرون.

وقال سعيد بن المسيب :

٢٨٢

" (١).

"﴿ ٥٩ - ٦٤ ﴾ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ . إلى آخر القصة (١) .

لما ذكر تعالى من أدلة توحيده جملة صالحة، أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده مع

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/٤٥٠٠

أممهم المنكرين لذلك، وكيف أيد اللّه أهل التوحيد، وأهلك من عاندهم ولم يَنْقَدْ لهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد [ص ٢٩٣] ومعتقد واحد، فقال عن نوح - أول المرسلين -: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي: وحده ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ لأنه الخالق الرازق المدبِّر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبَّر، ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب اللّه، فقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أقبح رد.

﴿ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي: الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين **قد جرت العادة باستكبارهم** على الحق، وعدم انقيادهم للرسل، ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ فلم يكفهم - قبحهم اللّه - أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالا مبينا واضحا لكل أحد.

وهذا من أعظم أنواع المكابرة، التي لا تروج على أضعف الناس عقلا وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاءوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئا، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات، فلولا أن لهم أذهانا تقوم بها حجة اللّه عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأعقل، فرد نوح عليهم ردا لطيفا، وترقق لهم لعلهم ينقادون له فقال: ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ ﴾ أي: لست ضالا في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه، أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربى جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلا تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها، ولهذا قال: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيده وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون.

﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب

منها، وهو أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله؟" فهذه الحال من عناية اللّه بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر، وقوله: ﴿ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي: لينذركم العذاب الأليم، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى اللّه ظاهرا وباطنا، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة اللّه الواسعة.

فلم يفد فيهم، ولا نجح ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ أي: السفينة التي أمر اللّه نوحا عليه الصلاة والسلام بصنعتها، وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات، زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، فحملهم فيها ونجاهم اللّه بها.

﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم اللّه – على يد نوح – من الآيات البينات، ما بهم يؤمن أولوا الألباب، فسخروا منه، واستهزءوا به وكفروا.

---

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة.." (١)

"﴿ ٦١ ﴾ ﴿ لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن منته على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج بل يسره غاية التيسير، فقال: ﴿ لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ أي: ليس على هؤلاء جناح، في ترك الأمور الواجبة، التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر الأعمى، أو سلامة الأعرج، أو صحة للمريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه، أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد، كما قيد قوله: ﴿ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي: حرج ﴿ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ أي: بيوت أولادكم، وهذا موافق للحديث الثابت: " أنت ومالك لأبيك " والحديث الآخر: " إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم " وليس المراد من قوله: ﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي ينزه عنه كلام الله، ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٩٢

المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه فليس فيه أدنى توهم.

﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ ﴾ وهؤلاء معروفون، ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ أي: البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة، أو ولاية ونحو ذلك، وأما تفسيرها بالمملوك، فليس بوجيه، لوجهين: أحدهما: أن المملوك لا يقال فيه " ملكت مفاتحه " بل يقال: " ما ملكتموه " أو " ما ملكت أيمانكم " لأنهم مالكون له جملة، لا لمفاتحه فقط.

والثاني: أن بيوت المماليك، غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه، لأن المملوك وما ملكه لسيده، فلا وجه لنفي الحرج عنه.

﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ وهذا الحرج المنفي عن الأكل (١) من هذه البيوت كل ذلك، إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق، فإن هؤلاء المسمين (٢) **قد جرت العادة والعرف**، بالمسامحة في الأكل منها، لأجل القرابة القريبة، أو التصرف التام، أو الصداقة، فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح في الأكل المذكور، لم يجز الأكل، ولم يرتفع الحرج، نظرا للحكمة والمعنى.

وقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ فكل ذلك جائز، أكل أهل البيت الواحد جميعا، أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفي للحرج، لا نفي للفضيلة وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام.

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا ﴾ نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا فإذا دخلها الإنسان ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي: فليسلم بعضكم على بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص واحد، من توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت، من غير فرق بين بيت وبيت، والاستئذان تقدم أن فيه تفصيلا في أحكامه، ثم مدح هذا السلام فقال: ﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [ص ٥٧٦] أي: سلامكم بقولكم: " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " أو " السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين " إذ تدخلون البيوت، ﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم، ﴿ مُبَارَكَةً ﴾ لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة، ﴿ طَيِّبَةً ﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة وجلب مودة.

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة قال:

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ عنه فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على

وجهها، يزيد في العقل، وينمو به اللب، لكون معانيها أجل المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فـكما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهي: أن " العرف والعادة مخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ " فإن الأصل، أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.

وفيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره، لأن الله سمى بيته بيتا للإنسان.

وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.

وفيها دليل، على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين، أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

---

(١) في ب: من.

(٢) مراد الشيخ –رحمه الله– فإن بيوت هؤلاء المسمين، كما يبدو –والله أعلم–.." [1]

"﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أي: قاصدا بوجهه مدين، وهو جنوبي فلسطين، حيث لا ملك لفرعون، ﴿ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي: وسط الطريق المختصر، الموصل إليها بسهولة ورفق، فهداه اللّه سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ﴾ أي: دون تلك الأمة ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ غنمهما عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهم، وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿ قَالَ ﴾ لهما موسى ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي: ما شأنكما بهذه الحالة، ﴿ قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ أي: **قد جرت العادة أنه** لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا، ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة، نقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٧٥

فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه اللّه تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ مستريحا لذلك الظلال بعد التعب.

﴿ فَقَالَ ﴾ في تلك الحالة، مسترزقا ربه ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعيا ربه متملقا. وأما المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى.

فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصا في النساء.

ويدل على أن موسى عليه السلام، لم يكن فيما فعله من السقي بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحى منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما أوجب لها الحياء منه، فـ ﴿ قَالَتْ ﴾ له: ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أي: لا لِيمُنَّ عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلى أن وصل إليه ﴿ قَالَ ﴾ مسكنا روعه، جابرا قلبه: ﴿ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: ليذهب خوفك وروعك، فإن اللّه نجاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم عليه سلطان.

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ أي: إحدى ابنتيه ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ أي: اجعله أجيرا عندك، يرعى الغنم ويسقيها، ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأمِينُ ﴾ أي: إن موسى أولى من استؤجر، فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر، من جمعهما، أي: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان، ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملا بإجارة أو غيرها.

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك، لأنها شاهدت من قوة موسى عند [ص ٦١٥] السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه اللّه تعالى.

﴿ قَالَ ﴾ صاحب مدين لموسى ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ﴾ أي تصير أجيرا عندي ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ أي: ثماني سنين. ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك. ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالا

شاقة، وإنما استأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح، ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره.

ف ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام -مجيبا له فيما طلبه منه-: ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ أي: هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك. ﴿ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدنا عليه.

وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا، قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيبا عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟

وأيضا، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟" ولو كان ذلك الرجل شعيبا، لذكره اللّه تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضا فإن شعيبا عليه الصلاة والسلام، قد أهلك اللّه قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاذ اللّه المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب، ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادما له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم، [إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي صلى اللّه عليه وسلم] (١)

---

(١) زيادة من هامش: ب.." (١)

"﴿ ١ - ٦ ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ وَيْلٌ ﴾ كلمة عذاب، ووعيد (١) ﴿ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾

وفسر الله المطففين بقوله (٢) ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أي: أخذوا منهم وفاء عما ثبت لهم قبلهم ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ يستوفونه كاملا من غير نقص.

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ ﴾ أي: إذا أعطوا الناس حقهم، الذي للناس (٣) عليهم بكيل أو وزن، ﴿ يُخْسِرُونَ

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦١٤

﴾ أي: ينقصونهم ذلك، إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان، أو نحو ذلك. فهذا سرقة [لأموال] الناس (٤) ، وعدم إنصاف [لهم] منهم.

وإذا كان هذا الوعيد (٥) على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قهرًا أو سرقة، أولى بهذا الوعيد من المطففين.

ودلت الآية الكريمة، على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في [عموم هذا] (٦) الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين **قد جرت العادة أن** كل واحد [منهما] يحرص على ماله من الحجج، فيجب عليه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجج (٧) [التي لا يعلمها]، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.

ثم توعد تعالى المطففين، وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه، فقال: ﴿ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فالذي جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم يقومون بين يدى الله، يحاسبهم (٨) على القليل والكثير، لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه.

---

(١) في ب: وعقاب

(٢) في ب: بأنهم.

(٣) في ب: لهم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: سرقة للناس.

(٥) في ب: وعيدًا.

(٦) في ب: يدخل في ذلك.

(٧) في ب: الحجة.

(٨) في ب: أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم.." (١)

"يوم مع القسام

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩١٥

... في اليوم الحادي والثلاثين من عام ١٩٣٣ كسرت التقاليد العتيقة في المدينة العريقة.. في عصر ذلك اليوم وقفت عند المدخل الرئيسي في بيت آل السعدي في عكا، استقبل المدعوين من أنحاء البلاد كافة، أصافحهم وأحييهم، فيهنئونني ويتمنون لي السعادة والسرور، وكان ذلك اليوم عقد قراني على الآنسة نسيبة كريمة عبد الفتاح السعدي، رئيس بلدية عكا.

... وكان هذا المشهد مغايرا التقاليد، **فقد جرت العادة أن** لا يكون"الشباب" حاضرا حفلة" العقد"، ولا بد أن ينوب عنه والده أو أحد كبار العائلة، وكان حضوري ثورة على هذا التقليد القديم الذي تواضع عليه المجتمع العربي الإسلامي بعد عهود التخلف والانحلال.

... ثم جاءت وقت" العقد" بكل مقدماته، فجلست وسط الجمع على كرسي يقابلني خال" الفتاة" بصفته وكيلا عنها، وجلس الشيخ عبد الله الجزار كبير علماء المدينة، يتلو الصيغة الشرعية في الإيجاب والقبول لعقد النكاح، وأنا أردّد وراءه عباراته مقطعا مقطعا.. وكان ذلك ثورة "وقحة" على التقاليد، فإن "الشاب" لا يعقد النكاح لنفسه وإنما يعقده وليه أو وكيله، وانصرف الجمع وفيهم الأعيان والمحامون والأطباء والتجار وعامة الناس، والكل مستهجن ومستغرب ... ولكنها مرت وعبرت وأصبحت تقليدا حميدا يطغى على التقاليد البالية.." (١)

"١. بدن المئذنة أو قاعدتها. وهي في بداية عهد بناء المآذن كانت مربعة أول الأمر لأنها أقيمت فوق أنقاض أبراج معابد رومانية قديمة حولت قبل الفتوح الإسلامية إلى كنائس ثم بعد الفتح تحولت إلى مساجد ثم مع مرور الزمن انتقل خلال العصور الإسلامية من التربيع إلى صورة مسدس أو مثمن ثم دائرة كاملة ملساء...

ويلاحظ ان هذا البدن كان يزداد ارتفاعا ورقة كلما اتجه من التربيع نحو التدوير كما يلاحظ أنه كثيراً ما يكون منقسماً إلى جزئين الأعلى منهما أرق وأنحف من الأدنى.

٢. الدرج: درج الصعود إلى المئذنة عادة ما يكون حلزونياً داخلياً يدور حول محور المئذنة وغالباً ما تكون في المئذنة فتحات مطلة على الدرج للإنارة وللتهوية.

وهناك بعض المآذن كان لها درجان واحد لصعود المؤذن بابه من خارج المسجد، وآخر لنزوله وبابه إلى داخل المسجد.

وقد يصبح الدرج خارجياً في الشرفات العليا... وففي بعض المنارات يتم الصعود إلى أعلى المنارة على

---

(١) أربعون عاما. في الحياة العربية والدولية، ص/٢٤٩

طريق صاعد ممهد ليس فيه مقاطع الدرج...

ولوحظ أخيراً في بعض المآذن الحديثة تزويدها بمصعد كهربائي إضافة إلى الدرج الاعتيادي.

٣. الشرفة: وهي المكان المرتفع الذي يصل إليه الدرج حيث يقف المؤذن ليرفع الآذان وعادة ما تكون محيطة ببدن المئذنة لتمكن المؤذن من التوجه إلى جميع الجهات بالدوران حول المئذنة، **وقد جرت العادة بأن** تكون هذه الشرفة مسقوفة بما يسمى (الظلة) وكانت في القديم تتخذ من الخشب، ثم أدخلت عليه الزخرفة، وجعل في بعض المآذن من البناء الحكم... مع استخدام الزخرفة في حاجز الشرفة الحافظ لمن فيها من السقوط.

وفي بعض المآذن بنيت أكثر من شرفة لإضفاء طابع أكثر جمالاً، ومن الطبيعي أن تكون الشرفات العلوية أصغر حجماً من السفلية...

ويذكر هنا أن بعض الشرفات وضعت قريباً من أسفل بدن المئذنة مع وضع شرفة أخرى في نهايتها كما يرى في مآذن الحرم المكي الشريف.." (١)

"...واضح أن الأروقة أو المجنبات كما استفيد منها في إضافة مساحات أخرى للمسجد للتوسعة، فإنها كذلك أضفت على بناء المسجد مسحة جمالية لا تتوفر له بدونها فالأروقة حول المسجد بعد أفقي وهالة جمالية واطار متمم للصورة المتكاملة للمسجد من الناحية المعمارية.

...وواضح كذلك أن الأروقة ـ مع ذلك كله ـ قد استغلت أحسن استغلال في القيام بالدور التعليمي في احتضان حلقات الدروس التي تقام في المسجد، وذلك لأن الأروقة مسقوفة تقي من الشمس، وهي بعيدة نسبياً عن بيت الصلاة (حرم المسجد) الذي يشغله المصلون فلا يشوش عليهم المتعلمون فيها، كما أنها تتميز بالهواء الطلق المتجدد، وبالإشراف على صحن المسجد الذي قد تزينه ميضأة أو أشجار أو غير ذلك... ولعل هذه الحيثيات جميعاً جعلت الأروقة تحظى بالاهتمام الواضح في معظم المساجد القديمة الكبرى في المدن الإسلامية في فترة تضخم المدن وتوسعها وتطورها.

أشهر الأروقة القديمة:

...ويشير الدكتور حسين مؤنس في كتابه (المساجد في الإسلام) إلى أن الأروقة المحيطة بصحن المسجد عن يمينه ويساره وخلفه تكاد تكون محصورة في مساجد مصر وشرق العالم الإسلامي دون غيره، وأوضح مثال لذلك ـ يضيف ـ جامع أحمد بن طولون في القاهرة فقد اتبع فيه هذا النظام بغاية الدقة.

---

(١) تاريخ المساجد الشهيرة، ص/٢٢٤

... أما في الجناح الغربي لمملكة الإسلام **فقد جرت العادة بأن** يمتد بيت الصلاة حتى يشمل نصف مساحة المسجد أو أكثر، وفي هذه الحالة تلغى المجنبات (الأروقة)، فيبدو الصحن وكأنه فناء فسيح في مؤخرة المسجد وإن دار عليه السور.." (١)

"قال الله تعالى (واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) الآية قال وهب بن منبه كانت حنة أم مريم أخت زوجة زكريا وكان أبو مريم رجلا من بني إسرائيل يقال له عمران وكان إمام المسجد الاقصى فلما حملت منه أملت أن يكون ما في بطنها ولد ذكرا فقال ان ولدت ولدا ذكرا فليكن خادما للمتعبدين بالمسجد الاقصى يسقيهم الماء عند الافطار ويحمل لهم الزاد على رأسه ولهذا قالت (رب اني نذرت لك ما في بطني محررا) فلما أخبرت زوجها بما نذرت قال لها قد أخطأت فيما نذرت فربما تلدين أنثى فكيف تخدم الرجال في المسجد فلما وضعتها وجدتها أنثى وهو قوله تعالى (فلما وضعتها قالت ربي انى وضعتها انثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى واني سميتها مريم) الآية فضاق صدرها من ذلك النذر حيث كانت أنثى ثم أن حنة سمت بنتها مريم ومعنى ذلك لا عيب فيها ثم ان عمران أبا مريم مات وهي صغيرة مرضع ثم ان حنة أقامت بعد زوجها عمران مدة يسيرة وماتت فلما ماتت حنة أخذ مريم زكريا زوج اختها أم يحيى وكفلها بعد أمها كما أخبر الله تعالي حيث قال (وكفلها زكريا) قال السدى كان زكريا رجلا فقيرا ضيق المعيشة فلما كفل مريم صار اذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء في أوان الصيف ووفاكهة الصيف في أوان الشتاء وهو قوله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أني لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب). قال وهب بن منبه كانت مريم قد خالفت عادة النساء لأن النساء لا يرجعن الى الطاعة والعبادة إلا بعد مضي الشباب ومريم تعبدت وهي طفلة صغيرة وأخذت عادة العجائز في العبادة والاعتكاف عن الناس فكان زكريا يتعجب من حال مريم في العبادة فلما بلغت مبلغ النساء أتاها الحيض فلما طهرت ارادت الاغتسال فخرجت الى عين ماء فجاء اليها جبرائيل عليه السلام في صورة شاب من بني إسرائيل يسمى تقيا وكان مشهورا في زمانه بالشقاوة من الفساد والزنا قال تعالى (فأرسلنا اليها روحنا) أي جبريل (فتمثل لها بشرا سويا قال اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) فقال لها جبريل عليه السلام (انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت أني يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضينا) فمد جبرائيل يديه وأخذ بذيل قميصها ونفخ فيه فلما بلغت النفخة الى

---

(١) تاريخ المساجد الشهيرة، ص/٢٥٧

صدرها خلق الله تعالي من تلك النفخة عيسى عليه السلام وقد قال الله تعالى (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين). قال العلماء ان الله تعالى خلق آدم من غير أب وأم وخلق حواء من غير أم وخلق سائر المخلوقات من أب وأم فأراد الله تعالى أن يكمل العناصر أربعة فخلق عيسى من غير أب فكمل بدائع حكمته وقد قال الله تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون). قال وهب بن منبه لما حملت مرين بعيسى كانت مدة حملها ساعة واحدة لقوله تعالى (فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) قال ابن عباس رضي الله عنهما كان مدة حملها ثمانية أشهر **وقد جرت العادة أن** من ولد لثمانية أشهر لا يعيش . قال مجاهد بل كان حملها تسعة أشهر كعادة النساء. قال السدى وكان وضعه ببيت لحم بالقرب من بيت المقدس وولدته ليلة الاثنين التاسع والعشرين من كيهك من شهور القبط المعروفة بليلة الميلاد عند النصارى وفيها يشتد البرد فلما قالت مريم (ياليتني مت قبل هذا) ناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) قال وهب بن منبه ان النخلة التي أمرت مريم بهزها كان لها نحو سبعين سنة يابسة لم تثمر فلما وضعت سيدنا عيسى عليه السلام بجانبها أورقت في الحال وأثمرت وصار البلح رطب جنيا من وقته معجزة له وكرامة لها وأمرها بالهز تعاطيا للأسباب فتساقط عليها الرطب كما أخبر الله تعالى وقيل في المعنى

أم تر أن الله قال لمريم ... وهزى اليك الجذع يساقط الرطب

ولو أدنى الجذع من غير هزها ... جنته ولكن كل شيء له سبب." (١)

"كان إماما كاملا، وعالما عاملا، متمسكا بدينه، متمكنا بعقيدته ويقينه، لا يخشى سطوة أمير مكابر، ولا إمام جائر، صداعا في قوله، معتمدا على الله في قوته وحوله، لا يميل مع نفسه إلى ملائم ولا تأخذه في الله لومة لائم، وفي سنة بضع وثمانين بعد المائتين والألف حضر لدار السلطنة العلية، وعاصمة الأمة الإسلامية، في أيام خلافة أعظم ملوك الإسلام، وسيد ملوك الأنام، السلطان عبد العزيز خان، عليه الرحمة والرضوان، وكان دخول المترجم أوائل رمضان، فكان يقرأ درس الوعظ في أيا صوفيا إلى اليوم السابع والعشرين، **وقد جرت العادة أن** السلطان في ذلك اليوم يدور على الدروس، فمتى أتى لدرس يختم المدرس الكلام، ويدعو للسلطان، فما زال السلطان يجري العادة ومعه وكلاء الدولة العظام، وشيخ المسلمين والإسلام، إلى أن وصل لدرس المترجم، فلم يجر العادة من الختم في الحال والدعاء، بل التفت إلى الوكلاء،

---

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص/١٢٠

وخاطبهم بـما لا يليق خطابهم به من كونهم أدخلوا على السلطان الغرور، وأبطلوا الشريعة وارتكبوا سفاسف الأمور، ونكسوا أعلام الدين، وقدموا المخالفين على المؤمنين، وأطال الكلام، وتجاوز الحد في هذا المقام، والسلطان صاغ إليه، فحقد الوكلاء عليه، فبعد أن ختم ذهب، وقد أضمروا له كل عطب، ثم بعد ذلك اجتمعوا وذهبوا إلى السلطان، فدخلوا عليه بعد تقديم الاستئذان وتكلموا في حق المترجم بما غير قلب أمير المؤمنين عليه، وقالوا له قد فعل ما أوجب توجيه المضرة إليه، فلا بد من إعدامه، ليتأدب غيره عن التكلم بمثل كلامه، فقال أمير المؤمنين نعم ولكن لا بد من مرافعتكم معه في مجلس شيخ الإسلام، لئلا يقول الناس قتل ظلما فنقع بين العموم في الملام، فحينما أحس شيخ الإسلام، دخل على الملك خفية عن الوكلاء العظام، ولم يزل يتعطف للسلطان، ويسترحمه بالعفو عن هذا الإنسان، ويقول له إن قتلناه قيل بالعبارات الصريحة، إن السلطان قد قتله لبذله النصيحة، ولكن نفيه أولى، ورأي أمير المؤمنين أعظم وأعلى. فأمر السلطان بنفيه في الحال، فأرسل إلى عكا من غير امهال.

مطلب قصة محمد بهاء الله رئيس البابية

وكان ممن نفي من بلاد العجم قبله إلى عكا محمد بهاء الله رئيس البابية. والناس قد اختلفوا فيه على أنواع، فمنهم من يقول يدعي بأنه المهدي، ومنهم من يقول أنه يدعي النبوة، ومنهم من يقول يدعي الألوهية، فألف المترجم رسالة في عقيدتهم غير وافية بالمقصود، غير أني أحببت ذكرها بعد تعريبها لأنه ألفها باللغة التركية وهي: كان مبدأ ظهور البابية في تاريخ سنة ألف ومائتين وخمس وستين وهو أنه ظهر رجل في شيراز سنة خمس وعشرين ومائتين وألف، واسمه علي بن محمد بن رضا الحسيني وهو رجل تاجر، فذهب إلى مكة لمصداق الأحاديث من أن المهدي يظهر من مكة، ووقف عند مقام إبراهيم يوم الجمعة والخطيب على المنبر وصاح بأعلى صوته أنه هو المهدي وأنه قد ظهر، فأخذه رفقاءه في الحال لمنزلهم ثم ساروا به إلى شيراز، وأخذ هناك يدعو الناس إليه سرا وجهرا، ويقول لهم أنه المهدي المنتظر، فما زال يتفاقم أمره، ويعظم ذكره، وتكثر جماعته، وتزداد دعوته إلى أن سجن في السجن، وكان قبل ذلك قد سجن مرارا وشاه العجم يطلقه، ولكنه في هذه المرة، قد تجسمت منه المضرة، وطغت عليه نفسه، فصار من اللازم إهانته وحبسه، وفي السنة السابعة من ظهوره، الكاسفة لبهاء وجوده ونوره، قتل بالرصاص وهو مصلوب، وعاملته الأيام بعكس المرغوب.." (١)

---

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ٣١٥/١

"وقد ذكرنا ما كان في الدولة الفاطمية من الاهتمام بفتح الخليج عند ذكر مناظر اللؤلؤة. وقال بعض المفسرين رحمهم الله تعالى: إن يوم الوفا هو اليوم الذي وعد فرعون موسى عليه السلام بالاجتماع في قوله تعالى: " قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى " طه٥٩.

وقد جرت العادة أن اجتماع الناس للتخليق يكون في هذا الوقت. ومن أحسن السياسات في أمر النداء على النيل ما حكاه الفقيه ابن زولاق في سيرة المعز لدين الله قال : وفي هذا الشهر، يعني شوال، سنة اثنتين وستين وثلثمائة منع المعز لدين الله من النداء بزيادة النيل، وأن لا يكتب بذلك إلا إليه، وإلى القائد جوهر، فلما تم أباح النداء، يعني لما تم ست عشرة ذراعا، وكسر الخليج فتأمل ما أبدع هذه السياسة، فإن الناس دائما إذا توقف النيل في أيام زيادته، أو زاد قليلا يقلقون، ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل، فيقبضون أيديهم على الغلال، ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر، ويجتهد من عنده مال في خزن الغلة، إما لطلب السعر، أو لطلب ادخار قوت عياله، فيحدث بهذا الغلاء. فإن زاد الماء انحل السعر وإلا كان الجدب والقحط ففي كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة، وأجل عائدة.

وقال المسبحي في تاريخ مصر : وخرج أمر صاحب القصر إلى ابن حيران بتحرير ما يستفتح به القياسون كلامهم إذا نادوا على النيل، فقال: نعم لا تحصى من خزائن الله لا تفنى زاد الله في النيل المبارك كذا، ومن عادة نيل مصر إذا كان عند ابتداء زيادته اخضر ماؤه، فتقول عامة أهل مصر: قد توحم النيل، ويرون أن الشرب منه حينئذ مضر. ويقال في سبب اخضراره: إن الوحوش سيما الفيلة ترد البطيحات التي في أعالي النيل، وتستنقع فيها مع كثرة عددها لشدة الحر هناك، فيتغير ماء تلك البطيحات، فإذا وقع المطر في الجهة الجنوبية في أوقاته عندهم تكاثرت السيول حينئذ في البطيحات، فخرج ما كان فيها من الماء الذي قد تغير، ومر إلى مصر، وجاء عقيبه الماء الجديد، وهو الزيادة بمصر وحينئذ يكون الماء محمرا لما يخالطه من الطين الذي تأتي به السيول فإذا تناهت زيادته غشي أرض مصر، فتصير القرى التي في الأقاليم فوق التلال والروابي، وقد أحاط بها الماء، فلا يتوصل إليها إلا في المراكب، أو من فوق الجسور الممتدة التي يصرف عليها إذا عملت كما ينبغي ربع الخراج ليحفظ عند ذلك ماء النيل حتى ينتهي ري كل مكان إلى الحد المحتاج إليه، فإذا تكامل ري ناحية من النواحي قطع أهلها الجسور المحيطة بها من أمكنة معروفة عند خولة البلاد، ومشايخها في أوقات محدودة لا تتقدم، ولا تتأخر عن أوقاتها المعتادة على حسب ما يشهد به قوانين كل ناحية من النواحي، فتروى كل جهة مما يليها مع ما يجتمع فيها من الماء المختص، ولولا إتقان ما هنالك من الجسور، وحفر الترع والخلجان لقل الانتفاع بماء النيل كما قد جرى

في زماننا هذا. وقد حكى أنه كان يرصد لعمارة جسور أراضي مصر في كل سنة ثلث الخراج لعنايتهم في القديم بها من أجل أنه يترتب على عملها ري البلاد الذي به مصالح العباد، وستقف إن شاء الله تعالى عن قريب على ما كان من أعمال القدماء، ومن بعدهم في ذلك، وكان للمقياس في الدولة الفاطمية رسوم لكنس مجاري الماء خمسون دينارا في كل سنة تطلق لابن أبي الرداد،

ذكر الجسر الذي كان يعبر عليه في النيل

اعلم أنه كان في النيل جسر من سفن فيما بين الفسطاط والجزيرة التي تعرف اليوم: بالروضة، وكان فيما بين الجزيرة، والجيزة أيضا جسر في كل جسر منهما ثلاثون سفينة.

ذكر ما قيل في ماء النيل من مدح وذم." (١)

"**قد جرت العادة أن** السلطان يكتب خطه على كل ما يأمر به، فأما مناشير الأمراء والجند وكل من له إقطاع فإنه يكتب عليه علامته، وكتبها الملك الناصر محمد بن قلاون، الله أملي، وعمل ذلك الملوك بعده إلى اليوم، وأما تقاليد النواب، وتواقيع أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب، وبقية أرباب الوظائف، وتواقيع أرباب الرواتب والإطلاقات، فإنه يكتب عليها اسمه واسم أبيه إن كان أبوه ملكا، فيكتب مثلا محمد بن قلاون، أو شعبان بن حسين، أو فرج بن برقوق، وإن لم يكن أبوه ممن تسلطن كبرقوق أو شيخ، فإنه يكتب اسمه فقط، ومثاله برقوق، أو شيخ. وأما كتب البريد وخلاص الحقوق والظلامات، فإنه يكتب أيضا عليها اسمه، وربما كرم المكتوب إليه فكتب إليه أخوه فلان، أو والده فلان، وأخوه يكتب للأكابر من أرباب الرتب والذي يعلم عليه السلطان، أما إقطاع فالرسم فيه أن يقال خرج الأمر الشريف، وأما وظائف ورواتب و إطلاقات، فالرسم في ذلك أن يقال رسم بالأمر الشريف، وأعلى ما يعلم ما افتتح بخطبة أولها الحمد لله، ثم ما افتتح بخطبة أولها أما بعد حمد الله، حتى يأتي على خرج الأمر في الناشير، أو رسم بالأمر، وتمتاز المناشير المفتتح فيها بالحمد لله. أول الخطبة، أن تطغر بالسواد وتتضمن اسم السلطان وألقابه، وقد بطلت الطغرافي وقتنا هذا، وكانت العادة أن يطالع نواب المملكة السلطان بما يتجدد عندهم تارة على أيدي البريدية، وتارة على أجنحة الحمام، فتعود إليهم الأجوبة السلطانية وعليها العلامة، فإذا ورد البريدي أحضره أمير جاندار، وهو من أمراء الألوف، والدوادار وكاتب السر بين يدي السلطان، فيقبل البريدي الأرض، ويأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدي، ثم يناول للسلطان فيفتحه، ويجلس حينئذ كاتب السر ويقرأ على السلطان سرا، فإن كان أحد من الأمراء حاضرا تنحى حتى يفرغ من القراءة، ويأمر

---

(١) المواعظ والاعتبار، ٧٧/١

السلطان فيه بأمر، وإن كان الخبر على أجنحة الحمام، فإنه يكتب في ورق صغير خفيف ويحمل على الحمام الأزرق، وكان لحمام الرسائل مراكز كما كان للبريد مراكز، وان بين كل مركزين من البريد أميال، وفي كل مركز عدة خيول كما بيناه في ذكر الطريق فيما بين مصر والشام، وكانت مراكز الحمام كل مركز منها ثلاثة مراكز من مراكز البريد، فلا يتعدة الحمام ذلك المركز، وينقل عند نزوله المركز على ما على جناحه إلى طائر حتى يسقط بقلعة الجبل، فيحضره البراج، ويقرأ كاتب السر البطاقة، وكل هذا مما يعلم عليه بالقصر، ومما كان يحضر إلى القصر بالقلعة في كل يوم ورقة الصباح، يرفعها وإلى القاهرة ووالي مصر، وتشتمل على إنهاء ما تجدد في كل يوم وليلة بحارات البلدين وأخطاطهما ن حريق أو قتل قتيل أو سرقة سارق ونحو ذلك، ليأمر السلطان فيه بأمره.

الأشرفية: هذا القصر المعروف بالأشرفية أنشأ الملك الأشرف خليل بن قلاون في سنة اثنتين وتسعين وستمائة، ولما فرغ صنع به مهما عظيما لم يعمل مثله في الدولة التركية، وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاون، وابن أخيه الأمير موسى بن الصاحل علي بن قلاون، وجمع سائر أرباب الملاهي، وجميع الأمراء، ووقف الخزاندارية بأكياس الذهب، فلما قام الأمراء من الخاصكية للرقص، نثر الخزاندارية على كل من قام للرقص حتى فرغ الختان، فأنعم على كل أمير من الأمراء بفرس كامل القماش، وألبس خلعة عظيمة، وأنعم على عدة منهم كل أمير من الأمراء بفرس كامل القماش، وألبس خلعة عظيمة، وأنعم على عدة منهم كل واحد بألف دينار وفرس، وأنعم على ثلاثين من الأمراء الخاصكية لكل واحد مبلغ خمسة آلاف دينار، وأنعم على البلبيل المغني بألف دينار، وكان الذي عمل في هذا المهم من الغنم ثلاثة آلاف رأس، ومن البقر ستمائة رأس، ومن الخيل خمسمائة أكديس، ومن السكر برسم المشروب ألف قنطار وثمانمائة قنطار، وبرسم الحلوى مائة وستون قنطارا، وبلغت النفقة على هذا المهم في عمل السماط والمشروب والأقبية والطراز والسروج وثياب النساء مبلغ ثلاثمائة ألف دينار عينا.." (١)

"١- علي سرور الزّنكلوني، من علماء مصر، وسكّانها، ومن الحريصين على السنة، ونشرها، والإفتاء بها(١).

٢- محمود خطاب السبكي، مؤسس جمعية أنصار السنة المحمدية(٢).

٣- عبد الله الجزار، قاضي عكا ومفتيها، شيخ خُزَيران(٣).

موضوع الكتاب والباعث على تأليفه

---

(١) المواعظ والاعتبار، ٤٠٨/٢

كتابنا هذا هو رد على كتاب الشيخ محمد صبحي خُزيران -قاضي عكا- المسمى: «فصل الخطاب في الرد على الزنكلوني والقسام والقصَّاب»، ألفه انتصاراً لأُستاذه الشيخ عبد الله الجزار، إذ قد أفتى أحد المؤلِّفَيْن(٤)

---

(١) لا تلتفت لما ذكره أحمد الغماري في رسائله «دَرُّ الغمام الرقيق» (ص ١٨٧) عنه! فهو من كلام الأقران، الذي يطوى ولا يروى.

(٢) ستأتي ترجمته (ص ٢٤).

(٣) ستأتي ترجمته (ص ١٤٦، ١٤٩).

(٤) لم يفصحا عن اسمه، وكان المجيب أحدهما، والموجود في «النقد والبيان» (ص٤) لم ينص على واحدٍ منهما، والظاهر أن المراد القسام؛ لأنه منذ تولّى أمرَ تعليم الناس في المدارس والمساجد، أخذ على نفسه تقويم ما اعوجَّ من أمر المسلمين، وأن يُرجعهم إلى الإسلام المُصَفَّى الخالي من الزيادات والبدع؛ لأنّ انكباب الناس على هذه البدع أدّى إلى انشغالهم عن الأصول الإسلامية، وأدّى إلى فساد حال المسلمين وضعفهم، وكان عزُّ الدين القسَّام، منذ هاجر إلى فلسطين، قد نوى إعداد الأمة لمرحلة جهادٍ قادمة، منطلقاً من الإسلام، ورأى أن يبدأ أولاً بمرحلة الدعوة والتعليم، لتربية جيل مؤمن بربّه، متمسك بسُنَّة النبي- صلى الله عليه وسلم - ، فأخذ يحارب البدع والخرافات، ويستلُّها واحدةً واحدةً... ويدعو الناسَ إلى نبذ البدعة، إذا عرف وجودها،ويجيب عن أسئلة الناس بما يوافق القرآنَ والسُّنَّةَ، وما اتفق عليه أعلامُ العلماء السابقون، ومن هنا بدأ الصراع بين أنصار البدع والتقاليد الدينية، وبين المذهب السلفي الذي اتّبعه القسَّام.

وأخذ صوتُ الخلاف يعلو في قضية تشييع الجنائز، **فقد جرت العادة أن** يرفعَ الناسُ أصواتهم بالتهليل والتكبير أثناء السير بالجنازة، وربما وُجِدَ أناسٌ مستأجَرون يقومون بهذه الوظيفة، إذا كان الميّت من وجهاء الناس وأغنيائهم.

وكان القسَّام يُفتي بأنَّ رفع الصوت بالتكبير أثناء السير في الجنازة مكروهٌ كراهةً تحريميةً، وصار له تلاميذ كثيرون، يأخذون برأيه، وينفِّذون موكب الجنازة كما جاء في السُّنَّة النبوية.

وحدثت يوماً مُشادَّة بين أحد أنصار القسَّام وبين آخرين أثناء السير بجنازة أحد الموتى، وكتبت جريدة (اليرموك) آنذاك في افتتاحية (العدد ٦٤) الصادر يوم الخميس في ٢١/شوال/١٣٤٣هـ - ١٤/أيار/١٩٢٥م، تتهم الشيخ القسام بأنه السبب فيما حدث من خلاف في المدينة، وانقسام الناس،

وكتب رئيس تحرير الجريدة (كمال عباس) مقالاً بعنوان: (يتمسكون بالقشور(أ)، ويتركون اللباب، فتنة نائمة وواجب العقلاء) هاجم فيه القسَّام، واتّهمه بالسعي وراء المناصب والشهرة، وأنه أفتى بحرمة رَفْع الصوت في الجنازة، ليظهرَ أمام الملأ بمظهر العلماء، الذين يحاربون البدع. وهذه صورة ما كتب موقعاً بـ(ابن عباس):

« في حيفا اليوم حركة غير مباركة، بل فتنة نائمة يوقظها جماعة ممن يتمسكون بالقشور دون اللباب، ويتظاهرون بالإصلاح الديني والاجتماعي، ليتبوأوا مركزاً علمياً اجتماعياً ليسوا من أهله، ولو تدبروا لتحققوا أن المراكز العالية في الهيئة الاجتماعية لا تنال إلا بالعلم الصحيح، والإخلاص الفياض، والعقل الراجح.

تلك الفتنة هي التصدي لتحليل وتحريم بعض المندوب والمستحب والمباح في الشرع الإسلامي؛ كزيارة أضرحة الأنبياء والأولياء، والتهليل والتكبير في تشييع الجنائز، وهلم جراً، مما شطر الناس شطرين، وجعلهم حزبين، يتربص كل فريق بأخيه الدوائر، ونشأ عن ذلك قيل وقال، أدى إلى المناظرة، فالمشاتمة، فالمضاربة، وخيف على الاتحاد الذي ننشده في هذه الأيام العصيبة، ونحمل بعض أثره من أن تتقطع أوصاله، ونصبح شيعاً مستضعفين، تتناوبنا المصائب من كل جانب، ونحن عن حاضرنا ومستقبلنا لاهون.

لا أحب أن أدخل عباب الموضوع من وجهتي التحريم والإباحة؛ لأن كل مناظر يستند بقوله على رأي إمام أو قطب، وإنما أحب أن ألم بالموضوع من وجهة دينية اجتماعية، لعل البحث يهدينا إلى الحقيقة التي غابت عن المدعين بالإصلاح الديني، فأقول:

لا خلاف في أن الحديث الشريف: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور، ألا=

(أ) انظر عن هذه الكلمة ما سيأتي في التعليق (ص ٢٠٠).

= فزوروها؛ فإنها تذكر بالآخرة» صحيح، ويستنتج من قول صاحب الشريعة السمحاء – صلى الله عليه وسلم – أنه نهاهم عن زيارة القبور بادئ بدء؛ لأن الناس يومئذ كانوا قريبي عهد بالوثنية، ثم لما أنس منهم قوة الإيمان باللّه أمرهم بزيارتها، أما التهليل والتكبير في الجنازة وفي غيرها، فهما من الأمور المباحة إن لم نقل المستحبة، فالعمل بها لا يترتب عليه مضرة، بل يحدث خشوعاً في قلوب المشيعين، كما أن تركه لا يستدعي اللوم.

أما وقد علم هذا؛ فلماذا يتصدى بعض المتعممين –ومن لفَّ حولهم– للناس في عاداتهم التي درجوا عليها، واتبعوا في بعضها السنة السمحاء، ويحدثون شغباً في البلد نحن في غنى عنه ولا طاقة لنا به؟! أَلِيَظهروا أمام الملأ بمظهر العلماء الذين يحاربون البدع، أم ليؤثّروا على البسطاء(أ) بسفسطاتهم ليتبوؤوا مقعداً من

الزعامة الفارغة، أم أن علمهم وإدراكهم أوصلهم إلى هذا الحد؟ إن كان هذا مبلغهم من العلم والإدراك، فليتركوا الحكمة إلى أهلها؛ لئلا يهينوها، وإن كانوا يقصدون محاربة البدع، ففي الهيئة الاجتماعية من الكبائر ما يأثم العالم عن التغاضي عنها، بل هناك من أركان الإسلام الخمسة؛ كالزكاة، التي لا تعرف واحداً في الألف يؤديها حق أداءها، وكفريضة الصلاة والصوم، التي يهملها كثير من المسلمين، فلماذا لا تقوم جماعة تحريم التهليل والتكبير وزيارة القبور بوعظ الناس، وحضهم على أداء الفرائض، بدل نهيهم عن أمر ليس فيه غير التوحيد والعمل لسنة رسول الله، فهل غفلوا عن قوله –تعالى–: ﴿اذكروا الله﴾ إلى آخر الآية، وتصاموا عن الحديث: «كنت نهيتكم»؟ رحماك اللهم بهذه الأمة، التي يتمسك بعض المتعممين فيها بالقشور ويتركون اللباب، تنزه الدين عما به يلصقون.

حسبنا أيها القوم هذا الذهول والتخاذل، فإننا في وقت لا يسع الجدل الفارغ والاختلاف على ما لا يفيد ولا يضر شيئاً.

تتنافس الشعوب الغربية بالعلم والاختراع وبالصناعة، وتنهمك حكوماتها بإعداد القوة لاستعباد الشعوب الضعيفة، واكتساح بلادها، والاستيلاء على مرافقها، ونتلهى بالقشور دون اللباب، فنعرض عن العلم ونهمل استثمار الأرض التي أمرنا النبي الأعظم باستثمارها بقوله: «التمسوا الرزق من خبايا الأرض»(ب)، ونستخف بشأن الصناعة، ولكن لا تفوتنا المجادلات الفارغة، التي هي مضيعة للوقت مضعفة للأمم. =

(أ) انظر حوله ما سيأتي في التعليق على (ص ٢٦).

(ب) الحديث ضعيف. انظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٤٨٩)، «ضعيف الجامع» (١١٥٠)، «كنز العمال» (٤/٢١ رقم ٩٣٠٢، ٩٣٠٣).

=اتركوكم أيها القوم من الأخذ والرد في مسألة زيارة القبور، فإن الأحياء أولى بالعناية والاهتمام، واتركوا الموحدين والمكبرين في التشييع يوحدون ويكبرون، فإن ذلك لا يفيد الأمة شيئاً، والتفتوا إلى جمع شملها وإعداد القوة لرد غارات الطامعين، فذلك خير وأبقى».

فكتب الشيخ القسَّام مقالاً بعنوان: (بيان حقيقة)، وأرسله إلى الجريدة فلم تنشره، فأرسله إلى جريدة (الكرمل)(أ) في حيفا فنشرتْه في (ص ٢) بتاريخ ١٩٢٥/٦/٦م، وهذه صورة ما في المقال:

« بعثت بهذه الرسالة إلى جريدة «اليرموك»، فلم تشأ أن تنشرها، ولذا أرجو من وطنية صاحب «الكرمل» الغيور أن يتفضل بنشرها في جريدته.

بعد التحية، فإني أريد كشف القناع عن حقيقة المسألة التي جعلتموها موضوع افتتاحية العدد «٦٤» من جريدتكم الصادرة في ٢١/شوال/١٣٤٣هـ، فالرجاء نشر مقالي هذا على صفحات «اليرموك» في أول عدد ينشر، عملاً بحق الصحافة، وحفظاً لحياتنا الدينية والاجتماعية وتلاعب الأهواء والأعراض، ما كان ينبغي لحضرتكم أن تعتمدوا فيما ذكرتموه في مقالكم على أهواء المرجفين من غير تثبت ولا تروٍّ، فهل يعقل أن مسلماً ينهى الناس عن ذكر اللّه -تعالى- أو تكبيره، أو عن فعل ما أباحه الشرع الشريف من زيارة أضرحة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والأولياء -رضي اللّه عنهم-، وتشييع الجنائز على الوجه المشروع، بل كان يجب عليكم أن تلاحظوا أن من نسب إليهم ذلك القول، لا يخفى عليهم ما حل وحرم وما ينبغي مما يتعلق في الموضوع، وأنه لا يعقل أن يتوسلوا بِمثل تلك الأمور، ليتبوؤوا مركز الزعامة الفارغة، خصوصاً إذا كان الحال يؤدي إلى إيقاظ فتنة نائمة، ولولا تسرعكم في تصديق من أنهوا إليكم المسألة على خلاف وجهها، لما طوحتم بقلمكم وجريدتكم في تلك المهاوي السحيقة، من التعريض بأعراض المخلصين الصادقين.

أما حكمكم في المسائل الدينية وتقدير الرجال، فكان غيركم أولى به؛ لأنّ قلمكم لم يأخذ بقسط من العلوم الشرعية، يدرك ذلك من مقالكم من شمّ رائحةَ العلم، وكان الأجدر بكم أن تدعوا الكتابة في مثل هذه المواضيع لأربابها، وتقتصروا في الكتابة على ما خصكم اللّه به، إن من تدعونهم إلى وعظ الناس وحضهم على أداء الفرائض... إلخ. لم يألوا جهداً في تنبيه الأمة حيثما حلوا وارتحلوا إلى التمسك بأركان الدين، وبيان مزاياه=

(أ) كان صاحبها نجيب نصار، وهو أحد المعادين -آنذاك- لليهود.

= النافعة، وأنها من الهمم إلى توخي ربط عرى التآخي والاعتناء بالعلوم على اختلاف أنواعها والصنائع المفيدة واستثمار خبايا الأرض، وأكبر دليل على هذه: اشتغالهم بما يعود على الأمة بالنفع العظيم، مع إعراض عن المناصب والرتب التي يعيش أربابها على أكتاف الأمة، ويودون بثروتها من غير فائدة تعود منهم على البلاد، ولو أرادوا كما ذكرتم أن يتبوؤوا مركزاً علمياً اجتماعياً ليسوا من أهله، لجاروا العوامَّ وسايروهم كما فعل غيرهم.

أما مسألة تشييع الجنائز بالتهليل، والدعاء برفع الصوت والضجة المعلومة، وزيارة ضرائح الأنبياء والأولياء ومقاماتهم بالكيفية المعروفة، من التمسح والتملس بالقبور وارتكاب الآثام، واختلاط الرجال بالنساء على

وجه التهتك والإسراف في الأموال في غير طرقها الحيوية والدينية، والاشتغال بذلك عن الضروريات، فالحكم فيه يعلمه صبيان المكاتب فضلاً عن العلماء، وهو بدعة منكرة في جميع مذاهب المسلمين، لم يفعله رسول اللّه – صلى الله عليه وسلم – ولا الخلفاء الراشدون، ولا الصحابة والتابعون، ولا الأئمة المجتهدون –رضوان اللّه عليهم أجمعين–، بل كانت جنائزهم على التزام الأدب والسكون والخشوع، حتى إن صاحب المصيبة كان لا يعرف من بينهم لكثرة حزن الجميع، وما أخذهم من القلق والانزعاج بسبب الفكرة فيما هم إليه صائرون وعليه قادمون، ولم يعهد الاستلام في الإسلام إلا للحجر الأسود والركن اليماني خاصة.

ويكفينا دليلاً على ذلك: قوله– صلى الله عليه وسلم –: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، واجعلوا زيارتكم لها صلاة عليهم واستغفاراً لهم»، وقول ابن عمر وابن مسعود –رضي اللّه عنهما– لمن قال في الجنازة: واستغفروا لأخيكم –يعني: الميت–: «لا غفر اللّه لك»! ولا يقول بإباحة ذلك إلا مبتدع في الدين، أما بوادر الفتنة التي ذكرتموها في الصحيفة الثانية من العدد نفسه، فالحق فيها أن الانتفاعيين من كسالى الأمة، الذين اتخذوا ذكر اللّه –تعالى– وقراءة القرآن الكريم على القبور تجارة لهم، هم الذين كانوا من حين إلى آخر يرجفون في المدينة، ويشيعون بين الطبقات الأكاذيب الملفقة ضد رجال الإصلاح، وساعدهم على ذلك بعض أرباب الأهواء، معتمدين في أقوالهم على من لا يتقي اللّه في دينه وسنة نبيه، فحصل بسبب ذلك تأثر في نفوس بعض المتهوسين، أدى بهم إلى الشغب الذي آسف الجميع، وكنت – كما يعلم اللّه– أشد الناس أسفاً على ما حصل، وبهذا يعلم من هو الذي يسعى لإيقاظ الفتنة النائمة، فلا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم، وأي مناسبة بين حادث فجائي –إن لم يكن أمر قد دبر بليل– وبين منعي من الخطبة والتدريس، اللهم إلا حاجة في= =نفس يعقوب قضاها، ولئن كان الذين هرعوا إلى دار فضيلة مفتي الثغر هم الذين حملوه على منعي من الخطبة والتدريس، فما بال الذين هرولوا وذهبوا إلى داره وطلبوا إليه بإلحاح منع من أجر داره مقراً للتبشير وتنصير المسلمين عن الخطابة والتدريس، لئلا يكون وصمة عار على المسلمين لم يؤبه لكلامهم، على أنه لا يبعد أن يكون هذا الأمر من القشور لا من اللباب، ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إنّ البدع صغيرها وكبيرها، من أعظم الأضرار على هذه الأمة، وأنى لِمَن لَم يتحلَّ بالسنن ولم يتجنب الرذائل أن يتصف بالفضائل، وكنت أرجو أن تكونوا أول مقاومٍ لمن يخالف السنة ويباين الشرع؛ إذ كنتم من الشبان المتنورين ومن رجال الصحافة، وعليهم وحدهم تثقيف الأمة وتهذيبها، وتسيير خطاها إلى المثل الأعلى الذي نبتغيه، هدانا اللّه جميعاً إلى سواء السبيل».

وقد اتّضح لمن قرأ المقالة يومئذٍ أن الذين أثاروا المشكلة هم بعض المتنفِّعين الذين اتّخذوا ذِكْرَ اللّه – تعالى– وقراءة القرآن على القبور تجارةً لهم... وهم الذين أثاروا الضجة بسبب فتوى يحرِّم فيها القسَّام أخذَ الأجرة على قراءة القرآن عند المقابر، وساعدهم على التحريض: مَنْ أرادوا الحدَّ من نفوذه ومكانته عند الناس، ومَنْعَه من الخطابة والتدريس في جامع الاستقلال.

ويبدو أنَّ قصة الخلاف في (الصياح في التهليل والتكبير... أمام الجنائز) شغلت أهلَ الرأي في المدينة، وانقسمَ الناسُ حولها إلى مؤيِّد ومعارض، وكادَتْ أن تؤدي إلى فتنة، وخاض فيها مَنْ يعرف، ومَنْ لا يعرف، وليس في المدينة عُلَماءُ يَحكُمُون في المسألة، فأراد الحاج عبدالواحد الحسن –نائب رئيس (الجمعية الخيرية) بِحيفا– أن يضع حدّاً للخلاف، وأن يرفعَ الأمر إلى علماء محايدين، من خارج الإقليم، ليدلوا بدلوهم في المسألة، فكتب السؤال التالي: « ما قولُ أهل العلم الحقّ في الصياح في التهليل والتكبير وغيره أمام الجنائز؟ أفتونا أثابكم اللّه».

وقدَّم السؤال إلى الشيخين (القسّام والقصاب) لاتفاقهما في الرأي، فأجابا بأنَّ ذلك مكروهٌ تحريماً، وبدعة قبيحة... مع الأدلة من السُّنَّة الصحيحة... مع الدعوة إلى إزالة هذه البدعة. وأُرْسِلَتْ هذه الفتوى إلى الشيخ عبداللّه الجزّار مُفتي عكّا، وسُئل عن رأيه في ذلك... فنقل عن بعض العلماء أنه لا بأس بفعل ذلك في أيامنا. =

= وأرسل المستفتي –وهو: الحاج عبدالواحد الحسن– صورة الفتويين إلى الشيخ محمود محمد خطّاب السبكي، والشيخ علي سرور الزنكلوني، من كبار علماء الأزهر.

فجاءت فتوى الشيخين موافقةً لما قاله القسَّامُ والقصاب... ونشر الشيخ الزنكلوني فتواه على صفحات جريدة (الشورى) التي كانت تصدر في مصر... وهذا الذي جعل خُزيران يضمُّ الزنكلوني إلى القسَّام والقصاب في عنوان رسالته، التي ألَّفها بعنوان (فصل الخطاب في الردِّ على الزنكلوني والقسَّام والقصاب)؛ انتصاراً لأستاذه عبداللّه الجزار مفتي عكّا.

وقد تناول خزيران في رسالته موضوع (الصياح في التهليل والتكبير أمام الجنائز) وموضوعات أخرى مما نُقل عن القسَّام، وعارض فتوى القسَّام والقصاب، وأتى بالأدلة التي رأى أنها مدعِّمة رأيه، وجمع الزنكلوني مع القسَّام والقصاب في عنوان الرسالة؛ لأنه أيَّد، أو وافق القسامَ على فتواه.

عندئذٍ؛ قام القسَّام، أو القسَّام والقصَّاب بتأليف هذه الرسالة، وفنَّدا فيها أقوال خزيران التي وردت في رسالته.

انظر: «الوعي والثورة، دراسة في حياة وجهاد الشهيد عز الدين القسام» (ص ٦٨-٦٩)، «عز الدين القسام» لشرَّاب (ص ١٧٦-١٧٩)..." (١)

"لأنَّ قول الراوي: خرجتُ معه والناس يصلّون بصلاة قارئهم، ينصُّ أنهم كانوا يصلّون، وليس معهم عمر، وقد أشار العلاّمةُ القسطلاني إلى هذا عند شرح هذه الفقرة من الحديث بقوله: «فيه إشعار بأنّ عمرَ كان لا يواظب على الصلاة معهم، ولعله كان يرى أن فعلها في بيته، ولا سيما في آخر الليل أفضل»(١) (انتهى كلام القسطلاني).

وقال الإمام الغَزَّاليُّ في كتابه «إحياء علوم الدين»(٢): «واختلفوا في أنَّ الجماعة فيها (أي: صلاة التراويح) أفضل أم الانفراد؟ (٣) فقيل: إنَّ الجماعةَ أفضل لفعل عمر -رضي اللّه عنه-، ولأنّ الاجتماع بركة، وله فضيلة، بدليل الفرائض، ولأنه ربما يكسل في الانفراد، وينشط عند مشاهدة الجمع، وقيل: الانفراد أفضل؛ لأنَّ هذه سنة ليست من الشعائر كالعيدين، فإلحاقها بصلاة الضحى، وتحية المسجد أولى، ولم تشرع فيها جماعة، **وقد جرت العادة بأن** يدخل المسجد جمع معاً، ثم لم يصلوا الـتحية بالجماعة، ولقوله s: «فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد، كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت»(٤)

---

(١) «إرشاد الساري» (٣/٤٢٦).

(٢) «الإحياء» (١/٢٠٢).

(٣) بعدها في «الإحياء»: «وقد خرج رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - فيها ليلتين أو ثلاثاً للجماعة، ثم لم يخرج، وقال: «أخاف أن توجب عليكم»، وجمع عمر -رضي اللّه عنه- الناس عليها في الجماعة، حيث أمن من الوجوب بانقطاع الوحي».

(٤) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/٢٠٢): «رواه آدم بن أبي إياس في كتاب «الثواب» من حديث ضمرة بن حبيب مرسلاً. ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف»، فجعله عن ضمرة بن حبيب عن رجل من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - موقوفاً. وفي «سنن أبي داود» بإسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت: «صلاة المرءفي بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا؛ إلا المكتوبة»».

قال أبو عبيدة: أخرج الطبراني في «الكبير» (٨/٥٣ رقم ٧٣٢٢)، وعنه أبو نعيم في «معرفة الصحابة»

---

(١) السلفيون وقضية فلسطين في واقعنا المعاصر، ص/٨٦

(١٤٩٧/٣ رقم ٣٨٠٩) عن صهيب بن النعمان رفعه: «فضل صلاة الرجل في بيته على صلاته حيث يراه الناس، كفضل المكتوبة على النافلة».

ورواه أبو الشيخ في «الثواب»، بلفظ: «صلاة التطوّع حيث لا يراه من الناس أحد،= =مثل خمسة وعشرين صلاة حيث يراه الناس».

قال الذهبي في «التجريد» (٢٦٨/١): «صهيب بن النعمان له حديث، رواه عنه هلال بن يساف في «معجم الطبراني» تفرد به قيس بن الربيع».

وعزاه ابن حجر في «الإصابة» (٤٥٢/٣) للمعمري في «اليوم والليلة»، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٤٧/٢): «وفيه محمد بن مصعب القرقساني، ضعّفه ابن معين وغيره، ووثقه أحمد».

وأما أثر ضمرة؛ فمضطرب، روي على وجوه وألوان، تراه عند الزَّبيدي في «تخريج الإحياء» (٥١١/١ – استخراج الحداد).

وصحح شيخنا الألباني –رحمه اللّه– في «السلسلة الصحيحة» (١٩١٠) حديث أنس رفعه: «صلُّوا في بيوتكم، ولا تتركوا النوافل فيها»، وهو بعمومه يشمل هذه المسألة، فتأمل!." (١)

"نظام الملك والتفكير الاقتصادي : كان لنظام الملك دور هام في إصلاح الأراضي الزراعية، وتنظيم توزيعها، **فقد جرت العادة لدى** الخلفاء والأمراء أن تجني الأموال في البلاد، وتجمع في العاصمة (١)، فلما اتسعت رقعت الدولة السلجوقية في عهد نظام الملك لاحظ أن دخل الدولة من خراج الأراضي الزراعية قليل لحاجتها إلى الإصلاح، فضلا عن عدم اهتمام الولاة بها (٢)، فوجد أن من الأصلح للدولة أن توزع النواحي على شكل أقطاعات على رؤساء الجند، على أن يدفع كل مقطع مبلغا من المال لخزينة الدولة مقابل استثماره للأراضي التي أقعطت له، فكان هذا الأجراء سببا في تنمية الثروة الزراعية إذ أهتم المقطعون بعمارتها مما أدى إلى زيادة انتاجها، وظل هذا النظام قائما حتى زالت الدولة السلجوقية (٣)، ويلاحظ أن نظام الإقطاع في العهد السلجوقي يختلف كثيرا عن الإقطاع في العهد البويهي، لأن الاقطاع في العهد البويهي لم يكن عاما شاملا، ولم يشمل كل العسكريين، وكان الهدف منه تعويض الجند عن أرزاقهم المتأخرة، وليس الإصلاح الزراعي حتى أن بعض القواد البويهيين كانوا يخربون اقطاعتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها باقطاعات أخرى يختارونها من أجل تحسين دخلهم الشخصي لا دخل الدولة (٤) أما في العهد السلجوقي فيتعلق حق المقطع بخراج الأرض لا بالأرض ذاتها وليست له سيطرة على المشتغلين بها، كما

---

(١) السلفيون وقضية فلسطين في واقعنا المعاصر، ص/١٧٤

أنه يخضع لسلطة الحكومة وعليه أن لا يسيء استعمال إقطاعه، كما يجوز نزع الإقطاع من المقطع إذا لم يقم بالالتزامات المفروضة عليه(٥)، وكان الإقطاع في العهد السلجوقي لفترة محددة، لهذا عمل المقطعون جهدهم على تحسين اقطاعاتهم وتنظيمها والاستفادة منها، وتنفيذ جميع الالتزامات المفروضة عليهم كي يكسبوا رضا الحكومة ويستمروا في استثمار

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) أل سلجوق للبنداري ص ٥٥.

(٣) طبقات الشافعية (٣١٧/٤).

(٤) تجارب الأمم (٧٦/٢، ٩٧) مسكويه.

(٥) العراق في العصر السلجوفي، حسين أمين ص ٢٠٧.." (١)

"الخلافة إلى مقر الوزارة والناس بين يديه، ومن دار الخلافة إلى مقر الوزارة والناس بين يديه، ومن بينهم كبار الدولة، وعندما يجلس في دست الوزارة يقرأ كاتب الإنشاء عهد الخليفة له بالوزارة (١).

ويختم الحفل بقراءة ما تيسر من القرآن، وإنشاد ما نظمه الشعراء لهذه المناسبة من مدائح (٢) **وقد جرت العادة أن** الوزير الجديد إذا وصل إلى الديوان، وجلس في دست الوزارة أن يبادر إلى كتابة رسالة للخليفة تتضمن الدعاء والثناء له إشعارا بتسلمه مهام منصبه(٣) وكان الخليفة العباسي إذا ما أراد أن يزيد من تكريم من يختاره للوزارة أو لنيابة الوزارة، أصدر توقيعا موجزا، يثني فيه على الشخص المرشح ويشيد فيه بصفاته الحميدة ليرفع من شأنه أمام الناس، وكانت إجراءات تعيين نائب الوزير لا تختلف كثيرا عما كان يتبع عند تعيين الوزير غير أن الخليفة كان ينيب عنه من يتولى تقليد نائب الوزير وتسليمه العهد ومنحه الخلع (٤).

ثانيا : مراسيم تقليد الوزير السلجوقي :

---

(١) وفيات الأعيان (٢٣٣/٦) .

(٢) وفيات الأعيان (٢٣٣/٦) ذيل طبقات الحنابلة (٢٥٣/١).

---

(١) السلاجقة، ١٩٥/١

(٣) مضمار الحقائق للأيوبي ص ٢٠٥، نظام الوزارة ص ١٢٨.

(٤) رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية ص ٨١.." [(١)]

"الإقطاع (١)، ويعد قدوم السلاجقة علامة مهمة في تاريخ امتلاك الأرض نظريا وعمليا، فلم يصبح السلطان مجرد حاكم للناس بل أصبح يتمتع بحقوق الملكية للأراضي التي يحكمها (٢)، **فقد جرت العادة أن** يقوم السلطان بالصرف على شؤون الدولة من الإيرادات التي ترد من الولايات التابعة لها والخاضعة لسلطانها، وكان على رأس ذلك مصروفات الجيش والإنفاق على شؤونه المختلفة فضلا عن مرتبات الجند، فلما كان عهد السلطان ملكشاه قام وزيره نظام الملك بتعميم نظام الإقطاع في جميع أنحاء الدولة السلجوقية وذلك بتوزيع ولايات الدولة على شكل إقطاعات للأمراء والجند للاستفادة منها عوضا عن إعطائهم المرتبات النقدية (٣)، فكان صاحب الإقطاع يستفيد منه ماديا مقابل تجهيزه لجنده الذين يشارك بهم في الجيش السلجوقي عند الاسنفار للحرب (٤)، ولم يكن هذا التنظيم يتعارض مع الملكية الفردية أو يمسها لأنه كان يتعلق بخراج الأرض دون الأرض نفسها (٥). ويعتبر كثير من المؤرخين هذا الوزير السلجوقي أول من قام بتوزيع الإقطاعات (٦)، وقد عارض بعض المؤرخين ذلك (٧)، ويبدو أنه بالإمكان الإطمئنان إلى الرأي القائل أن الإقطاع العسكري قد وجد قبل السلاجقة وأصبح عاما شاملا منذ مطلع العصر السلجوقي، حيث أعطاه الوزير السلجوقي نظام الملك شكله النهائي وأقامه في مناطق لم يوجد بها من قبل (٨)، مستفيدا من تجارب الدول التي سبقته خاصة الدولة البويهية بدليل إدخاله بعض الإصلاحات بهدف تجنب المساوئ التي أسفر عنها تطبيق هذا النظام في العهد البويهي (٩). فكانت المحصلة النهائية لذلك أن تميز

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩٥.

(٢) النظم الحربية عند السلاجقة ص ٧٩.

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٠.

(٤) النظم الحربية عند السلاجقة ص ٧٩.

(٥) السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٢٠١.

(٦) أخبار الدولة السلجوقية ص ٦٨.

(٧) النظم الحربية عند السلاجقة ص ٨٠.

---

(١) السلاجقة، ٢٨٤/١

(٨) السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٨٣.

(٩) النظم الحربية ص ٨٤.." [(١)]

" صفحة رقم ٢٨٩

وفيه تبكيت عظيم لبني إسرائيل فإنهم من أعظم المقصودين بذلك لكتمانهم ما عندهم .

قال الحرالي : لأن المسمين بالناس من أصاغر سن القلوب لما ذكر من نوسهم وأكثر ما يخص به كما تقدم الملوك ورؤساء القبائل وأتباعهم الذين زين لهم حب الشهوات - انتهى .

) في الكتاب) أي الجامع لكل خير قال الحرالي : فما بينه الله سبحانه وتعالى في الكتاب لا يحل كتمه ، لما ذكر من أن الكتاب هو ما احتوى على الأحكام والحدود بخلاف ما يختص بالفرقان أو يعلو إلى رتبة القرآن انتهى .

ولما كان المضارع دالا على التجديد المستمر وكان الإصرار المتصل بالموت دالا على سوء الجبلة أسقط فاء السبب إشارة إلى استحقاقهم للخزي في نفس الأمر من غير نظر إلى سبب فقال : (أولئك) أي البعداء البغضاء) يلعنهم الله) أي يطردهم الملك الأعظم طرد خزب وذل) ويلعنهم اللاعنون) أي كل من يصح منه لعن ؛ أي هم متهيؤن لذلك ثم يقع لهم ذلك بالفعل عند كشف الغطاء ، واللعن إسقاط الشيء إلى أردى محاله حتى يكون في الرتبة لمنزلة الفعل من العامة - قاله الحرالي : وأخص من ذلك وأسهل تناولا أن يقال : لما كان أشق الصبر ما على فقد المحبوب من الألف والأمن والسعة وكان العلم واقعا بأن عداوة الكفار لهم ستؤول إلى ابتلائهم بذلك اتبع آية الصبر بقوله : (ولا تقولوا (الآيتين فكأنه قيل : ولا تقولوا كذا فليكتبن عليكم الجهاد عموما) ولنبلونكم (فيه) بشيء من الخوف (الآية لأن الصفا والمروة من شعائر الله ووصولكم إليهما ممنوع بالكفار فلا بد في الفتح من قتالهم **وقد جرت العادة في** القتال بمثل ذلك البلاء .

البقرة : (١٦٠ - ١٦٤) إلا الذين تابوا. .. . . .

) إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ومآ أنزل الله من السمآء من مآء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها

---

(١) السلاجقة، ٣٥٤/١

من كل دآبة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السمآء والأرض لآيات لقوم يعقلون (( )
ولما تم أمر القبلة وما استتبعه وختم بشريعة الحج المكتوبة على الناس عامة الأمر لهم بها باني البيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن أمر الله سبحانه وتعالى بقوله إذ قام المقام : يا ايها الناس كتب عليكم الحج فحجوا ، فأجابه من علم الله سبحانه وتعالى أنه." (١)

" صفحة رقم ٣٦٩

يكون لم يسمع قط بدين ولا دعوة نبي ولا عرف نبي أن في العالم من يثبت إلها – وما نرى أن ذلك يكون – فإن كان فأمره على الاختلاف – يعني عند من يوجب الإيمان بمجرد العقل ومن لا يوجبه إلا بانضمام النقل .

وما قاله الحليمي نقل نحوه عن الإمام الشافعي نفسه رضي الله عنه ؛ قال الزركشي في آخر باب الديات من شرحه على المنهاج : وقد أشار الشافعي إلى عسر قصور – أي عدم بلوغ – الدعوة حيث قال : وما أظن أحدا إلا بغته الدعوة إلا أن يكون قوم من وراء النهر بكوننا ، وقال الدميري : وقال الشافعي : ولم يبق من لم تبلغه الدعوة .

ولما أشار إلى عذاب المخالفين ، قرر أسبابه وعرف أنها بقدره ، وأن قدره لا يمنع حقوق العذاب ، لبناء الأمر على ما يتعارفه ذوو العقول بينهم فقال تعالى : (وإذا) أي فنبعث الرسل بأوامرنا ونواهينا ، وإذا أردنا أن نحيي قرية الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة ، ألقينا في قلوب أهلها أمتثال أوامرنا والتقيد باتباع رسلنا ، وإذا) أردنا (وإرادتنا لا تكون إلا عظيمة جدا) أن نهلك) أي بعظمتنا) قرية (في الزمن المستقبل) أمرنا) أي بما لنا من العظمة التي لا يقدر أحد على مخالفتها) مترفيها (الذين لهم الأمر والنهي بالفسق ، أي استدرجناهم بإدرار النعم ودفع النقم على ما يعلمون من المعاصي ، الذي كان – بكونه سببا لبطرهم ومخالفتهم – كالأمر بالفسق) ففسقوا فيها (بعد ما أزال الرسول معاذيرهم بتبليغ الرسالة كما قال تعالى

٧٧ ( ) فلما نسوا ما ذكروا به ( ) ٧

– أي على ألسنة الرسل –

٧٧ ( ) فتحنا عليهما أبواب كل شيء ( ) ٧

[الأنعام : ٤٤] الآية

٧٧ ( ) وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها ليمكروا فيها ( ) ٧

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٨٩/١

[الأنعام : ١٢٣] وخص المترفين لأن غيرهم لهم تبع ، ولأنهم أحق الناس بالشكر وأولى بالانتقام عند الكفر ، ويجوز أن يكون : أمرناهم بأوامرنا ففسقوا فيها ، أي الأوامر بالطاعات التي يعلم قطعا أن أوامرنا تكون بها ولا تكون بغيرها ، لأنا لا نأمر بالفحشاء **وقد جرت العادة بأن** المترف عسر الانقياد ، لا تكاد تسمح نفسه بأن يصير تابعا بعدما كان متبوعا ، فعصوا فتبعهم غيرهم لأن الأصاغر تبع للأكابر فأطبقوا على المعصية فأهلكناهم ، وقرأ يعقوب : آمرنا – بمد الهمزة بمعنى كثرنا ، من آمرت الشيء وأمرته فأمر – إذا كثرته وفي الحديث (خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة) أي كثيرة النتاج ؛ وروى البخاري في التفسير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كنا نقول للحي إذا كثروا في الجاهلية : آمر بنو فلان .

والكثرة راجعة إلى." (١)

" صفحة رقم ٨

وإن عظم) ولى) أي بعد السماع ، مطلق التولي سواء كان على حالة المجانية أو مدبرا) مستكبرا) أي حال كونه طالبا موجدا له بالإعراض عن الطاعة تصديقا لقولنا آخر تلك

٧٧ ( ) ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ( ) ٧

[الروم : ٥٨] .

ولما كان السامع لآياته سبحانه جديرا بأن تكسبه رقة وتواضعا ، قال تعالى دالا على أن هذا الشقي كان حاله عند سماعه وبعده كما كان قبل : (كأن) أي كأنه ، أي مشبها حالة بعد السماع حاله حين) لم يسمعها (فدل ذلك على أنه لم يزل على حالة الكبر لآنه شبه حاله مع السماع بحاله مع عدم السماع ، وقد بين أن حاله مع السماع الاستكبار فكان حاله قبل السماع كذلك .

ولما كان من لم يسمع الشيء قد يكون قابلا للسمع ، فإذا كلم من **قد جرت العادة بأن** يسمع منه سمع ، بين أن حال هذا كما كان مساويا لما قبل التلاوة فهو مساو لما بعدها ، لأن س‍معه مشابه لمن به صم ، فالمضارع في (يتلى) مفهم لأن الحال في الاستقبال كهي في الحال فقال تعالى : (كأن في أذنيه وقرا) أي صمما يستوي معه تكليم غيره له وسكوته .

ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل نخوته وكبره وعظمته ، وكان استمرار الألم أعظم كاسر لذوي الشمم ، وكان من طبع الإنسان الاهتزاز لوعد الإحسان كائنا من كان نوه اهتزاز قال : (فبشره (فلما كان جديرا بأن يقبل – لا يولي لظنه البشري – على مرة حتى يظن أو يكاد يقطع بأن المعاصي سبب لذلك وأنه –

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٦٩/٤

لما كان عند الله من عظيم المنزلة – لا يكره منه عمل من الأعمال ، قرعة بقوله : (بعذاب) أي عقاب مستمر) أليم (.

ولما كانت معرفة ما لأحد الجزءين باعثة على السؤال عما للحزب الآخر ، وكانت إجابة السؤال عن ذلك من أتم الحكمة ، استأنف تعالى قوله مؤكدا لأجل إنكار الكفرة : (إن الذين آمنوا (أو اوجدوا الإيمان) وعملوا) أي تصديقا له) الصالحات (وضعا للشيء في محله عملا بالحكمة) لهم جنات) أي بساتين) النعيم (فأفاد سبحانه بإضافتها إليه أنه لا كدر فيها أصلا ولا شيء غير النعيم .

ولما كان ذلك قد لا يكون دائما .

وكان لا سرور بشيء منقطع قال : (خالدين فيها) أي دائما .

ولما كانت الثقة بالوعد على قدر الثقة بالواعد ، وكان إنجاز الوعد من الحكمة ، قال مؤكدا لمضمون الوعد بالجنات : (وعد الله (الذي لا شيء أجل منه ؛ فلا وعد." (١)

"يعني قول " نعم " فجعل الوعد هو الفعل نفسه لصحته وصدقه، وقد مثل البحتري أيضاً الموعد وكيف تحول عطاء تمثيلا آخر حسناً، فقال:

وشكرت منك مواهباً مشكورةً ... لو سرن في فلكٍ لكن نجوماً

ومواعداً لو كن شيئاً ظاهراً ... تفضى إليه العين كن غيوماً

وذلك لأن الغيم يصير مطرا، كما أن الموعد يصير عطاء، وأبو تمام – فيما يذهب إليه – غالط؛ لأنه وضع الاستعارة في غير موضعها.

٣٠ – ومن خطائه قوله:

فلو ذهبت سنات الدهر عنه ... وألقى عن مناكبه الدثار

لعدل قسمة الأرزاق فينا ... ولكن دهرنا هذا حمار

قوله " وألقى عن مناكبه الدثار " لفظ ردئ، وليس من المعنى الذي قصده في شيء، وصدر البيت لائق بالمعنى؛ فلو كان أتبعه بما يكون مثله في معناه، بأن يقول: فلو ذهبت سنات الدهر عنه واستيقظ من رقدته أو انتبه من نومته أو انكشف الغطاء عن وجهه؛ لكان المعنى يمضي مستقيما؛ لأن من كان في سنةٍ أو نوم أو مغطى على وجهه أو عينيه فإنه لا يبصر الرشد، ولا يكاد يهتدى لصواب، وإنما هذه كلها استعارات، والمراد بها هداية القلب وإبصاره وفهمه، **وقد جرت العادة باستعارتها** في هذا المعنى، فأما دثار المناكب

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٨

فليس من هذا الباب في شيء؛ إذ قد يبصر الإنسان رشده ويهتدي لصواب أمره وعلى مناكبه دثارٌ وعلى ظهره أيضاً حمل، ولا يكون ذلك مع النوم والرقاد والغطاء على العين؛ لأنه إنما يراد نوم القلب والتغطية عليه؛ لأن الإنسان إنما يقال له: " قد عمى قلبك " و " قد عميت عن الصواب عينك " و " قد غطى على فهمك " ولا يقال: " قد غطيت بالدثار عن الصواب مناكبك، ولا ظهرك " ، ولفظة الدثار أيضاً إنما تستعمل لمنع الهواء والبرد، لا لمنع الفهم والرشد.

٣١ - ومن خطائه قوله:

وأرى الأمور المشكلات تمزقت ... ظلماتها عن رأيك المتوقد

عن مثل نصل السيف، إلا أنه ... مذ سل أول سلةٍ لم يغمد

فبسطت أزهرها بوجهٍ أزهرٍ ... وقبضت أربدها بوجهٍ أربد

فقال " الأمور المشكلات " وجعل لها ظلمات، فكيف يقول: فبسطت أزهرها، والزهر هي النيرات، والمشكلات لا يكون شيء منها نيراً؟ وكأنه يريد أن الأمور المشكلة منها جيد قد أشكل الطريق إليه، ومنها ردئ قد جهلت أيضاً حاله؛ فهي كلها مظلمة، فيمزق ظلماتها برأيه، ويكشف عن الجيد منها ويبسطه: أي ستعمله، ويكشف عن رديئها ويقبضه: أي يكفه ويطرحه، ولكن ما كان ينبغي له أن يقول " بوجه أزهر " و " بوجه أربد " ؛ لأنه لا صنع ههنا للوجه ولا تأثير؛ لأن الصنع إنما هو للرأي وللعقل؛ فإذا رأى ذو الرأي أمراً استبان منه الأشياء المظلمة، وانفتحت المغلقة، أو رأى أن يغلق أمراً مفتوحاً إذا كان الصواب موجباً ذاك عنده؛ فالرأي على الأحوال كلها أزهر مسفر، والوجه على الأحوال كلها أبيض، وليس يريد أبيض في لونه.

والعاجز إذا ورد عليه الأمر يبهظه تبينت الكآبة في وجهه؛ ولله در منصور النمري حيث يقول:

ترى ساكن الأوصال باسط وجهه ... يريك الهوينا، والأمور تطير

فقال " ساكن الأوصال باسط وجهه " فدل على قلة اكتراثه بالأمور التي ترد عليه، وقول أبي تمام " بوجهٍ أربد " لا معنى له؛ لأنه من صفات الغضبان أو المكتئب من أمر ورد عليه، وو عندي في ذلك غالط، وفي ذلك مسيء.

٣٢ - ومن خطائه قوله يذكر سير الإبل:

كالأرحبى المذكى سيره المرطى ... والوخد والملع والتقريب والخبب

فالأرحبي من الإبل: منسوبٌ إلى أرحب، حي من همدان تنسب إليهم النجائب، والمذكى: الذي قد انتهى

في سنه وقوته، والمرطى: من عدو الخيل فوق التقريب ودون الإهذاب، والوخد: الاهتزاز في السير مثل وخد النعام، والملع: من سير الإبل السريع، والتقريب: من عدو الخيل معروفٌ، والخبب: دونه، وليس التقريب من عدو الإبل، وهو في هذا الوصف مخطئ، وقد يكون التقريب لأجناسٍ من الحيوان، ولا يكون للإبل، وإنا ما رأينا بعيراً قط يقرب تقريب الفرس، والمرطى أيضاً: من عدو الخيل، ولم أره في اوصاف الإبل ولا سيرها.

٣٣ – ومن خطائه قوله:

ومشهدٍ بين حكم الذل منقطعٌ ... صاليه، أو بحبال الموت متصل

جليت والموت مبدٍ حر صفحته ... وقد تفرعن في أفعاله الأجل." (١)

"فبعثتُ جِنّياً لنا

يأتي بِرَجْعِ حديثِها

فمشى ولمْ يخشَ الأنيـ

ـس فزارَها وخَلا بِها

فَتَنازعَا سرَّ الحديـ

ـثِ فأنكرتْ فَنَزا بِها

عضبُ اللسان متقنٌ(١)

فَطِنٌ لما يُعنى بِها

صَنَعٌ بِلينِ حديثِها

فَدَنَتْ عرى أسبابِها(٢)

وفي مجال الاعتذار قال النابغة الذبياني:

وَعيدُ أبي قابوسَ في غيرِ كُنْهِهِ

أتاني ودوني راكِسٌ فالضَّواجِعُ

فَبِتُّ كأنّي ساورتني ضَئيلةٌ

---

(١) الموازنة، ص/٥٥

مِنَ الرُّقْشِ في أنيابِها السّمُّ ناقِعُ

يُسَهَّدُ منْ ليلِ التَّمامِ سليمُها

لحلْي النساءِ في يديهِ قعَاقِعُ

تَناذَرَها الرّاقونَ مِنْ سوءِ سَمْعِها

تُطَلِّقُهُ طوراً وطوراً تُراجِعُ(٣)

اتخذ الشاعر من الوعيد مشروع قلق وخوف، حتى اتخذت الحواس مجالها ليوضح لنا مدى قدرته على إسباغ ما تؤدّيه من صور في تقريب صورة خوفه وقلقه من خلال الأداء الفني.

وفي استقراء دقيق لأبيات النابغة نجد تفصيلات الصورة الكلية ﺭخوفه من طبيعة الطرح الواقعي وما تتطلبه من تأثيرات الحواس المتعددة لاستكمال تفصيلات الحالة القلقة الحرجة.

كأن الشاعر من جرّاء الوعيد قد وثبت عليه حيّة (لمسية) من الرقش لونها أسود وأبيض (حاسة البصر)، في أنيابها السم ثابت (ذوقية).

وينتقل الشاعر إلى البيت الآخر الذي هو نتيجة للبيت الأول، حيث ينقلنا إلى صورة لمسية (السهد) إذْ لم يلامس النومُ جَفنيه، فاللّديغ لا يمكن له أن ينام، **وقد جرت العادة أنْ** توضع في يديه أسْوِرَة، إذا ما حرّكها أحدثتْ حركة وصوتاً. (صورة سمعية) كي لا ينام ويدبّ السمّ فيه (لمسية).

يُسَهَّدُ منْ ليلِ التَّمامِ سَليمُها

لحلي النساءِ في يديه قَعاقِعُ(٤)

---

(١) اصاب: التفعلية زحاف (الخزل). وهو مركب من الإضمار والطي

(٢) ديوانه: ق ٣٩/٢٥٣.

(٣) النابغة الذبياني: ديوانه: ١٦٤.

(٤) النابغة الذبياني: ١٦٤.." [١]

---

(١) الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام، ص/١٥٦

"**وقد جرت العادة بأن** يوضع شكل دائرة، ويرسم عليها نصف واحد من تفعيل البحر الأول منها بأن تجعل علامة المتحرك صورة حلقة صغيرة وتجعل علامة الساكن صورة ألف، فتضع الدائرة هكذا: وطريق الفك أنك تبتدئ من أول كل وتد وسبب وتمر إلى الآخر، فإن اتفق فوات شيء من أول الدائرة فتداركه آخراً بأن تضيفه إلى ما فككته حتى تصل إلى المحل الأول الذي ابتدأت منه، فتبتدئ هنا من أول وتد في الدائرة وتمر إلى منتهاها، فيكون (فعولن مفاعلين ، وهو بحر الطويل. ثم تبتدئ من أول سبب فيها فتقول (لن مفاعيلن فعولن مفاعيلن وتضيف إليه ما فات مما سبق، وهو فعو، فيحدث بحر المديد، وهو (فاعلاتن فاعلن).

ثم تبتدئ من أول الوتد الثاني فيكون (مفاعيلن فعولن مفاعيلن) وتضيف إليه ما فات سبقاً فيحدث وزن المهمل الأول المسمى بالمستطيل.

ثم تبتدئ من أول سبب بعد هذا الوتد الثاني فتقول (عيلن فعولن مفاعيلن)، وتتدارك ما فات سبقاً، وهو (فعولن مفا)، فيحدث بحر البسيط.

ثم تبتدئ من ثاني سبب فتقول (لن فعولن مفاعيلن)، وتتدارك ما سبق وهو (فعولن مفاعي)، فيحدث البحر تامسمى بالممتد.." (١)

""""""""" صفحة رقم ١٦٩ """""""

قيمة الورق عينا على التقريب ثلاثمائة وثمانين ألف دينار . ويكون الجميع من العين ثمانية آلاف ألف دينار وأربعين ألف دينار . وحدث أبو العباس أحمد بن محمد بن الفرات أن منجماً أخبره أنه لم ينزل زحل في برج السنبلة إلا حدثت حادثة ، **وقد جرت العادة بذلك** على مضي الأوقات ، ومن ذلك أنه نزل هذا البرج سنة ثمان للهجرة فكان في تلك السنة فتح خيبر ومكة ، ونزل في سنة ثمان وثلاثين ، فكانت حرب صفين بين علي عليه السلام وبين معاوية ، ونزل في سنة ثماين وستين وكان فيها حرب المختار وعبد الملك وقصة عبد الله بن الزبير ، ونزل في سنة ثمان وتسعين فمات سليمان بن عبد الملك وانتقل الأمر إلى عمر بن عبد العزيز ، ونزل في سنة ثمان وعشرين ومائة فظهر أبو مسلم وجرت قصة مروان بن محمد . ونزل في سنة ثمان وخمسين ومائة فمات المنصور ونزل في سنة ثمان وثمانين ومائة فأوقع الرشيد بالبرامكة . ونزل في سنة ثمان عشرة ومائتين فتوفي المأمون . ونزل في سنة ثمان وأربعين ومائتين فتوفي المنتصر وقتل المتوكل . ونزل في سنة ثمان وسبعين ومائتين فوتفي الموفق . وحدث من الأمور ما حدث . وحدث أبو عبد الله

---

(١) العيون الغامزة، ص/٣٥

زنجي قال : لما توفي أبو العباس أحمد بن محمد بن الفرات أحضر المكتفي بالله القاسم بن عبيد الله وسأله عنه ، فعرفه وفاته وعزاه عنه ، واستأذنه فيمن يقلده الديوان مكانه ، فأعلمه ما كان يسمعه من المعتضد بالله أبيه في وصف بني الفرات وذكر كفايتهم ، وأمر بإقرار أبي الحسن على دواوينه ، وسمع خفيف السمرقندي ذلك فأنفذ إلى أبي الحسن سراً فطالعه وهو جالس للعزاء عن أبي العباس أخيه ، وأعلمه أنه أمر يجب كتمانه إلى أن يظهر من غير جهته ، وأنفذ إليه القاسم أبا علي وأبا جعفر ابنيه معزيين له ولأبي محمد الفضل وأبي الخطاب العباس وأبي جعفر محمد بني أبي العباس ، وسار إليه وإليهم أبو أحمد العباس بن الحسن وأبو الحسين ابن فراس ، معزيين ، ولم يبق أحد من القواد والكتاب والقضاة وسائر الطبقات إلا فعل مثل ذلك . فحضر أبو الحسن بن الفرات بعد انقضاء أيام العزاء الديوان ، ونظر في الأعمال ، وأمضى ما كان تأخر إمضاؤه منها . وكان في نفس القاسم من أبي العباس وأبي الحسن ما لا يتمكن من إظهاره في حياة أبي العباس ، فلما توفي عاود محمد بن عبدون الوقيعة في أبي الحسن ، وأغرى القاسم به ، وحمله مع علته على مطالبته بما كان أخرج عليه . فأمر بإحضار الأعمال التي كانت عملت له ، وجلس للنظر فيها ، ومواقفه عليها في يوم الثلاثاء قبل وفاته بثمانية أيام ، وأقبل يناظر أبا الحسن وهو وقيذ من علته ويشم الروائح الطيبة طلباً للتماسك في قوته . فلما زاد ما يجده أشار عليه." (١)

"السيد أحمد بن محمد الحسنى المعروف بابن النقيب الحلبي الأديب المفنن البارع المشهور ذكره البديعى في ذكره حبيب فقال في حقه عنوان الفضل وبسملة كتابه وفصل خطابه وفذلكة حسابه وسهان كنانته ودلا عيابه ورواء الشهباء فخامة وجلالا ووسامة واقبالا وقد جمع الله له أسباب السعاده كما قصر عليه أدوات السياده وهو في اقتناء السودد فريد وأنه الحب الخير لشديد ومنزلة في النظم رفيعه وطريقته في النثر بديعه ينظم فينثر الدرر وينثر فينظم الغرر وحاشيته على الدرر تشهد بأن الوانى وإني وحبرية أثر نقسه وبراعته برهان حق على مسن ماني فكم بسلاسل السطور شوارد بقتبس منها مشكاة الهدى والنور وهو الآن للأدب وأصوله وأنواعه وفصوله أمام أئمته ومالك أزمته وبورى غليل الإفهام سلسال تقريره وتحلى أجياد الأقلال عقود تحريره انتهى قلت وقد رأيت خبره مغصلا في بعض ما كتبه إلى السيد عبد الله الحجازى رحمه الله تءالى من تراجم الحلبيين قال ولد بحلب وبها نشأ وأخذ عن العلامة عمر العرضى وغيره وتأدب بابراهيم بن المنلا وبرع ورحل إلى قسطنطينية وولى القضاء برهة ثم تقاعد عن رتبة القدس وولى نيابة القضاء بحلب وكان له إحاطة تامة بأنواع الفنون وقرأ عليه جماهة من مشاهير فضلاء حلب وبه انتفعوا وألف حاشية

(١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص/١٦٩

على الدرر والغرر في الفقه وأجاد فيها حدا واطلعت أنا له على تحريرات كثيرة تدل على دقة نظره وغزارة فضله وأما شعره ونثره فإليهما النهاية ف يالحسن فمن شعره قوله من قصيدة

سقى الله عيشا مر في زمن الصبا ... وحياه عنى بالعبير نسيم

ودهرا بقسطينية قد قطعته ... إذ السعد عبد لي بها وخديم

بلادها الدنيا إذا ما قطنتها ... فوجه الأماني مسفر ووشيم

وما هي الأجنة الخلد بهجة ... وما غيرها الألظى وجحيم

فكم في مغانيها قضيت لبانة ... وزالت عن القلب الكليم هموم

وقرب أبي أيوب كم روضة إذا ... حللت بها يوما فلست تريم

تقول إذا شاهدت عالى قصورها ... أهذى جنان زخرفت ونعيم

جرى ماؤها كالسلسبيل فمثلها ... إذا ما تذكرت البقاع عديم

كستها الغوادى حلة سندسية ... وأهدى شذاها للنفوس شميم

وبالسفح سفح الطوبخانة أربع ... لها النسر في جو السماء نديم

تلوح بها الغيد الصباح كأنما ... علوا واشراقا تلوح نجوم

يقابلها ذاك الخليج بصفحة ... كأن لها متن السماء خديم

ترى السفن فيها جاريات كأنها ... جياد فمنها سابق ولطيم

وعند الحصارين المنيعين جيرة ... حديث علاهم في الأنام قديم

عجبت لأيامى بهم كيف لم تدم ... وهل دام شئ غيرها فتدوم

وكتب لبعض الكبراء مع قطاع من الصينى أهداها قوله

أن قصر الداعى وأهدى بلا ... روية محتقر انزرا

من عمل الصين قطاعا أتت ... لا تستحق الوصف والذكرا

فاعذر فقد أهدى إليك الثنا ... عقد انظيما يخجل البدرا

وكتب مع أخرى يعتذر عن هدية قوله

وهديت اليسير فانعم وقابل ... نزره بالقبول والامتنان

فلو أن العيوق والشمس والب ... در مع الفرقدين في امكاني

كنت أهيدتها وقدمت عذرا ... ورأيت القصور مع ذاك شاني

وقال من فصل وهو مما يختار للكاتب مع الهدايا قد جرت العادة بمهاداة الخدم للسادة رجاء أنن يجدد والهم ذكرا وأن كانت الهدية شيئا انزار ولهم في ذلك أسوة بالسحاب إذا أهدى القطر إلى تبار البحر وبالنسيم إذا أهدى النشر إلى حديقة الزهر وله من قصيد يخاطب بها صديقا له

نزول الرواسى عن مقر رسومها ... وودى على الأيام ليس يزول

ولست بمن يرضيه من أهل وده ... خفى وداد في الفؤاد دخيل

إذا لم يكن في ظاهر المرء شاهد ... على سره فالودمنه عليل

أأرضة بود في الفؤاد مغيب ... وليس إلى علم الغيوب سبيل

وأقبل عن هجرى اعتذار مزينا ... تمحلته إن ي إذا لجهول." (١)

"وسمعته يقول في قوله تعالى: " فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا " الكهف: ١٩٧ قال: " التاء " ، من حروف الشدة، تقول في الشيء القريب الأمر: ما استطعته، وفي الشديد: ما استطعته، فالمعنى: ما أطاقوا ظهوره لضعفهم، وما قدروا على نقبه لقوته وشدته.

وسمعته يقول في قوله تعالى: " إن الساعة آتيةٌ أكادُ أُخْفيهَا " طه: ١٥، قال: المعنى إني قد أظهرتها حين أعلمت بكونها، لكن قاربت أن أخفيها بتكذيب المشرك بها، وغفلة المؤمن عنها، فالمشرك لا يصدق كونها، والمؤمن يهمل الاستعداد لها.

قال: وقرأت عليه ما جمعه من خواطره، قال: قرأ عندي قارىء، قال: " هم أولاء على أثري " طه: ٤، فأفكرت في معنى اشتقاقها، فنظرت فإذا وضعها للتنبيه، الله لا يجوز أن يخاطب بهذا، ولم أرَ أحدًا خاطب الله عز وجل بحرف التنبيه إلا الكفار، كما قال الله عز وجل: " قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك " النحل: ٨٦، " ربنا هؤلاء أضلونا " الأعراف: ٣٨، وما رأيت أحدًا من الأنبياء خاطب ربه بحرف التنبيه، والله أعلم.

فأما قوله: " وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون " الزخرف: ٨٨، فإنه قد تقدم الخطاب بقوله: يا رب، فبقيت " ها " للتمكين، ولما خاطب اللّه عز وجل المنافقين، قال: " ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا " النساء: ٩، وكرم المؤمنين بإسقاط " ها " ، فقال: " ها أنتم أولائي تحبونهم " آل عمران: ١٩، وكان التنبيه للمؤمنين أخف.

وسمعته يقول في قوله تعالى: " إنه يعلم الجهر من القول " الأنبياء: ١١٠، المعنى: أنه إذا اشتدت الأصوات

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٢٠٠/١

وتغالبت فإنها حالة لا يسمع فيها الإنسان. والله عز وجل يسمع كلام كل شخص بعينه، ولا يشغله سمع عن سمع.

قال: وقوله: " قال: رب احكم بالحق " الأنبياء: ١١٢. قال: المراد منه: كن أنت أيها القائل على الحق ليمكنك أن تقول: احكم بالحق، لأن المبطل لا يمكنه أن يقول: احكم بالحق.

وقال في قوله تعالى: " قل: لا تقسموا، طاعة معروفة " النور: ٥٣، قال: وقع لي فيها ثلاثة أوجه: أحدها: أن المعنى: لا تقسموا واخرجوا من غير قسم، فيكون المحرك لكم إلى الخروج الأمر لا القسم فإن من خرج لأجل قسمه ليس كمن خرج لأمر ربه.

والثاني: أن المعنى نحن نعلم ما في قلوبكم، وهل أنتم على عزم الموافقة للرسول في الخروج. فالقسم ههنا إعلام منكم لنا بما في قلوبكم. وهذا يدل منكم على أنكم ما علمتم أن اللّه يطلع على ما في القلوب.

والثالث: أنكم ما أقسمتم إلا وأنتم تظنون أنا نتهمكم، ولولا أنكم في محل تهمة ما ظننتم ذلك فيكم. وبهذا المعنى وقع المتنبي، فقال:

وفي يمينك ما أنت واعده ... ما دل أنك في الميعاد متهم

وسمعته يقول في قوله تعالى: " أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة " الفرقان: ٥، قال: العجب لجهلهم حين أرادوا أن يلقى إليه كنز أو تكون له جنة. ولو فهموا علموا أن كل الكنوز له وجميع الدنيا ملكه. أوليس قد قهر أرباب الكنوز، وحكم في جميع الملوك. وكان من تمام معجزته أن الأموال لم تفتح عليه في زمنه لئلا يقول قائل **قد جرت العادة بأن** إقامة الدول، وقهر الأعداء بكثرة الأموالّ، فتمت المعجزة بالغلبة والقهر من غير مال، ولا كثرة أعوان، ثم فتحت الدنيا على أصحابه، ففرقوا ما جمعه الملوك بالشره، فأخرجوه فيما خلق له، ولم يمسكوه إمساك الكافرين، ليعلموا الناس بإخراج ذلك المال: أن لنا دارًا سوى هذه، ومقرًا غير هذا.

وكان من تمام المعجزات للنبي صلى الله عليه وسلم: أنه لما جاءهم بالهدى فلم يقبل، سلّ السيف على الجاحد، ليعلمه أن الذي ابتعثني قاهر بالسيف بعد القهر بالحجج.

ومما يقوي صدقه أن قيصر وكبار الملوك لم يوفقوا للإيمان به لئلا يقول قائل: إنما ظهر لأن فلانًا الملك تعصب له فتقوى به، فبان أن أمره من السماء لا بنصرة أهل الأرض.

وقال في قوله تعالى: " فقد كذبوكم بما تقولون " الفرقان: ١٩، قال: المعنى: فقد كذبكم أصنامكم بقولكم؟ لأَنكم ادعيتم أنها الآلهة وقد أقررتم أنها لا تنفع فإقراركم يكذب دعواكم.." (١)

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة، ص/١٠٨

"والثالث: أنكم ما أقسمتم إلا وأنتم تظنون أنا نتهمكم، ولولا أنكم في محل تهمة ما ظننتم ذلك فيكم. وبهذا المعنى وقع المتنبي، فقال:

وفي يمينك ما أنت واعده

ما دل أنك في الميعاد متهم

وسمعته يقول في قوله تعالى: "أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة" الفرقان: ٥، قال: العجب لجهلهم حين أرادوا أن يلقى إليه كنز أو تكون له جنة. ولو فهموا علموا أن كل الكنوز له وجميع الدنيا ملكه. أوليس قد قهر أرباب الكنوز، وحكم في جميع الملوك. وكان من تمام معجزته أن الأموال لم تفتح عليه في زمنه لئلا يقول قائل قد جرت العادة بأن إقامة الدول، وقهر الأعداء بكثرة الأموال، فتمت المعجزة بالغلبة والقهر من غير مال، ولا كثرة أعوان، ثم فتحت الدنيا على أصحابه، ففرقوا ما جمعه الملوك بالشره، فأخرجوه فيما خلق له، ولم يمسكوه إمساك الكافرين، ليعلموا الناس بإخراج ذلك المال: أن لنا دارا سوى هذه، ومقرا غير هذا. وكان من تمام المعجزات للنبي صلى الله عليه وسلم: أنه لما جاءهم بالهدى فلم يقبل، سل السيف على الجاحد، ليعلمه أن الذي ابتعثني قاهر بالسيف بعد القهر بالحجج.

ومما يقوي صدقه أن قيصر وكبار الملوك لم يوفقوا للإيمان به لئلا يقول قائل: إنما ظهر لأن فلانا الملك تعصب له فتقوى به، فبان أن أمره من السماء لا بنصرة أهل الأرض.

وقال في قوله تعالى: "فقد كذبوكم بما تقولون" الفرقان: ١٩، قال: المعنى: فقد كذبكم أصنامكم بقولكم لأنكم ادعيتم أنها الآلهة وقد أقررتم أنها لا تنفع فإقراركم يكذب دعواكم.

وقال في قوله تعالى: "وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق" الفرقان: ٢٥، قال: فهو يدل على فضل هداية الخلق بالعلم، ويبين شرف العالم على الزاهد المنقطع فإن النبي صلى الله عليه وسلم كالطبيب، والطبيب يكون عند المرضى، فلو انقطع عنهم هلكوا.." (١)

" فوجدت معلقا بدفة كتاب معونة الطلاب لفقه معاني كتاب الشهاب تأليف ولده طاهر وبخطه أيضا ما مثاله وللوالد رحمه الله ** أليس الله خالق كل جسم ** وأعراض العباد بلا مراء ** ** وما عرض يخص بذا ولكن ** عموما في الجميع على سواء ** ** فهل أفعالنا والقول فيها ** سوى عرض يقوم بلا بقاء ** ثم بعد ذلك الأبيات المتقدمة قال مؤلفه عفا الله عنه أخذ الشيخ هذه الأبيات فيما أظنه من قول الخطابي وهو قوله ** وما غربة الإنسان في شقة النوى ** ولكنها والله من عدم الشكل ** ** وإني غريب

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي، ١/٢٣٩

بين بست وأهلها ** وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي ** ومن الشعر الذي أورده ابن سمرة في مدح الشيخ رحمه الله قول بعض أهل عصره ** لله شيخ من بني عمران ** قد كان شاد العلم بالأركان ** ** يحيى لقد أحيا الشريعة هاديا ** بزوائد وغرائب وبيان ** ** هو درة اليمن الذي ما مثله ** من أول في عصرنا أو ثاني ** وكانت وفاته بقرية ذي السفال مبطونا وقد عد النبي صلى الله عليه وسلم المبطون شهيدا وذلك بعد أن اعتقلت لسانه ليلتين ويوما ومتى جاء وقت الصلاة سأل عن ذلك بالإشارة فإذا قيل له بالوقت صلى ثم كان لا يزال يشير بالتهليل يعرف ذلك منه برفع مسبحته ويحركها ثم توفي في آخر ليلة الأربعاء بعد طلوع الفجر سادس عشر ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وقبر بجرب له بالقرب من أرضه وقبره من القبور المعدودة للزيارة واستنجاز الحوائج والتوسل إلى الله بأصحابها وقد زرته بحمد الله مرارا

وقد جرت العادة غالبا متى عرض ذكر أحد من الأعيان ذكرت من ذكره ما لاق

---

(١) ".

"فإنَّه إذا شاهدها لَم يبق لاستدلاله بالنجم معنى، قال الشافعي: (أجمع الناسُ على أنَّ مَن استبانت له سنة رسول الله * لم يكن له أن يدَعَها لقول أحد)).

ومن أشهر ما ألَّفه الشيخ في الفقه كتاب آداب المشي إلى الصلاة، الذي يشتمل على فقه الصلاة والزكاة والصيام، وقد اشتهر بهذا الاسم الذي هو اسم أول باب فيه، وهو من تسمية الشيء ببعضه، ولم يُورد قبله ما يتعلَّق بأحكام الطهارة اكتفاءً برسالة شروط الصلاة وأركانها وواجباتها.

قال الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع ـ رحمه الله ـ في أول تعليقه على كتاب آداب المشي إلى الصلاة: ((لم يذكر المصنف ـ رحمه الله ـ كتاب أحكام الوضوء وشروط الصلاة قبل باب آداب المشي إلى الصلاة؛ اكتفاء برسالة شروط الصلاة المتضمِّنة لذلك كلِّه، **وقد جرت العادة بقراءتها** قبل هذا الكتاب، فكأنَّها جزء منه)).

وبالمقارنة بين كتاب آداب المشي إلى الصلاة وكتاب كشاف القناع عن متن الإقناع في عدة مواضع، تبيَّن أنَّ كثيراً مِمَّا في هذا الكتاب مطابقٌ لِمَا جاء فيه.

ومن منهجه في تأليف هذا الكتاب ما يلي:

١ ـ أنَّه يذكر المسائل الفقهية فيه بعبارات واضحة، مثل قوله في أوَّل باب الجنائز: ((يجوز التداوي اتفاقاً،

---

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك، ١/٣٠٠

ولا يُنافي التوكل، ويُكره الكيُّ، وتُستحبُّ الحمية، ويحرم بمحرَّم أكلاً وشرباً، وصوت ملهاة؛ لقوله *: (لا تداووا بحرام)، وتحرم التميمة، وهي عَوذة أو خَرَزَة تعلَّق، ويُسنَّ الإكثار من ذكر الموت والاستعداد له وعيادة المريض، ولا بأس أن يُخبرَ المريضُ بما يجدُ من غير شكوى بعد أن يَحمدَ اللهَ، ويجب الصبر، والشكوى إلى الله لا تنافيه، بل هي مطلوبة، ويحسن الظن بالله وجوباً، ولا يتمنَّى الموت لضرٍّ نزل به، ويدعو العائد للمريض بالشفاء))..." (١)

"وكان ذا هيبة ورأى سديد، صاحب قوة وبأس شديد، فدعاه مولانا الشريف في بعض الساعات إليه، وأوصاه على بنيه وعولته – رحمة الله عليه – .

فلما انتقل الشريف إلى دار الآخرة، امتثل مولاه أوامره، وقام على قدميه وشمر، وكشف عن ساعديه وشد المئزر، ورتب العساكر في المدارس بلصق المسجد الحرام المعمور، ووزعهم على المنائر والدور، ووضع المدافع على رؤوس المنافذ والطرقات، وضبط قانون الحرابة من سائر الجهات، هذا ومولانا السيد حمود لم يبرح من بيته مع بني عمه وشيعته، ونار الفتنة قائمة أشد قيام، قلنا: يا نار كوني بردا وسلام.

ثم بعد ذلك جلس مولانا الشريف سعد للتهنئة والسرور، وتأطد له الملك بفأل اسمه والحبور، ودعا مشايخ العرب وأهل الدرك وألزم كلا بجهته، ولم يقع ولله الحمد بمكة المشرفة شيء من النهب أو القتل أو الخوف " فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " قريش: ٣،٤ ومن لطف الله – سبحانه – أن كان انتقال مولانا الشريف زيد – رحمه الله تعالى بعد انقضاء الحج وتوجه كل إلى بلده.

وكان بمكة المشرفة يومئذ بعض تجار من حجاج الشام تخلفوا عن أميرهم، **وقد جرت العادة بذلك** أنهم يقيمون مدة لقضاء حوائجهم بعده، ثم يتوجهون ويجتمعون به في المدينة المنورة، فلما أرادوا السفر طلبوا من مولانا الشريف سعد – حفظه الله تعالى – أن يأمر من يوصلهم المدينة خوفا على أنفسهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك – كان الله له – ، وأرسل معهم السيد فارس ابن المرحوم بركات بن حسن، ومعهم جمع من العسكر، فأوصلوهم المدينة الشريفة سالمين، ولله الحمد والمنة.

ثم أمر حاكم الطائف، وكان بمكة جمع من أهل الطائف من الحجاج قد أحصروا عن أولادهم وأموالهم، ولم يمكنهم التوجه شفقة، فجهز جماعة من العسكر صحبة حاكم المذكور، فساروا بهم من ليلهم، فوصلوا إلى الطائف من طريق يعرج، نادى مناديه في البلاد من ساعته.

ولما وصل الخبر بوفاة الشريف زيد – رحمه الله تعالى – إلى الطائف قبل وصول الحاكم اضطربت البلاد

---

(١) منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف، ص/٢٤

اضطرابا شديدا، وعزل السوق وكل أغلق بابه ونزع ثيابه، دفن أسبابه، إلى أن وصل الحاكم، فاطمأنت حينئذ الخواطر من البوادي الحواضر، وكان إذ ذاك مولانا السيد زين العابدين بن عبد الله بن حسن بالطائف أولاده وأتباعه، فلما وصل هذا الخبر ركبوا الجياد، وداروا البلاد، ونأدوا بالأمان، فخمدت بذلك داعية البغي والطغيان، وطمنوا الناس، وأمروهم بالرجوع إلى السوق، وبسط الدكاكين ففعلوا وامتثلوا، وحمدوا ربهم وشكروا، وكان وصول الحاكم آخر ذلك النهار. ولما كان يوم الرابع من انتقال مولانا الشريف وهو يوم جمعة أراد الخطيب أن يخطب فوقف عن الخطبة لسبب من الأسباب، يدريه أولو الألباب، فصلى الناس الظهر.

وأما مكة فخطب الخطيب بها، ودعا للشريف سعد بالنصر والتأييد، والناس في عيش رغيد. وفي هذا الوقت وقع طراد في جهة المثناة قريبا من وادي وفي بين قبيلتين: قريش والحمدة من ثقيف واستمر إلى وقت العصر، وحصل بينهما بعض راحات، وكان بمكة المشرفة يومئذ جماعة من الأعراب أهل خيل وركاب لما بلغهم موت الشريف زيد رحمه الله انطلقوا على رؤوسهم إلى البلاد، وكل من وجدوه في طريقهم أخذوه بالظلم والعناد، وأكثروا في الأرض الفساد، إن ربك لبالمرصاد، وما كان من طريق الحجاز فوقع فيها الخوف والنهب، والقتل والضرب، وكل من ظفر بصاحبه أخذه، وأهل القرى ترفعوا عن الطرقات، واجتمعوا في بعض الجهات خوفا على أنفسهم وأموالهم.

وفي اليوم الثالث من موت مولانا الشريف – سامحه الله تعالى – وهو يوم الخميس – : وقع اضطراب كبير من بعد الظهر إلى بعد العصر بين مولانا الشريف مد، ومولانا السيد حمود، وكل منهما جمع جيوشه، وتحصنوا في البيوت والمنائر، وركبوا جماعة السيد حمود في الضلع الذئ خلف بيته والجبل المعروف بجبل عمر، وتراموا بالرصاص من بعد، ولم تحصل مواجهة، ثم إنهم استمر بهم حال وكل يوم يصبحون في قيل وقال، وكل من الشريفين واثب على قدميه كسبع الصيال، سبحان الله يؤتي الملك من يشاء وهو الكبير المتعال.." (١)

"وفي هذه المدة أيضا: وقع في طريق الطائف أن جماعة الحمارة المترددين بين مكة والطائف من طريق كرا بأموال الناس وأمتعتهم – نزل عليهم جمع من عرب الشرق، فأخذوهم وربطوهم وساقوهم وضربوهم وانتهبوهم، ثم ساروا بهم إلى قرب المبعوث، ثم أطلقوهم بعد يومين عرايا مسلبين مجرحين مضربين.

وفيها في السادس عشر من شهر رجب وصل المبشر من جدة يخبر بوصول رسول من الباشا معه خلعة

---

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ٤١/٣

ومرسوم.
وفي ليلة السابع عشر منه: رجع مولانا الشريف سعد إلى داره السعيدة، فلما كان الصباح، توجه العسكر بأجمعهم إلى ملاقاة رسول الباشا فدخلوا به في موكب عظيم إلى بيت مولانا الشريف ولبس الخلعة، وقرئ المرسوم بحضرة عسكر السلطان، السادة الأعيان، وفيه ما لا مزيد عليه من التعظيم والتمجيد، وحصل لمولانا به غاية السرور، وللرعية كمال الفرح والحبور.
وفي يوم الأربعاء تاسع عشر رجب الفرد الحرام: وصل إلينا خبر من نحو الشام، حارت فيه العقول والأفهام، بواقعة ينبع وما جرى فيها من الأحكام، بتقدير الملك العلام، أن التجريدة التي جهزت من مصر أوقع بهم السيد حمود في جيش لهام، من أهل ينبع وجهينة وعنزة وخاص وعام، فأخذوهم عن آخرهم، وقتلوهم وسلبوا أموالهم وأسروهم ولم يسلم منهم إلا نحو المائة، وكان معهم مال جزيل فذهب شذر مذر بعد أن تفرق أصحابه شغر بغر، وأمسكوا كبيرهم السنجق يوسف بك، وكان من القتلى من السادة الأشراف خمسة أشخاص هم السيد شبير بن أحمد بن عبد الله، والسيد سرور بن حسين بن عبد الله، والسيد إلياس بن عبد المنعم بن حسن وشخص من ذوى عنقاء يسمى السيد زين العابدين بن ناصر، تغمدهم الله بالرحمة والرضوان، وأسكنهم أعلى فراديس الجنان: من الطويل:
وقتلى أيادي الخيل بين وجوههم ... فخير المنايا ما يكون من القتل
وانتهبت الأعراب الأجمال بالأحمال، ثم أمر مولانا السيد حمود بجمع حريم السنجق وحريم غيره في مخيم كبير، وأجرى عليهم المصروف والقوت، وقدر الله للسنجق في تلك الأرض أن يموت، وكان اللقاء يوم الأربعاء رابع عشر رجب من سنة ثمان وسبعين المذكورة.
وقد كان مولانا السيد حمود أرسل إلى العسكر قبل قدومهم عليه أن ليس لكم طريق علينا إن لم يكن السيد أبو القاسم والسيد محمد معكم، فأشار بعض كبار العسكر على يوسف بك المذكور بالعدول عن هذا الطريق، وسلوك طريق خالية عن التعويق، فأجابه السنجق بفساد رأيه ولم يمتثل، وكان أمر الله شيئا قد فعل.
وزوار الرسول عليه الصلاة والسلام الذين خرجوا على النصف من رجب لما كانوا في الطريق، وهم ذاهبون بلغهم خبر العسكر وما وقع لهم، فاضطربوا وأشكل عليهم الأمر، وترددوا بين أن يرجعوا إلى مأمنهم أو يتوجهوا إلى مقصدهم، فردوا الأمر إلى سيد القافلة وكبيرها مولانا الشيخ عيسى بن محمد المغربي الثعالبي – وكان متوجها معهم – فأشار عليهم بالتوجه من طريق القاحة وهي معروفة، وكان سابقا يسلكها الأولون، وفيها عمائر وآثار بناء وعيون إلا أنها هجرت الآن، فسلكوا بالأمان تلك الأنحاء، وتلقاهم شيخ العرب

وسلطانها القائم بخدمة الحرمين منذ أزمان الشهاب أحمد بن رحمة بن مضيان، وتوجه بهم إلى المدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فسلكوها آمنين، وخرجوا على النازية قريبا من الروحاء، ثم إنه خرج بهم وأوصلهم إلى حيث لاقاهم، ورجعوا سالمين أولاهم وأخراهم.

غير أن بعض الزوار لما وصلوا قرب المدينة قريبا من المحل المسمى مفرح تقدموا عن القافلة، **وقد جرت العادة بذلك**، فرحا وشوقا إلى ما هنالك، فنزل عليهم السراق فأخذوا ما معهم في تلك الفجاج، وحصل لهم جراحات وشجاج.

وأهل المدينة الشريفة لما بلغهم ما وقع للعسكر وقع عندهم الاضطراب الشديد، والتعب الذي ما عليه من مزيد، وانقطعت عنهم سبل الوارد، وغلا السعر في المقتات بل لم يجده واجد.." (١)

"كان يدرس بالجامع الأزهر العلوم النقلية والعقلية يقول المقريزي :

" فلا يزال الجامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره " .

ويستدل من نماذج الإجازات العلمية التي أوردها القلقشندي على كتب الدراسة التي كانت تدرس في الجامع الأزهر وغيره من مدارس مصر ومنها : كتب الحديث الستة : وهي " صحيح البخاري " و " صحيح مسلم " و " سنن أبي داود " و " الترمذي " و " النسائي " و " ابن ماجة " و " المسانيد " و " عمدة الأحكام " للحافظ عبد الغني المقدسي و " شذور الذهب " للشيخ جمال الدين بن هشام و " المنهاج في فقه الإمام الشافعي " لأبي زكريا النووي و "كتاب الأربعين حديثا " للشيخ محيي الدين النووي – و " الورقات في الأصول " لإمام الحرمين و " اللمحة البدرية في النحو " للشيخ أثير الدين أبي حيان وغير ذلك من الكتب .

وقد جرت العادة على تدريس العلوم النقلية التي عبر عنها ابن خلدون . بأنها مختصة بالملة الإسلامية في الصباح . أما العلوم الأخرى فكانت تدرس بعد العصر

ومن أشهر العلماء الذين درسوا بالأزهر :

ابن زولاق – (ت ٧٨٣ هـ) ومن تصانيفه : كتاب " فضائل مصر " – وكتاب " قضاة مصر " .

ومنهم أيضا أبو عبد الله القضاعي الذي ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري وتوفي بها سنة (٤٥٤

---

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ٤٧/٣

هـ) وقد ألف عدة كتب في الفقه والتاريخ منها

كتاب " مناقب الإمام الشافعي وأخباره " – وكتابا في خطط مصر سماه " المختار " وكان هذا الكتاب عونا للمقريزي على كتابه " المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار " .

الأزهر وجهوده في مجال العلم والمعرفة :

إن الأزهر قد أمضى أكثر من ألف عام في ميادين العلم والمعرفة والثقافة خدمة للأمة الإسلامية خاصة وللإنسانية عامة .." (١)

"كان يدرس بالجامع الأزهر العلوم النقلية والعقلية يقول المقريزي :

" فلا يزال الجامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره " .

ويستدل من نماذج الإجازات العلمية التي أوردها القلقشندي على كتب الدراسة التي كانت تدرس في الجامع الأزهر وغيره من مدارس مصر ومنها : كتب الحديث الستة : وهي " صحيح البخاري " و " صحيح مسلم " و " سنن أبي داود " و " الترمذي " و " النسائي " و " ابن ماجة " و " المسانيد " و " عمدة الأحكام " للحافظ عبد الغني المقدسي و " شذور الذهب " للشيخ جمال الدين بن هشام و " المنهاج في فقه الإمام الشافعي " لأبي زكريا النووي و "كتاب الأربعين حديثا " للشيخ محيي الدين النووي – و " الورقات في الأصول " لإمام الحرمين و " اللمحة البدرية في النحو " للشيخ أثير الدين أبي حيان وغير ذلك من الكتب .

وقد جرت العادة على تدريس العلوم النقلية التي عبر عنها ابن خلدون . بأنها مختصة بالملة الإسلامية في الصباح . أما العلوم الأخرى فكانت تدرس بعد العصر

ومن أشهر العلماء الذين درسوا بالأزهر :

ابن زولاق – (ت ٧٨٣ هـ) ومن تصانيفه : كتاب " فضائل مصر " – وكتاب " قضاة مصر " .

ومنهم أيضا أبو عبد الله القضاعي الذي ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري وتوفي بها سنة (٤٥٤

هـ) وقد ألف عدة كتب في الفقه والتاريخ منها

كتاب " مناقب الإمام الشافعي وأخباره " – وكتابا في خطط مصر سماه " المختار " وكان هذا الكتاب

---

(١) سيرة حياة الشيخ عبد الرزاق عفيفى، ٢٤٦/١

عونا للمقريزي على كتابه " المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار " .

الأزهر وجهوده في مجال العلم والمعرفة :

إن الأزهر قد أمضى أكثر من ألف عام في ميادين العلم والمعرفة والثقافة خدمة للأمة الإسلامية خاصة وللإنسانية عامة .." (١)

"السلاح التى كان يطلق عليها اسم «السلاح خانة»، ثم يستعرضهم السلطان بنفسه وهو بلباس الحرب، وهو ما يعرف باسم «النفير»، فإذا مااستعرض السلطان الجند وتفقد أحوالهم وسلاحهم، اختار من كبار قواده قائدا يسير على رأس الحملة الحربية، وقد جرت العادة أن يتخذ القائد مركزه فى القلب؛ حتى يراه جميع جنوده، وينفذوا أوامره، أو يتخذ مركزه فى المقدمة ليثير الحماسة فى نفوسهم، ويلقى الرعب فى قلوب أعدائه.

كان المماليك يأخذون فى حروبهم بطريقة قتال الصفوف التى يقف فيها الجندى بجانب زميله حتى يكاد يلتصق به كما يحدث فى صفوف الصلاة، ويسير الجنود على هذا النحو حتى يصلوا إلى حيث استقر العدو فينازلوه ويناجزوه، وكان الخليفة - أحيانا - يصحب الجيوش فى حملاتهم ليحث الجنود على الجهاد، ويبث الروح الدينية فى نفوسهم.

اعتمد المماليك على الخيل فى حروبهم، لذا عنوا بها عناية فائقة، حتى صارت الفروسية فى عهدهم فنا عظيم الشأن، أفردوا لدراسته الكتب والرسائل العديدة التى مازالت موزعة بين خزائن المخطوطات فى العالم حتى الآن، وكذلك تعددت أسلحتهم الحربية، فكان منها: «السيف»، و «الخنجر»، و «الطبر»، و «البلطة»، و «الفأس»، و «القوس»، و «السهم»، و «المقلاع»، و «المنجنيق»، «والدبابات ذات الخيول»، و «الصنبور»، و «القلاع المتحركة»، و «النار اليونانية»،

---

(١) سيرة حياة الشيخ عبد الرزاق عفيفى، ٢/١٥

وجعلوا لهذه الأسلحة على اختلاف أنواعها دارا تحفظ وتخزن فيها

أطلقوا عليها اسم: «الزرد خانة»، أو «السلاح خانة»، أى بيت

السلاح، وجعلوا رئاسة هذه الدار لأحد أمراء المائتين، وأطلقوا عليه

لقب: «أمير السلاح»، وجعلوا جماعة من الموظفين عرفوا باسم

«السلاح دارية» لمعاونة الأمير فى مهام عمله، وكذلك كان يعمل

بالدار جماعة من الصناع عرفوا باسم: «الزردكاش»، ومعناها: صانع

الزرد، لصناعة وصيانة الأسلحة، واختص كل منهم بنوع معين من

أنواع السلاح.

لقد ظل المماليك محافظين على صنعتهم الحربية حتى بعد أن ضعف." (١)

"٣٠ - ومن خطائه قوله:

فلو ذهبت سنات الدهر عنه ... وألقى عن مناكبه الدثار

لعدل قسمة الأرزاق فينا ... ولكن دهرنا هذا حمار

قوله " وألقى عن مناكبه الدثار " لفظ ردئ، وليس من المعنى الذي قصده في شيء، وصدر البيت لائق بالمعنى؛ فلو كان أتبعه بما يكون مثله في معناه، بأن يقول: فلو ذهبت سنات الدهر عنه واستيقظ من رقدته أو انتبه من نومته أو انكشف الغطاء عن وجهه؛ لكان المعنى يمضي مستقيما؛ لأن من كان في سنة أو نوم أو مغطى على وجهه أو عينيه فإنه لا يبصر الرشد، ولا يكاد يهتدى لصواب، وإنما هذه كلها استعارات، والمراد بها هداية القلب وإبصاره وفهمه، **وقد جرت العادة باستعارتها** في هذا المعنى، فأما دثار المناكب فليس من هذا الباب في شيء؛ إذ قد يبصر الإنسان رشده ويهتدي لصواب أمره وعلى مناكبه دثار وعلى ظهره أيضا حمل، ولا يكون ذلك مع النوم والرقاد والغطاء على العين؛ لأنه إنما يراد نوم القلب والتغطية عليه؛ لأن الإنسان إنما يقال له: " قد عمى قلبك " و " قد عميت عن الصواب عينك " و " قد غطى على فهمك " ولا يقال: " قد غطيت بالدثار عن الصواب مناكبك، ولا ظهرك "، ولفظة الدثار أيضا إنما." (٢)

"قف بها وقفة تردد عليها ... أدمعا ردها الجوى أنضاء (١)

قوله: «نضو شجو ما لمت فيه البكاء» من المقلوب، وكان يجب أن يقول: ما لمته في البكاء؛ فقال: ما

(١) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، مجموعة من المؤلفين ٩٤/٥

(٢) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري الآمدي، أبو القاسم ٢٣٥/١

لمت البكاء فيه.

ومثل هذا الشعر كثير، وإنما كان يصدر عن العرب على سبيل السهو، ولا يسوغه متأخر، ومنه ما هو حسن، وقد جاء مثله في القرآن.

فإن قيل: إن لفظ البيت مستقيم، وهو (٢) مستغن بمعناه ولفظه عن أن يتأول فيه القلب، وذلك أن البكاء ليس هو شيئا غير سكب الدموع، وجريها على الخدود، فكما تلوم العين بكاها، وتلوم الدمع على انحداره مجازا، فكذلك تلوم البكاء مجازا.

قيل: هذا عدول عن القياس وصحيح التمثيل، وإنما كان ينبغي أن يقول: فكما تلوم انحدار الدمع الذي هو البكاء، فكذلك تلوم البكاء، هذا وجه المعارضة، فإن كنت تلوم انحدار الدمع فقد صح اعتراضك، وإن كنت لا تلومه، وهو البكاء، فلم تلوم البكاء.

ومع هذا **فقد جرت العادة بلوم** العين على البكاء، ولوم الدمع على الانحدار، ولومها أيضا على الامتناع، وقالت الشعراء في ذلك ما هو معروف مشهور، ومنه قول متمم بن نويرة يبكي أخاه مالكا:

عذرتك يا عيني الصحيحة في البكا ... فما أنت يا عواراء والهملان (٣)." (١)

"* ما قالاه في المراثي

قد جرت العادة في كل باب أن تعتبر فيه الابتداءات، فيجب أن أقدم ابتداءات هذا الباب.

قال أبو تمام:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ... وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

قد عابه قوم من متقدمي الشيوخ بهذا، وقالوا: قوله «كذا» إشارة إلى مجهول غير معروف، وقالوا: كان ينبغي أن يقول كما قال البحتري:

انظر إلى العلياء كيف تضام ... ومآتم الأحساب كيف تقام

فأوضح المعنى بقوله: «ومآتم الأحساب كيف تقام»، وليس هذا العجز بمبين عن معنى صدره كما ذكروا، وإنما هو قسم منسوق على قسم آخر، له معنى غير معناه، فقوله: «انظر إلى العلياء كيف تضام» مثل قول أبي تمام:

«كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر».." (٢)

---

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري الآمدي، أبو القاسم ١/٥٥٠

(٢) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري الآمدي، أبو القاسم ٣/٤٥٧

"٢٠- ويمة، شلنبة:

مدينتان من حدود جبل دنباوند. وهما باردتان بردا شديدا صيفا وشتاء. ويرتفع من هذا الجبل الحديد.

٢١- جبال قارن:

كورة بها أكثر من عشرة آلاف قرية، يدعى ملكها سبهبذ شهريار كوه. وهي كورة عامرة أغلب أهلها مجوس. ومنذ عصر الإسلام ظل حكم هذه الكورة في أولاده «١» .

٢٢- بريم:

قصبة هذه الكورة «٢» . وهي مستقر الأصبهبذية «٣» ، والمعسكر على مسافة نصف فرسخ من المدينة. وبها مسلمون. وأغلبهم غرباء وحرفيون وتجار، ذلك أن أهل هذه القصبة جند [٣٠ ب] ومزارعون.

وفي كل خمسة عشر يوما يقام فيها سوق يؤمه من جميع هذه الكورة الرجال والفتيات والفتيان في كامل زينتهم حيث يمرحون ويلعبون ويرافق بعضهم بعضا. **وقد جرت العادة في** هذه الكورة أن كل رجل أحب فتاة ما، يتعلق بها ويحتفظ بها لمدة ثلاثة أيام، وحين يرغب فيها يرسل أحدا إلى والدها يزوجه إياها.

وفي أطرافها عيون ماء يجتمع عندها أغلب أهل هذه النواحى عدة مرات فى السنة بزينتهم فيشربون النبيذ ويغنون ويرقصون ويطلبون حاجاتهم إلى الله ويرون ذلك كالعبادة، وحين يطلبون هطول المطر فإنه يهطل.

٢٣- سامار:

مدينة صغيرة من هذه الكورة أيضا، يرتفع منها بكثرة الحديد والسرمق «٤» والرصاص.

٢٤- الديلم:

كورة خاصة بالديلم الذين يكونون بهذه البلاد، بين طبرستان والجبال وجيلان وبحر الخزر. وأهلها قسمان: قسم مقيم على ساحل البحر، والآخر مقيم بين الجبال والصخور، وهناك قسم ثالث بين هذين الاثنين.." (١)

"جعلتها ثمرة أملى فيك.» فقال لى:

- «ما هي؟» فقلت: «أبو العباس يريد أن تقبل شهادة أبى يعلى ابنه واستشفع بى إليك فى خطاب عضد الدولة.» فقال: «أفعل، **وقد جرت العادة فيما** بيني وبين الملك بأن أراسله فيما أريده على لسان ثقة.» وأحضر الرجل الذي أشار اليه، فحمله فى ذلك رسالة استوفاها فمضى وعاد وقال:

«يقول لك الملك: مالك وللخطاب فى مثل هذا الأمر؟ [٩٩] » قال أبو عمر:

---

(١) حدود العالم من المشرق الى المغرب مؤلف: حدود العالم من المشرق إلى المغرب ص/١٥٦

«فاستدعاني أسفار حتى سمعت الجواب فقلت: يا صاحب الجيش والله ما يقبل منى أبو العباس ذلك ولا يقدر إلا أنى قد قصرت فى مسئلتك مع علمه بموضعي منك وموضعك من الملك وأنك لا ترد فى الكبير فضلا عن الصغير.» فقال: «ما جرت لى عادة بمعاودته ولكنى أعاوده بعد أيام.» ومضت على ذلك مديدة فأعاد الرجل الرسالة وجدد السؤال فعاد مثل الجواب الأول. فأظهرت الوجوم والانكسار ومضت أيام وهو يراني كاسف البال فقال لى:

«يا با عمر قد عملت على الركوب الى الدار فى غد.» ووصل الى حضرة عضد الدولة ووقف ساعة ثم قال: قد راسلت مولانا فى أمر أبي يعلى ابن مكرم دفعتين وعاد الجواب يرسم فيه الإمساك ولى فى تمام هذا الأمر جاه والقوم الذين سألونى فى ذلك فى اختلاط وأمل قوى." (١)

"إبراهيم ين يوحنا جهبذ حامد بن العباس، مائة ألف دينار. أبو محمد الحسن بن أحمد المادرائي، ألف ألف ومائتي ألف دينار ومنه أيضا بخط آخر، ألف ألف دينار. أبو بكر محمد بن علي المادرائي، ألف ألف دينار وألف دينار وبخط آخر أيضا، عشرة آلاف دينار. سليمان بن الحسن بن مخلد، مائة وثلاثين ألف درهم. فذلك من العين سبعة آلاف ألف وخمسمائة ألف وخمسة وتسعين ألفا وستمائة وثمانين دينارا ومن الورق خمسة آلاف ألف وثلاثمائة ألف درهم. قيمة الورق عينا على التقريب ثلاثمائة وثمانين ألف دينار. ويكون الجميع من العين ثمانية آلاف ألف دينار وأربعين ألف دينار.

وحدث أبو العباس أحمد بن محمد بن الفرات أن منجما أخبره أنه لم ينزل زحل في برج السنبلة إلا حدثت حادثة، **وقد جرت العادة بذلك** على مضي الأوقات، ومن ذلك أنه نزل هذا البرج سنة ثمان للهجرة فكان في تلك السنة فتح خيبر ومكة، ونزل في سنة ثمان وثلاثين، فكانت حرب صفين بين علي عليه السلام وبين معاوية، ونزل في سنة ثماين وستين وكان فيها حرب المختار وعبد الملك وقصة عبد الله بن الزبير، ونزل في سنة ثمان وتسعين فمات سليمان بن عبد الملك." (٢)

"وكتب إلى بعض الرؤساه:

قد جرت العادة- أطال الله بقاء الأمير! - بالتمهيد للحاجة قبل موردها، وإسلاف الظنون الداعية إلى نجاحها، وسالك هذه السبيل يسيء الظن بالمسئول، فهو لا يلتمس فضله إلا جزاء، ولا يستدعى طوله إلا قضاء؛ والأمير بكرمه الغريب، ومذهبه البديع، يؤثر أن يكون السلف له، والابتداء منه، ويوجب للمهاجم

(١) تجارب الأمم وتعاقب الهمم ابن مسكويه ٨٤/٧

(٢) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء الصابئ، هلال بن المحسن ص/٢٤٨

برغبته عليه حق الثقة به منه، والحمد لله الذى أفرده بالطرائق الشريفة، وتوحده «١» بالخلائق المنيفة، وجعله عين زمانه البصيرة، ولمعته الثاقبة المنيرة «٢» .

[من رسائل البديع]

وكتب البديع فى بابه إلى بعض أصحابه:

لك أعزك الله عادة فضل، فى كل فضل، ولنا شبه مقت، فى كل وقت؛ ولعمرى إن ذا الحاجة مقيت الطلعة، ثقيل الوطأة، ولكن ليسوا سواء [؛ أولو «٣» حاجة تحتاج إليهم الأموال، وأولو حاجة تحوجهم الآمال.

والأمير أبو تمام عبد السلام بن الفضل «٤» المطيع لله أمير المؤمنين- أيده الله- إن أحوجه الزمان فطالما خدمه، وإن أهانه فكثيرا ما أكرمه ونعمه. وقديما أقله السرير، وعرفه الخورنق والسدير. وإن نقصه المال فالعرض وافر، وإن جفاه الملك فالفضل ظاهر، وإن ابتلاه الله فليبتليكم به فينظر كيف تفعلون.

وأنت تقابل مورده عليك من الإعظام، بما يستحق من الإكرام، فلا تنظرن إلى ثوب بال، فتحته شرف عال، ولا تقس على البرد، ما وراءه من المجد، ولكن إن نظرت ففى شامخ أصله، وراسخ عقله، وشهادة الفراسة له. ثم ليأت بعد هذه الآيات ما هو قضية المروءة معه، والأخوة معى، بالغا فى ذلك غاية جهده، والسيف لا يرى فى غمده، والحمد لله حق حمده.." (١)

". . . . .

= ناله منها ما شغله عن حاله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: رفع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يديه –يعني يوم بدر– فقال: "يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا" فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين. ثم ذكر الإمام ابن كثير عدة روايات بهذا المعنى ثم قال: وقد روي في هذه القصة عن عروة عن مجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم بدر اهـ. واذ قد تبين معنى الآية وسبب نزولها فإنه لا يصح حملها على كل رمية أو كل فعل صادر من كل إنسان.

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب الحُصري القيرواني ٤/٩٥٩

فإن قيل: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب!

فالجواب: أن عموم اللفظ هنا ليس أفعال الإنسان كلها، بل كل رمية بلغت ذلك المبلغ، وأثرت ذلك التأثير.

الثانية: مذهب أهل السنة والجماعة في أفعال العباد أن قدرة العبد لها أثر في فعله كأثر الأسباب في مسبباتها فهو الموجد لفعله باختياره، والله تعالى هو خالق أفعال العبد باعتبار أن خالق الأسباب هو خالق مسبباتها، فالسحاب -مثلا- سبب المطر، والماء سبب الإنبات، **وقد جرت العادة أنه** لولا السحاب ما نزل الماء، ولولا الماء ما حصل الإنبات، ومع ذلك فالله تعالى هو المنزل للماء، المنبت للشجر، فكذلك قدرة العبد هي سبب فعله، والله تعالى خالق العبد وخالق فعله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية "مجموع الفتاوى" ٨/ ٤٨٧: الذي عليه السلف وأتباعهم وأئمة أهل السنة وجمهور أهل الإسلام المثبتون للقدر المخالفون للمعتزلة: إثبات الأسباب، وأن قدرة العبد مع فعله لها تأثير سائر الأسباب في مسبباتها، والله تعالى خلق الأسباب والمسببات.

وقد أحسن إمام الحرمين الجويني المنتسب للمذهب الأشعري في عرض قول أهل السنة والرد على أئمة المذهب الأشعري حيث قال: الركن الأول في قدرة العبد وتأثيرها في مقدورها، فنقول: قد تقرر عند كل حاظ بعقله، مرقى عن مراتب =." (١)

"القراءة، وهو مذهب مالك (١)، وداود (٢)، كأنهم أخذوا بظاهر الآية (٣)، وذلك جهل بمقاييس العربية (٤).

= ولا إله غيرك"، ثم يقول: "الله أكبر كبيرا"، ثم يقول: "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه" ثم يقرأ. وقد أخرجه أبو داود (٧٧٥) كتاب: الصلاة، باب: من رأى الاستفتاح بسبحانك، والترمذي (٢٤٢) كتاب: أبواب الصلاة، باب: ما يقول عند افتتاح الصلاة، [قال عمر -رضي الله عنه-: همزه الموتة؛ وهي الجنون، نفخه: الكبر، نفثه: الشعر. "تفسير البغوي" ٥/ ٤٢].

(١) وقد استغرب ابن العربي نسبة هذا القول إلى مالك، وقال هذه دعوى عريضة لا تشبه أصول مالك ولا فهمه، والله أعلم بسر هذه الرواية. انظر: "تفسير ابن العربي" ٣/ ١١٧٦.

(٢) داود بن علي بن خلف الأصبهاني، أبو سليمان، فقيه حافظ، أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام، وإليه ينسب المذهب الظاهري، وكان فاضلا صدوقا ورعا، سمع من إسحاق بن راهويه ومسدد بن مسرهد،

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٧١/١٠

وعنه: ابنه محمد ويوسف ابن يعقوب، من مصنفاته: "الإفصاح"، "الأصول"، ولد بالكوفة سنة (٢٠٢ هـ) وسكن بغداد، ومات سنة (٢٧٠ هـ). انظر: "الفهرست" ص ٢٩٩، و"الأنساب" للسمعاني ٤/ ٩٩، و"وفيات الأعيان" ٢/ ٢٥٥، و"تذكرة الحفاظ" ٢/ ٥٧٣.

(٣) لا شك أن ظاهر الآية يقتضي ذلك، ولكنه مدفوع ومفسر بفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول الجصاص: يقتضي ظاهره أن تكون الاستعاذة بعد القراءة، ولكنه قد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن السلف الاستعاذة قبل القراءة، **وقد جرت العادة بإطلاق** مثله. انظر: "تفسير الجصاص" ٢/ ١٩١، و"المحلى" ٣/ ٣٥٠، و"تفسير الكيالهراسي" ٤/ ١٧٥، ومن توجيهات القائلين بهذا القول، أن الاستعاذة بعد القراءة هي لوقاية العمل من الحبوط، إذ ربما أورث حسن القراءة العجب في نفس القارئ، والعجب من الشيطان، فكان من المناسب أن يؤمر بالاستعاذة منه. انظر: "تفسير ابن كثير" ٤/ ١٤ - ٤٧.

(٤) عبارته هذه قاسية، ولا يليق وصف الصحابة وأئمة الأمة بالجهل.." [1]

"قوله) بأن سب منهم غلام (أي شتم وسب في القافية، بمعنى القطع كذلك ذكر ابن دريد، ودق يجوز أن يكون سب في القافية في معنى الشتم، كأنه لما سب جعل جزاء سبه أن عقر إبله، فأعلمهم أنهم لا يقدرون على مثل ما فعل، فكأنه شتمهم ويروي حدد وعدد.

يا عضد الدولة من ركنها ... أبوه والقلب أبو لبه

قال ابن جني: اللب العقل، والعقل زين القلب، فكذلك أنت زين أبيك كأنه فضله على أبيه.

ومن بنوه زين آبائه ... كأنها النور على قضبه

قال أبو الفتح: أي أبناؤك زين آبائك، لأنهم يدنون بكرمهم عليهم، ولم يجعل أولاده زينا له كما جعله هو زين أبيه، لما ذكرت قبل من أنه فضله عليه ولأجل هذه اللطائف التي تأتي في شعره قال:

لا تجسر الفصحاء تشيد هاهنا ... بيتا ولكني الهزبر الباسل

ومن التي أولها: لحا الله وردانا وأما أتت به

أهذ اللذيا بنت وردان بنته ... هما الطالبان الرزق من شر مطلب

قال ابن جني: اللذيا تصغير الذي، يستفهم فيقول أهذا الذي ينسب إليه الحشرة الدنية، يقول فهي وهو يطلبان الرزق من شر مطلب، لأنها تطلبه من المخازي، وهو يطلبه من هن عرسه، يظهر تجاهلا بالأمر وهزءا به.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٩٣/١٣

قال أبو العلاء: معنى هذا البيت أنه أراد تشبيه بيت الرجل الذي هو وردان بالدويبة التي يقال بنت وردان، وهي تكون في مواضع الوسخ المكروه وهذا أشبه من المعنى الأول.

حرف التاء

سرب محاسنه حرمت ذواتها ... داني الصفات بعيد موصوفاتها

قال أبو الفتح كنى بالسرب عن النساء يقول: هواي سرب حرمت ذوات محاسنها أي صواحب محاسنه، وذوات محاسن السرب هذا السرب فكأنه قال هواي سرب حرمته، أي حيل بيني وبينه، وداني الصفات لأن الوصف قول وهو قادر عليه متى أراده، إلا أن الموصوف بهذه الصفة وهو السرب بعيد مني.

وفي هذا البيت شيء من الإعراب لطيف المذهب منع سيبويه منه البتة وهو إضافة) ذو وأخواتها (إلى المضمر لأنه لا يجيز) هذا رجل ضرب ذاه (.

قال أبو العلاء: أما قول سيبويه في أن) ذو (لا تضاف إلى الضمير، فعلى ذلك ورد مسموع كلامهم، وإنما امتنع في الإضافة لأن) ذو (كناية عن شيء والهاء كناية، فكره الجمع بين كنايتين، وقوى ذلك أن) ذو (كلمة ناقصة لا قوة لها فتحتمل أن تضاف إلى الضمير، فإذا دخلها الجمع والتثنية قويت بذلك لأن حروفها تزيد، فقوله ذواتها يزيد في القوة على قولهم) هذا ذوه (. وقد أضاف كعب بن زهير فيما روي ذوي إلى الهاء وهي أضعف من ذوات لأنها أقل حروفا منها وذلك قوله:

صحبنا الخزرجية مرهفات ... أباد ذوي أروميتها ذووها

وقال أبو علي كأنه لاحظ قول القائل:

فقلت لأصحابي هي الشمس ضوءها ... قريب ولكن في تناولها بعد

وقد ألم هذا المعنى إلا أنه غيره إلى باب آخر الشيخ أبو العلاء أحمد بن عبد الله ابن سليمان المعري، أنشد فيه لنفسه:

قد يبعد الشيء من شيء يشابهه ... إن السماء نظير الماء في الزرق

ومقانن بمقانب غادرتها ... أقوات وحش كن من أقواتها

قال أبو العلاء: يعني أنه قتلهم فأكلتهم الوحوش كالأسد، والنمور، والذئاب والضباع، وكان هؤلاء القوم يصيدون هذه الوحوش فيأكلونها، كأنه يصفهم بالنجدة والشدة وأنهم كانوا يأكلون هذه الأجناس التي لم تجر العداة بأكلها.

أقبلتها غرر الجياد كأنما ... أيدي بني عمران في جبهاتها

قال ابن جني: أقبلتها أي حملتها عليها وكلفتها لقاءها وما أحسن ما خلط الخروج بالتشبيه.

وقال ابن فورجة: أقبلتها الخيل أي أقبلت بها إليها، وسيرتها مستقبلة لها كما قال الشاعر:

يمشين مشي الهجان الأدم أقبلها ... خل الكوود هدان غير مهتاج

وعنى بالأيدي هنا النعم، من قولهم لفلان عندي يد بيضاء، **وقد جرت العادة في** جمع يد النعمة بالأيادي وهي جمع الجمع، وفي يد الأعضاء بالأيدي، وقد إستعمل أبو الطيب هذه في مكان تلك فقال: فتل الأيادي ربذات الأرجل وقد جاء ذلك عن العرب في كثير من أشعارها فمنها قول عدي:." (١)

"وأولى الأقاويل أن قوله: ﴿تتخذون منه سكرا﴾ منسوخ، روي عن ابن عباس قال: "السكر" [ما حرم] (١) من ثمرها، و"الرزق الحسن": ما أحل.

وقال أبو عبيدة: "السكر": الطعم، يقال هذا سكر لك أي: طعم (٢) .

﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾

﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (٦٩) ﴾

﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ أي: ألهمها وقذف في أنفسها، ففهمته، والنحل: زنابير العسل، واحدتها نحلة.

﴿أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون﴾ يبنون، **وقد جرت العادة أن** أهلها يبنون لها الأماكن، فهي تأوي إليها، قال ابن زيد: هي الكروم. ﴿ثم كلي من كل الثمرات﴾ ٢٠١/أليس معنى الكل العموم، وهو كقوله تعالى: "وأوتيت من كل شيء" (النمل-٢٣) .

﴿فاسلكي سبل ربك ذللا﴾ قيل: هي نعت الطرق، يقول: هي مذللة للنحل سهلة المسالك.

قال مجاهد: لا يتوعر عليها مكان سلكته.

وقال آخرون: الذلل نعت النحل، أي: مطيعة منقادة بالتسخير. يقال: إن أربابها ينقلونها من مكان إلى مكان ولها يعسوب إذا وقف وقفت وإذا سار سارت.

﴿يخرج من بطونها شراب﴾ يعني: العسل ﴿مختلف ألوانه﴾ أبيض وأحمر وأصفر. ﴿فيه شفاء للناس﴾ أي: في العسل. وقال مجاهد: أي في القرآن، والأول أولى.

أنبأنا إسماعيل بن عبد القاهر، حدثنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا

---

(١) تفسير أبيات المعاني من شعر أبي الطيب المتنبي أبو مرشد المعري ص/١٨

إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن المثنى، أخبرنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي المتوكل، عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) ساقط من "ب".

(٢) انظر: زاد المسير: ٤ / ٢٦٤.." (١)

"كفار، فهزمهم وسبى كثيرا منهم وجاء بهم إلى خراسان، وكان الأمير أبو جعفر يكرر إنشاد هذه الأبيات:

ومثلي لا يقيم على هوان ... لديك ولست أرضى بالهوان

فإن أكرمتني وعرفت حقي ... تجدني في النصيحة غيروان

وإلا فالسلام عليك مني ... دهورا لا أراك ولا تراني

وكان ابن الأمير أبي جعفر الزيادي وهو الأمير أبو الفضل زياد بن أحمد بن مسلم الزيادي قد أصبح واليا على بيهق في آخر عهد السامانيين، وقد جرت العادة- في آخر عهد السامانيين- أن يؤخذ قسم من تركة كل من يموت من عمال الديوان، فأضاف الأمير أبو الفضل الزيادي ببيهق إلى ذلك، أنه كان يأخذ نصيبا من تركة كل ميت لا ابن له- حتى لو كان له ورثة آخرون- ومر وقت كان يأخذ من تركة كل متوفى حتى لو كان لديه أولاد وورثون، ولم يأت هذا الظلم بالبركة على الزياديين، فلما حكم السلطان محمود [بن سبكتكين] أسقط ذلك الظلم ولم يرض عنه، وأعطى الحق في ذلك ‌لمن لهم الحق في الإرث من العصبة وأولي الأرحام.

وكان الأمير أبو الفضل زياد بن أحمد هذا في خدمة الأمير أبي علي سيمجور «١» ، وكذلك في خدمة الأمير أبي القاسم سيمجور «٢» ، وقد ألقي القبض عليهما معا." (٢)

"على الجماهير ويفسر لهم أحكام شريعتهم. ثم ينهض كبار المسلمين فيرتلون الدعاء له ويشيدون بعظمته وفضله، فيهتف الجميع «آمين!» .

ثم يمنحهم الخليفة مباركته ويؤتى له بجمل ينحره، وهذا هو قربان العيد عندهم. فيوزع اللحم على العظماء

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٢٩/٥

(٢) تاريخ بيهق/تعريب البيهقي، ظهير الدين ص/٢٥٧

والأمراء. والسعيد منهم من يذوق أضحية خليفته.

وبعد هذا يبارح الموكب المصلى، فيعود الخليفة وحده بطريق الشارع المشرف على دجلة، ويواكبه عظماء المسلمين في قوارب تمخر مياه النهر حتى يدخل الخليفة قصره. **وقد جرت العادة أن** تكون عودة الخليفة بغير الطريق التي خرج منها. ويقوم الحراس طوال أيام السنة على منع الناس مع وطء موضع أقدام الخليفة. والخليفة لا يبارح قصره إلا في العام القابل، وهو عظيم التقوى والصلاح.

ويقوم على الجانب الغربي من مدينة بغداد، بين نهر دجلة ونهر آخر يأتي من الفرات بناء المارستان «١» . وهو مجموعة من البنايات الواسعة،." (١)

"علي: ليس مذهب ابن عيينة بالقوي، لأنهن لو بلغن ما بلغن، لم تجز شهادتهن إلا أن يكون معهن رجل، ولأن الضلال هاهنا: النسيان، فينبغي أن يقابل بما يعادله، وهو التذكير.

قوله تعالى: ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا، قال قتادة: كان الرجل يطوف في الحواء «١» العظيم، فيه القوم فيدعوهم إلى الشهادة فلا يتبعه منهم أحد، فنزلت هذه الآية. وإلى ماذا يكون هذا الدعاء؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: إلى تحمل الشهادة، وإثباتها في الكتاب، قاله ابن عباس، وعطية، وقتادة، والربيع. والثاني: إلى إقامتها وأدائها عند الحكام بعد أن تقدمت شهادتهم بها، قاله سعيد بن جبير، وطاوس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والشعبي، وأبو مجلز، والضحاك، وابن زيد، ورواه الميموني عن أحمد بن حنبل. والثالث: إلى تحملها وإلى أدائها، روي عن ابن عباس، والحسن، واختاره الزجاج، قال القاضي أبو يعلى: إنما يلزم الشاهد أن لا يأبى إذا دعي لإقامة الشهادة إذا لم يوجد من يشهد غيره، فأما إن كان قد تحملها جماعة، لم تتعين عليه، وكذلك في حال تحملها، لأنه فرض على الكفاية كالجهاد، فلا يجوز لجميع الناس الامتناع منه.

قوله تعالى: ولا تسئموا، أي: لا تملوا ولا تضجروا أن تكتبوا القليل والكثير الذي **قد جرت العادة بتأجيله** إلى أجله، أي: إلى محل أجله ذلكم أقسط عند الله، أي: أعدل، وأقوم للشهادة لأن الكتاب يذكر الشهود جميع ما شهدوا عليه وأدنى أي: أقرب ألا ترتابوا أي: لا تشكوا إلا أن تكون الأموال تجارة أي: إلا أن تقع تجارة. وقرأ عاصم «تجارة» بالنصب على معنى:

إلا أن تكون الأموال تجارة حاضرة، وهي البيوع التي يستحق كل واحد منهما على صاحبه تسليم ما عقد عليه من جهته بلا تأجيل. فأباح ترك الكتاب فيها توسعة، لئلا يضيق عليهم أمر تبايعهم في مأكول ومشروب. قوله تعالى: وأشهدوا إذا تبايعتم، الإشهاد مندوب إليه فيما جرت العادة بالإشهاد عليه.

---

(١) رحلة بنيامين التطيلي بنيامين التطيلي ص/٢٩٧

فصل: وهذه الآية تتضمن الأمر باثبات الدين في كتاب، وإثبات شهادة في البيع والدين.

واختلف العلماء، هل هذا أمر وجوب «٢» ، أم على وجه الاستحباب؟ فذهب الجمهور إلى أنه أمر ندب واستحباب، فعلى هذا هو محكم، وذهبت طائفة إلى أن الكتابة والإشهاد واجبان، روي عن ابن عمر وأبي موسى ومجاهد وابن سيرين وعطاء والضحاك وأبي قلابة والحكم وابن زيد. ثم اختلف هؤلاء، هل هذا الحكم باق أم منسوخ؟ فذهب أكثرهم إلى أنه محكم غير منسوخ، وذهبت طائفة إلى أنه منسوخ بقوله تعالى: فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته.

قوله تعالى: ولا يضار كاتب ولا شهيد، قرأ أبو جعفر بتخفيف الراء من «يضار» وسكونها.

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: إن معناه: لا يضار بأن يدعى وهو مشغول، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، والربيع بن أنس، والفراء، ومقاتل. وقال الربيع: كان أحدهم

---

(١) في «اللسان» : الحواء: جماعة بيوت الناس إذا تدانت، والجمع الأحوية. [.....]

(٢) قال الحافظ ابن كثير ١/ ٣٣٦ عند هذه الآية وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب لا على الوجوب.." (١)

"[سورة هود (١١) : آية ٢٣]

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون (٢٣)

اعلم أنه تعالى لما ذكر عقوبة الكافرين وخسرانهم، أتبعه بذكر أحوال المؤمنين، والإخبات هو الخشوع والخضوع وهو مأخوذ من الخبت وهو الأرض المطمئنة وخبت ذكره أي خفي، / فقوله: «أخبت» أي دخل في الخبت، كما يقال فيمن صار إلى نجد أنجد وإلى تهامة أتهم، ومنه المخبت من الناس الذي أخبت إلى ربه أي اطمأن إليه، ولفظ الإخبات يتعدى بإلى وباللام، فإذا قلنا: أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه، وإذا قلنا أخبت له فمعناه خشع له.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إشارة إلى جميع الأعمال الصالحة، وقوله وأخبتوا إشارة إلى أن هذه الأعمال لا تنفع في الآخرة إلا مع الأحوال القلبية ثم إن فسرنا الإخبات بالطمأنينة كان المراد أنهم يعبدون الله وكانت قلوبهم عند أداء العبادات مطمئنة بذكر الله فارغة عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى أو يقال إنما قلوبهم صارت مطمئنة إلى صدق الله بكل ما وعدهم من الثواب والعقاب،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢٥٢/١

وأما إن فسرنا الإخبات بالخشوع كان معناه أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفين وجلين من أن يكونوا أتوا بها مع وجود الإخلال والتقصير، ثم بين أن من حصل له هذه الصفات الثلاثة فهم أصحاب الجنة، ويحصل لهم الخلود في الجنة.

[سورة هود (١١) : آية ٢٤]

مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون (٢٤)

واعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين ذكر فيهما مثالا مطابقا ثم اختلفوا فقيل: إنه راجع إلى من ذكر آخرا من المؤمنين والكافرين من قبل، وقال آخرون: بل رجع إلى قوله: أفمن كان على بينة من ربه [هود: ١٧] ثم ذكر من بعده الكافرين ووصفهم بأنهم لا يستطيعون السمع ولا يبصرون، والسميع والبصير هم الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم.

واعلم أن وجه التشبيه هو أنه سبحانه خلق الإنسان مركبا من الجسد ومن النفس، وكما أن للجسد بصرا وسمعا فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر، وكما أن الجسد إذا كان أعمى أصم بقي متحيرا لا يهتدي إلى شيء من المصالح، بل يكون كالتائه في حضيض الظلمات لا يبصر نورا يهتدي به ولا يسمع صوتا، فكذلك الجاهل الضال المضل، يكون أعمى وأصم القلب، فيبقى في ظلمات الضلالات حائرا تائها.

ثم قال تعالى: أفلا تذكرون منبها على أنه يمكنه علاج هذا العمى وهذا الصمم، وإذا كان/ العلاج ممكنا من الضرر الحاصل بسبب حصول هذا العمى وهذا الصمم وجب على العاقل أن يسعى في ذلك العلاج بقدر الإمكان.

واعلم أنه **قد جرت العادة بأنه** تعالى إذا ورد على الكافر أنواع الدلائل أتبعها بالقصص، ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل على ما قررنا هذا المعنى في مواضع كثيرة، وفي هذه السورة ذكر أنواعا من القصص.." (١)

"أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم ورابعها: قوله: فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها، فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى وخامسها: وهو أقوى الوجوه/ أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧/٣٣٥

بلغت رسالته والله يعصمك من الناس [المائدة: ٦٧] فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب أن جمعا من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة، ولنشرع الآن في التفصيل فنقول التمني جاء في اللغة لأمرين: أحدهما: تمني القلب والثاني: القراءة قال الله تعالى: ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني [البقرة: ٧٨] أي إلا قراءة لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف وإنما يعلمه قراءة، وقال حسان:

تمنى كتاب الله أول ليلة ... وآخرها لاقى حمام المقادر

قيل إنما سميت القراءة أمنية لأن القارئ إذا انتهى إلى آية رحمة تمنى حصولها وإذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها، وقال أبو مسلم التمني هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية وفاة الإنسان في الوقت الذي قدره الله تعالى، ومنى الله لك أي قدر لك. وقال رواة اللغة الأمنية القراءة واحتجوا ببيت حسان، وذلك راجع إلى الأصل الذي ذكرناه فإن التالي مقدر للحروف ويذكرها شيئا فشيئا، فالحاصل من هذا البحث أن الأمنية، إما القراءة، وإما الخاطر، أما إذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان: الأول: أنه تعالى أراد بذلك ما يجوز أن يسهو الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ويشتبه على القارئ دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى الثاني: المراد منه وقوع هذه الكلمة في قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه: الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد تكلم به لكنه عليه السلام لما قرأ سورة النجم اشتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظه ما رووه من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب إليه جماعة وهو ضعيف لوجوه: أحدها: أن التوهم في مثل ذلك إنما يصح فيما **قد جرت العادة بسماعه** فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه وثانيها: أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فإن العادة مانعة من اتفاق الجم العظيم في الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد في المحسوسات وثالثها: لو كان كذلك لم يكن مضافا إلى الشيطان الوجه الثاني: قالوا إن ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بأن تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أوقعه في درج تلك التلاوة في بعض وقفاته ليظن أنه من جنس الكلام المسموع من الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا والذي يؤكده أنه لا خلاف في أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يأتي الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات في أثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فإذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول

وما رأوا شخصا آخر ظن الحاضرون أنه كلام/ الرسول، ثم هذا لا يكون قادحا في النبوة لما لم يكن فعلا له، وهذا أيضا ضعيف فإنك إذا جوزت أن يتكلم في أثناء الشيطان كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بما يشتبه على كل السامعين كونه كلاما للرسول بقي هذا الاحتمال في كل ما يتكلم به الرسول فيفضي إلى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع فإن قيل هذا الاحتمال قائم في." (١)

"باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول السلام عليكم، وذلك لأن الدور لم يكن عليها حينئذ ستور.

السؤال السادس: أن كلمة (حتى) للغاية والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ما قبلها فقوله: لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا يقتضي جواز الدخول بعد الاستئذان وإن لم يكن من صاحب البيت إذن فما قولكم فيه؟ الجواب: من وجوه: أحدها: أن الله تعالى جعل الغاية الاستئناس لا الاستئذان، والاستئناس لا يحصل إلا إذا حصل الإذن بعد الاستئذان وثانيها: أنا لما علمنا بالنص أن الحكمة في الاستئذان أن لا يدخل الإنسان على غيره بغير إذنه فإن ذلك مما يسوءه، وعلمنا أن هذا المقصود لا يحصل إلا بعد حصول الإذن، علمنا أن الاستئذان ما لم يتصل به الإذن وجب أن لا يكون كافيا وثالثها: أن قوله تعالى: فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم فحظر الدخول إلا بإذن، فدل على أن الإذن مشروط بإباحة الدخول في الآية الأولى، فإن قيل إذا ثبت أنه لا بد من الإذن فهل يقوم مقامه غيره أم لا؟ قلنا

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رسول الرجل إلى الرجل إذنه»

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إذا دعي أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن»

وهذا الخبر يدل على معنيين أحدهما: أن الإذن محذوف من قوله: حتى تستأنسوا وهو المراد منه والثاني: أن الدعاء إذن إذا جاء مع الرسول وأنه لا يحتاج إلى استئذان ثان، وقال بعضهم إن من **قد جرت العادة له** بإباحة الدخول فهو غير محتاج إلى الاستئذان.

السؤال السابع: ما حكم من اطلع على دار غيره بغير إذنه؟ الجواب: قال الشافعي رحمه الله: لو فقئت عينه فهي هدر، وتمسك بما

روى سهل بن سعد قال: «اطلع رجل في حجرة من حجر النبي صلى الله عليه وسلم ومعه مدرى يحك بها رأسه فقال: لو علمت أنك تنظر إلي لطعنت بها في عينك إنما الاستئذان قبل النظر»

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣٨/٢٣

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من/ اطلع في دار قوم بغير إذنهم ففقؤوا عينه فقد هدرت عينه»

قال أبو بكر الرازي: هذا الخبر يرد لوروده على خلاف قياس الأصول، فإنه لا خلاف أنه لو دخل داره بغير إذنه ففقأ عينه كان ضامنا وكان عليه القصاص إن كان عامدا والأرش إن كان مخطئا، ومعلوم أن الداخل قد اطلع وزاد على الاطلاع، فظاهر الحديث مخالف لما حصل عليه الاتفاق، فإن صح فمعناه: من اطلع في دار قوم ونظر إلى حرمهم ونسائهم فمونع فلم يمتنع فذهبت عينه في حال الممانعة فهي هدر، فأما إذا لم يكن إلا النظر ولم يقع فيه ممانعة ولا نهي، ثم جاء إنسان ففقأ عينه، فهذا جان يلزمه حكم جنايته لظاهر قوله تعالى: العين بالعين إلى قوله: والجروح قصاص [المائدة: ٤٥] واعلم أن التمسك بقوله تعالى: والعين بالعين في هذه المسألة ضعيف، لأنا أجمعنا على أن هذا النص مشروط بما إذا لم تكن العين مستحقة، فإنها لو كانت مستحقة لم يلزم القصاص، فلم قلت: إن من اطلع في دار إنسان لم تكن عينه مستحقة؟ وهذا أول المسألة.

أما قوله: إنه لو دخل لم يجز فقء عينه، فكذا إذا نظر قلنا الفرق بين الأمرين ظاهر، لأنه إذا دخل علم القوم دخوله عليهم فاحترزوا عنه وتستروا، فأما إذا نظر فقد لا يكونون عالمين بذلك فيطلع منهم على ما لا يجوز الاطلاع عليه، فلا يبعد في حكم الشرع أن يبالغ هاهنا في الزجر حسما لباب هذه المفسدة، وبالجملة فرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا القدر من الكلام غير جائز.

السؤال الثامن: لما بينتم أنه لا بد من الإذن فهل يكفي الإذن كيف كان أو لا بد من إذن مخصوص؟." (١)

"أنه قادر على أن ينزل آية يذلون عندها ويخضعون، فإن قيل: كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق؟

قلنا أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين، فذكرت الأعناق لبيان موضع الخضوع، ثم ترك الكلام على أصله، ولما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء، قيل خاضعين كقوله: لي ساجدين [يوسف: ٤] ، وقيل أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما يقال هم الرؤوس والصدور، وقيل هم جماعات الناس، يقال جاءنا عنق من الناس لفوج منهم.

المسألة الرابعة: نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الكهف [٦] : فلعلك باخع نفسك وقوله: فلا تذهب

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣/٣٥٨

نفسك عليهم حسرات [فاطر: ٨] .

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٥ الى ٩]

وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين (٥) فقد كذبوا فسيأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزؤن (٦) أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم (٧) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (٨) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (٩)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين من تمام قوله: إن نشأ ننزل عليهم [الشعراء: ٤] فنبه تعالى على أنه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالإلجاء رحيم بهم من حيث يأتيهم حالا بعد حال بالقرآن، وهو الذكر ويكرره عليهم وهم مع ذلك على حد واحد في الإعراض والتكذيب والاستهزاء، ثم عند ذلك زجر وتوعد لأن المرء إذا استمر على كفره فليس ينفع فيه إلا الزجر الشديد فلذلك قال: فقد كذبوا أي بلغوا النهاية/ في رد آيات الله تعالى فسيأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزؤن وذلك إما عند نزول العذاب عليهم في الدنيا أو عند المعاينة أو في الآخرة، فهو كقوله تعالى: ولتعلمن نبأه بعد حين [ص: ٨٨] **وقد جرت العادة فيمن** يسيء أن يقال له سترى حالك من بعد على وجه الوعيد، ثم إنه تعالى بين أنه مع إنزاله القرآن حالا بعد حال قد أظهر أدلة تحدث حالا بعد حال فقال: أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم والزوج هو الصنف [من النبات] «١» والكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه، يقال وجه كريم إذا كان مرضيا في حسنه وجماله. وكتاب كريم إذا كان مرضيا في فوائده ومعانيه، والنبات الكريم هو المرضي فيما يتعلق به من المنافع، وفي وصف الزوج بالكريم وجهان: أحدهما: أن النبات على نوعين نافع وضار، فذكر سبحانه كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وترك ذكر الضار والثاني: أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعا بالكرم، ونبه على أنه ما أنبت شيئا إلا وفيه فائدة إن غفل عنها الغافلون.

أما قوله: إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين فهو كقوله: هدى للمتقين [البقرة: ٢] والمعنى أن في ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أي مع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم، فأما

(١) زيادة من الكشاف ٣/ ١٠٥ ط. دار الفكر.." (١)

"[الزخرف: ٢٠] ورابعها: قوله وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف: ٣١] وخامسها: هذه الآية التي نحن الآن في تفسيرها، ولفظ الآية لا يدل إلا على أنه لما ضرب ابن مريم مثلا أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم، فأما أن ذلك المثل كيف كان، وفي أي شيء كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوها كلها محتملة فالأول: أن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون/ عيسى قالوا إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعبدون الملائكة الثاني:

روي أنه لما نزل قوله تعالى: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم [الأنبياء: ٩٨] قال عبد الله بن الزبعرى هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «بل لجميع الأمم» فقال خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيرا وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيرا والملائكة يعبدون، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم «١» فسكت النبي صلى الله عليه وسلم وفرح القوم وضحكوا وضجوا، فأنزل الله تعالى: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون [الأنبياء: ١٠١]

ونزلت هذه الآية أيضا والمعنى، ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلا وجادل رسول الله بعبادة النصارى إياه إذا قومك قريش منه أي من هذا المثل يصدون أي يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحا وجدلا وضحكا بسبب ما رأوا من إسكات رسول الله فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج، وقالوا أآلهتنا خير أم هو يعنون أن آلهتنا عندك ليس خيرا من عيسى فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون الوجه الثالث: في التأويل وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلها لأنفسهم، قال كفار مكة إن محمدا يريد أن يجعل لنا إلها كما جعل النصارى المسيح إلها لأنفسهم، ثم عند هذا قالوا أآلهتنا خير أم هو يعني أآلهتنا خير أم محمد، وذكروا ذلك لأجل أنهم قالوا: إن محمدا يدعونا إلى عبادة نفسه، وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام، وإذا كان لا بد من أحد هذين الأمرين فعبادة هذه الأصنام أولى، لأن آباءنا وأسلافنا كانوا متطابقين عليه، وأما محمد فإنه متهم في أمرنا بعبادته فكان الاشتغال بعبادة الأصنام أولى، ثم إنه تعالى بين أنا لم نقل إن الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن بل هو كلام باطل، فإن عيسى ليس إلا عبدا أنعمنا

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/ ٤٩١

عليه، فإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم في قولهم: إن محمدا يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه، فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية.

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم

يصدون بضم الصاد وهو قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام

والباقون بكسر الصاد وهي قراءة ابن عباس، واختلفوا فقال الكسائي هما بمعنى نحو يعرشون ويعرشون ويعكفون، ومنهم من فرق، أما القراءة بالضم فمن الصدود، أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه، وأما بالكسر فمعناه يضجون.

المسألة الثالثة: قرأ عاصم وحمزة والكسائي أآلهتنا استفهاما بهمزتين الثانية مطولة والباقون استفهاما بهمزة ومدة.

---

(١)

الرواية المشهورة: أن الرسول صلى الله عليه وسلم رد عليه عند ذلك بقوله لابن الزبعرى «ما أجهلك بلغة قومك ما لما لا يعقل» ،

وحينئذ فلا تقع على الذين اتخذهم الكفار آلهة من الأنبياء والملائكة والصالحين وإنما عنى من الأصنام التي عبدوها.." (١)

"تعالى: وإن خفتم شقاق بينهما أي فراق بينهما في الاختلاف حتى يشق أحدهما على الآخر.

البحث الثاني: قوله: وإن تولوا فإنما هم في شقاق أي إن تركوا مثل هذا الإيمان فقد التزموا المناقضة والعاقل لا يلتزم المناقضة البتة فحيث التزموها علمنا أنه ليس غرضهم طلب الدين/ والانقياد للحق وإنما غرضهم المنازعة وإظهار العداوة ثم للمفسرين عبارات. أولها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: فإنما هم في شقاق في خلاف مذ فارقوا الحق وتمسكوا بالباطل فصاروا مخالفين لله. وثانيها: قال أبو عبيدة ومقاتل في شقاق. أي في ضلال. وثالثها: قال ابن زيد في منازعة ومحاربة. ورابعها: قال الحسن في عداوة قال القاضي: ولا يكاد يقال في المعاداة على وجه الحق أو المخالفة التي لا تكون معصية إنه شقاق وإنما يقال ذلك في مخالفة عظيمة توقع صاحبها في عداوة الله وغضبه ولعنه وفي استحقاق النار فصار هذا القول وعيدا منه تعالى لهم وصار وصفهم بذلك دليلا على أن القوم معادون للرسول مضمرون له السؤال مترصدون

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٣٩/٢٧

لإيقاعه في المحن، فعند هذا آمنه الله تعالى من كيدهم وآمن المؤمنين من شرهم ومكرهم فقال: فسيكفيكهم الله تقوية لقبه وقلب المؤمنين لأنه تعالى إذا تكفل بالكفاية في أمر حصلت الثقة به قال المتكلمون: هذا إخبار عن الغيب فيكون معجزا دالا على صدقه وإنما قلنا إنه إخبار عن الغيب وذلك لأنا وجدنا مخبر هذا القول على ما أخبر به لأنه تعالى كفاه شر اليهود والنصارى ونصره عليهم حتى غلبهم المسلمون وأخذوا ديارهم وأموالهم فصاروا أذلاء في أيديهم يؤدون إليهم الخراج والجزية أو لا يقدرون البتة على التخلص من أيديهم وإنما قلنا: إنه معجز لأنه المتخرص لا يصيب في مثل ذلك على التفصيل، قال الملحدون: لا نسلم أن هذا معجز وذلك لأن المعجز هو الذي يكون ناقضا للعادة، **وقد جرت العادة بأن** كل من كان مبتلى بإيذاء غيره فإنه يقال له: اصبر فإن الله يكفيك شره، ثم قد يقع ذلك تارة ولا يقع أخرى، وإذا كان هذا معتادا فكيف يقال: إنه معجز وأيضا لعله توصل إلى ذلك برؤيا رآها، وذلك مما لا سبيل إلى دفعه، فإن المنجمين يقولون: من كان سهم الغيب في طالعه فإنه يأتي بمثل هذه الأخبار وإن لم يكن نبيا. والجواب: أنه ليس غرضنا من قولنا أنه معجز أن هذا الإخبار وحده معجز، بل غرضنا أن القرآن يشتمل على كثير من هذا النوع، والإخبار عن الأشياء الكثيرة على سبيل التفصيل مما لا يتأتى من المتخرص الكاذب.

[في معنى وهو السميع العليم] ثم إنه تعالى لما وعده بالنصرة والمعونة أتبعه بما يدل على أن ما يسرون وما يعلنون من هذا الأمر لا يخفى عليه تعالى فقال: وهو السميع العليم وفيه وجهان. الأول: أنه وعيد لهم والمعنى أنه يدرك ما يضمرون ويقولون وهو عليم بكل شيء فلا يجوز لهم أن يقع منهم أمر إلا وهو قادر على كفايته إياهم فيه.

الثاني: أنه وعد للرسول عليه السلام يعني: يسمع دعاءك ويعلم نيتك وهو يستجيب لك ويوصلك إلى مرادك، واحتج الأصحاب بقوله: وهو السميع العليم على أن سمعه تعالى زائد على علمه بالمسموعات لأن قوله:

«عليم» بناء مبالغة فيتناول كونه عالما بجميع المعلومات، فلو كان كونه سميعا عبارة عن علمه بالمسموعات لزم التكرار وأنه غير جائز، فوجب أن يكون صفة كونه تعالى سميعا أمرا زائدا على وصفه بكونه عليما والله أعلم بالصواب.

أما قوله: بمثل ما آمنتم به ففيه إشكال وهو أن الذي آمن به المؤمنون ليس له مثل، وجوابه.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٣٨]

صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون (١٣٨)." [١]

"المعنى قال الواحدي حركت بسبب الهم الذي حرك نفسي نوقا خفافا في السير يعني سافرت ولم أعرج بالمقام الذي يلحقني فيه الضيم قال ويجوز أن تكون القلاقل الثانية بمعنى الأولى فيقول خفاف إبل كلهن خفاف ونقل ما قال أبو الفتح وعاب الصاحب إسماعيل بن عباد أبا الطيب بهذا البيت وقال ماله قلقل الله أحشاءه وهذه القافات الباردة ولا يلزمه من هذا عيب **فقد جرت العادة بذلك** وقال أبو نصر بن المرزبان ثلاثة من الشعراء رؤساء شلشل أحدهم وسلسل الثاني وقلقل الثالث فالذي شلشل الأعشى وهو من رؤساء شعراء الجاهلية وهو الذي يقول

(وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني ... شاو مشل شلول شلشل شول)

والذي سلسل مسلم بن الوليد وهو من رؤساء المحدثين

(سلت وسلت ثم سل سليلها ... فأتى سليل سليلها مسلولا)

وأما الذي قلقل فالمتنبي قال الثعالبي فقال لي أبو نصر فبلبل أنت فقلت له أخشى أن أكون رابع الشعراء أعنى قول من قال

(الشعراء فاعلمن أربعه ...)

(فشاعر يجري ولا يجرى معه ...)

(وشاعر ينشد وسط المعمعه ...)

(وشاعر من حقه أن تسمعه ...)

(وشاعر من حقه أن تصفعه ...)

قال ثم قلت بعد مدة من الدهر

(وإذا البلابل أفصحت بلغاتها ... فانف البلابل باحتساء بلابل)

وفي هذا الذي ذكرناه ما يرد قول ابن عباد ويبطله ما جاء مثله عن رؤساء الشعراء

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧٤/٤

٨ – الغريب واراه ستره والمشاعل جمع مشعلة وهي النار الموقدة والمشعلة (بكسر الميم) الآلة التي تحمل فيها النار المعنى يقول إذا سترنا الليل بظلامه أسرعت هذه الإبل حتى تصطك الحجارة بعضها ببعض وتنقدح النار فنرى مالا نراه بضوء المشاعل وهذا من المبالغة

٩ – الغريب الوجناء الناقة الغليظة الوجنات ويقال هو من الوجين وهو ما غلظ من الأرض." (١)

"فاحشة وأن الإمساك عن التقصي في البحث لحسرة علينا غدا عظيمة لما نعدم في الأرض من وجود الفاتح لما تريده فقال له يا سيماس لا تدعن التقصي لشيء أردته فإن تقصيك لذلك هو الذي أسر به وليس بين هذه الحال عندي وبين الحال الأخرى فرق في الحرص على تقصي الحق فإنا وإن كنا نعدم أصحابا ورفقاء إشرافا محمودين فاضلين فإنا أيضا إذ كنا معتقدين متيقنين بالأقاويل التي لم تزل منا نصير إلى إخوان فاضلين إشراف محمودين منهم اسلاؤس واملوس وارقيليس وجميع من سلف من ذوي الفضائل الإنسانية وعدد أقواما غير من ذكرنا فلما تصرم القول في السفس وبلغوا من سؤالهم الغرض الذي أرادوا سألوه عن هيئة العالم وما عنده من الخبر في ذلك فقال أما ما اعتقدناه وبيناه فهو أن الأرض كروية وأن الأفلاك محيطة بها ومحيط بعضها ببعض الأعظم بالذي يليه في العظم وأن لها من الحركات ما **قد جرت العادة بالقول** به وسمعتموه منا كثير ا فأما ما وصف أناس آخرون فإنهم وصفوا شيئا كثيرا ثم قص قصصا طويلة في ذلك مما ذكره الشعراء اليونانيون القائلون في الأشياء الإلهية كاوميروس وارقاؤس وأسيدوس وابيذقليس ثم قال أما ما قلنا في النفس وفي هيئة الأرض والأفلاك فلم نخدع فيه ولم نقل غير الحق فأما هذه الأشياء الأخر فإنه ليس بحثها من فعل رجل حكيم فلما فرغ من ذلك قال أما الآن فأظنه قد حضرت الساعة التي ينبغي أن نستجم فيها فلا نكلف النساء إحمام الموتى في صيوان الحكم فإن الأمر يأتي يعني السياسة قد دعتنا ونحن ماضون إلى اذوس فإن الأمر فان ونحن ماضون إلى تراوس وأما أنتم فتنصرفون إلى أهاليكم ثم نهض ودخل بيتا يستحم فيه فأطال اللبث فيه ونحن نتذاكر ما نزل بنا من فقده وإنا نعدم أبا شفيقا وتبقى بعده كاليتامى ثم خرج إلينا وقد استحم فجلس ودعا بولده ونسائه فأتى بهم وكان له ابنان صغيران وابن كبير فودعهم وأوصاهم بالذي أراد و أمر بصرفهم فقال له قريطون ما الذي تأمرنا به أن نفعله في ولدك وأهلك وغير ذلك من أمرك فقلت لست آمركم بشيء جديد بل هو الذي لم أزل آمركم به من الاجتهاد في إصلاح

(١) شرح ديوان المتنبي للعكبري العكبري، أبو البقاء ١٧٦/٣

أنفسكم فإنكم إذا فعلتم ذلك سررتموني وسررتم كل من هو مني بسبيل فقال له اقريطون فما الذي تأمرنا بك أن نعمل إذا مت فضحك ثم." (١)

"القسم الثاني

أن يكون قد حصل لهم شيء منها بالرؤيا الصادقة مثل ما حكى جالينوس في كتابه في الفصد من فصده للعرق الضارب الذي أمر به

وذلك أنه قال

إني أمرت في منامي مرتين بفصد العرق الضارب الذي بين السبابة والإبهام من اليد اليمنى فلما أصبحت فصدت هذا العرق وتركت الدم يجري إلى أن انقطع من تلقاء نفسه لأني كذلك أمرت في منامي

فكان ما جرى أقل من رطل فسكن عني بذلك على المكان وجع كنت أجده قديما في الموضع الذي يتصل به الكبد بالحجاب

وكنت في وقت ما عرض لي هذا غلاما

قال وأعرف إنسانا بمدينة فرغامس شفاه الله تعالى من وجع مزمن كان به في جنبه بفصد العرق الضارب من كفه والذي دعا ذلك الرجل إلى أن يفعل ذلك رؤيا رآها

وقال في المقالة الرابعة عشرة من كتابه في حيلة البرء قد رأيت لسانا عظم وانتفخ حتى لم يسعه الفم وكان الذي أصابه ذلك رجلا لم يعتد إخراج الدم قط وكان من أبناء ستين سنة وكان الوقت الذي رأيته فيه أول مرة الساعة العاشرة من النهار فرأيت أنه ينبغي لي أن أسهله بهذا الحب الذي **قد جرت العادة باستعماله** وهو الحب المتخذ بالصبر والسقمونيا وشحم الحنظل فسقيته الدواء نحو العشاء وأشرت عليه أن يضع على العضو العليل بعض الأشياء التي تبرد

وقلت له افعل هذا حتى أنظر ما يحدث فأقدر المداواة على حسبه

ولم يساعدني على ذلك رجل حضره من الأطباء فبهذا السبب أخذ الرجل ذلك الحب وتأخر النظر في أمر ما يداوي به العضو نفسه إلى الغد

(١) أخبار العلماء بأخيار الحكماء القفطي، جمال الدين ص/١٥٧

وكنا نطمع جميعا أن يكون قد تبين فيه حسن أثر الشيء الذي يداوى به ونجربه عليه
إذ كان فيه يكون البدن قد استفرغ كله والشيء المنصب إلى العضو قد انحدر إلى أسفل." (١)

"المطران قال حدثني أبي حدثني إسماعيل بن رشيد قال حدثني أبو الفرج بن توما وأبو الفرج المسيحي قالا كان الأجل أمين الدولة بن التلميذ جالسا ونحن بين يديه إذا استأذنت عليه امرأة ومعها صبي صغير فأدخلت عليه فحين رآه بدرها فقال إن صبيك هذا به حرقة البول وهو يبول الرمل فقالت نعم قال فيستعمل كذا وكذا وانصرفت

قالا فسألناه عن العلامة الدالة على أن به ذلك وأنه لو أن الآفة في الكبد أو الطحال لكان اللون من الاستدلال مطابقا

فقال حين دخل رأيته يولع بأحليله ويحكه ووجدت أنامل يديه مشققة قاحلة فعلمت أن الحكة لأجل الرمل وإن تلك المادة الحادة الموجبة للحكة والحركة ربما لامست أنامله عند ولوعه بالقضيب فتقحل وتشقق فحكمت بذلك وكان موافقا

ومن نوادر أمين الدولة وحسن إشارته إنه كان يوما عند المستضيء بأمر الله وقد أسن أمين الدولة
فلما نهض للقيام توكأ على ركبتيه فقال له الخليفة كبرت يا أمين الدولة

فقال نعم يا أمير المؤمنين وتكسرت قواريري ففكر الخليفة في قول أمين الدولة وعلم أنه لم يقله إلا لمعنى قد قصده وسأل عن ذلك فقيل له إن الإمام المستنجد بالله كان قد وهبه ضيعة تسمى قوارير وبقيت في يده زمانا ثم من مدة ثلاث سنين حط الوزير يده عليها

فتعجب الخليفة من حسن أدب أمين الدولة وأنه لم ينه أمرها إليه ولا عرض بطلبها
ثم أمر الخليفة بإعادة الضيعة إلى أمين الدولة وأن لا يعارض في شيء من ملكه

ومن نوادره أن الخليفة كان قد فوض إليه رئاسة الطب ببغداد ولما اجتمع إليه سائر الأطباء ليرى ما عند كل واحد منهم من هذه الصناعة كان من جملة من حضره شيخ له هيئة ووقار وعنده سكينة فأكرمه أمين الدولة وكانت لذلك الشيخ دربة ما بالمعالجة ولم يكن عنده من علم صناعة الطب إلا التظاهر بها

فلما انتهى الأمر إليه قال له أمين الدولة ما السبب في كون الشيخ لم يشارك الجماعة فيما يبحثون فيه حتى نعلم ما عنده من هذه الصناعة فقال يا سيدنا وهل شيء مما تكلموا فيه إلا وأنا أعلمه وقد سبق إلى فهمي أضعاف ذلك مرات كثيرة فقال له أمين الدولة فعلى من كنت قد قرأت هذه الصناعة فقال الشيخ يا سيدنا

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ابن أبي أصيبعة ص/١٩

إذا صار الإنسان إلى هذه السن ما يبقى يليق به إلا أن يسأل كم له من التلاميذ ومن هو المتميز فيهم وأما المشايخ الذين قرأت عليهم فقد ماتوا من زمان طويل

فقال له أمين الدولة يا شيخ هذا شيء **قد جرت العادة به** ولا يضر ذكره ومع هذا فما علينا أخبرني أي شيء قد قرأته من الكتب الطبية وكان قصد أمين الدولة أن يتحقق ما عنده

فقال سبحان الله العظيم صرنا إلى حد ما يسأل عنه الصبيان وأي شيء قد قرأته من الكتب يا سيدنا لمثلي ما يقال إلا أي شيء صنفته في صناعة الطب وكم لك فيها من الكتب والمقالات ولا بد أنني أعرفك بنفسي

ثم إنه نهض إلى أمين الدولة ودنا منه وقعد عنده وقال." (١)

"٣- إضاءة: وطرق وقوع التخييل في النفس: إما أن تكون بأن يتصور في الذهن شيء من طريق الفكر وخطرات البال، أو بأن تشاهد شيئا فتذكر به شيئا، أو بأن يحاكى لها الشيء بتصوير نحتي أو خطي أو ما يجرى مجرى ذلك، أو يحاكى لها صوته أو فعله أو هيأته بما يشبه ذلك من صوت أو فعل أو هيأة، أو بأن يحاكى لها معنى بقول يخيله لها -وهذا هو الذي نتكلم فيه نحن في هذا المنهج- أو بأن يوضع لها علامة من الخط تدل على القول المخيل، أو بأن تفهم ذلك بالإشارة.

د- معرف دال عل طرق المعرفة بجهات مواقع التخييل من الأقاويل وما بإزائها من المعاني وما يحسن أن ينحى بالمحاكاة نحوه من ذلك وما لا يحسن.

وأحسن مواقع التخييل: أن يناط بالمعاني المناسبة للغرض الذي فيه القول متخييل الأمور السارة في التهاني، والأمور المفجعة في المراثي. فإن مناسبة المعنى للحال التي فيها القول وشدة التباسه بها يعاون التخييل على م‌ا يراد من تأثر النفس لمقتضاه.

١- إضاءة: ويحسن موقع التخييل من النفس، أن يترامى بالكلام على أنحاء من التعجيب، فيقوى بذلك تأثر النفس لمقتضى الكلام.

والتعجب يكون باستبداع ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقل التهدي إلى مثلها. فورودها مستندر مستطرف لذلك: كالتهدي إلى ما يقل التهدي إليه من سبب للشيء تخفى سببيته، أ، غاية له، أو شاهد عليه، أو شبيه له أو معاند، وكالجمع بين مفترقين من جهة لطيفة قد انتسب بها أحدهما على الآخر، وغير

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ابن أبي أصيبعة ص/٣٥١

ذلك من الوجوه التي من شأن النفس أن تستغربها.

٢- تنوير: ويجب ألا يسلك بالتخييل مسلك السذاجة في الكلام، ولكن يتقاذف بالكلام في ذلك إلى جهات من الوضع الذي تتشافع فيه التركيبات المستحسنة والترتيبات والاقترانات والنسب الواقعة بين المعاني. فإن ذلك مما يشد أزر المحاكاة ويعضدها. ولهذا نجد المحاكاة أبدا يتضح حسنها في الأوصاف الحسنة التناسق، المتشاكلة الاقتران، المليحة التفصيل، وفي القصص الحسن الاطراد، وفي الاستدلال بالتمثيلات والتعليلات، وفي التشبيهات والأمثال والحكم، لأن هذه أنحاء من الكلام **قد جرت العادة في** أن يجهد في تحسين هيآت الألفاظ والمعاني وترتيباتها فيها.

٣- إضاءة وإذا كان في قوة القول البسيط أو القريب من البساطة أن يتخيل منه أشياء لو وضع اللفظ طبقا لها لم يكن إلا متركبا، حسن الهيئة، جرى مجرى ما قبله في الاستحسان. وذلك كالتشبيه بغير حرف وكالاستعارة وما جرى مجراهما في ذلك.

هـ- معلم دال على طرق العلم بما تنقسم غليه المحاكاة.

لا يخلو المحاكي من أن يحاكي موجودا بموجود أو بمفروض الوجود مقدره. ومحاكاة الموجود بالموجود لا تخلو من أن تكون محاكاة شيء بما هو من جنسه أو محاكاة شيء بما ليس من جنسه. ومحاكاة محسوس بغير محسوس، أو غير محسوس بمحسوس، أو مدرك بغير الحس بمثله في الإدراك. وكل ذلك لا يخلو من أن يكون محاكاة معتاد بمعتاد، أو مستغرب بمستغرب، أو معتاد بمستغرب، أو مستغرب بمعتاد. وكلما قرب الشيء مما يحاكى به كان أوضح شبها. وكلما اقترنت الغرابة والتعجيب بالتخييل كان أبدع.

١- إضاءة: وتنقسم التخاييل والمحاكيات بحسب ما يقصد بها إلى: محاكاة تحسين، ومحاكاة تقبيح، ومحاكاة مطابقة لا يقصد بها إلا ضرب من رياضة الخواطر والملح في بعض الواضع التي يعتمد فيها وصف الشيء ومحاكاته بما يطابقه ويخيله على ما هو عليه. وربما كان القصد بذلك ضربا من التعجيب أو الاعتبار. وربما كانت محاكاة المطابقة في قوة المحاكاة التحسينية أو التقبيحية. فإن أوصاف الشيء الذي يقصد في محاكاته المطابقة لا تخلو من أن تكون من قبيل ما يحمد ويذم وإن قل قسطها مثلا من الحمد والذم. فكأن التخييل بالجملة لم يخل من تحريك النفس إلى استحسان أو إلى استقباح. فلهذا كانت قوة محاكاة المطابقة في كثير من المواضع قوة إحدى المحاكاتين التحسينية أو التقبيحية، لكنها قسم ثالث

على كل حال، إذ لم تخلص على تحسين ولا تقبيح.

وقد ذكر هذا أبو علي بن سينا، وقسم المحاكيات هذه القسمة.." (١)

"ورجعت بقاياهم التي كانت في الشواهق إلى مواطنهم بعد أن دوخ بختنصر بلادهم، وخرب المعمور، واستأصل أهل حضور".

قال البيهقي: ثم إن معدا رده الله في حق بني إسماعيل، فدانت له، وملكته عليها.

قال: وحفظ عنه من الكلمات المفيدة أن أحد أعزاء العرب طلب منه أن يميل معه في الحكم وقال له: كن معي! فقال: لا أكون إلا مع من ردني إلى أن أحكم عليك وعلى غيرك بغير طاقة ولا مقدرة! فأقر ذلك الرجل، وعلم أنه مع الحق، واعترف لخصمه.

ولما حضرته الوفاة قيل له: من تقدم من ولدك على الناس، **فقد جرت العادة بذلك**؟ فقال: أما أنا فأريد أن أقدم قنصا، والله يريد أن يقدم نزارا! قم قضى نحبه.

قال صاحب التيجان: ثم ولي أمر مكة بعد موت معد ابنه

قنص بن معد بن عدنان.

قنص بن معد بن عدنان

ذكر صاحب الكمائم أن أخاه نزارا كان أولى بالسلطنة منه، ولكن غلب حب قنص على قلب أبيه فولاه، وكان أيضا أكبر ولده.." (٢)

"الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الإخوة لم ينقص عنها ثم **قد جرت العادة على** أنه إذا نشب مثل ذلك بين الاخوين ولا الزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته بالصلح بينهما فالاخوة في الدين احق ﴿واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾

بذلك أخوتكم يعقوب ﴿واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ أي واتقوا الله فالتقوى تحملكم على التواصل والائتلاف

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء القرطاجني ص/٢٨

(٢) نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ابن سعيد المغربي ص/٣١٣

وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم مرجوا والآية تدل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان لأنه سماهم مؤمنين مع وجود البغي." (١)

"فوجدت معلقا بدفة كتاب معونة الطلاب لفقه معاني كتاب الشهاب تأليف ولده طاهر وبخطه أيضا ما مثاله وللوالد رحمه الله ... أليس الله خالق كل جسم ... وأعراض العباد بلا مراء

وما عرض يخص بذا ولكن ... عموما في الجميع على سواء

فهل أفعالنا والقول فيها ... سوى عرض يقوم بلا بقاء ... ثم بعد ذلك الأبيات المتقدمة قال مؤلفه عفا الله عنه أخذ الشيخ هذه الأبيات فيما أظنه من قول الخطابي وهو قوله ... وما غربة الإنسان في شقة النوى ... ولكنها والله من عدم الشكل

وإني غريب بين بست وأهلها ... وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي ... ومن الشعر الذي أورده ابن سمرة في مدح الشيخ رحمه الله قول بعض أهل عصره ... لله شيخ من بني عمران ... قد كان شاد العلم بالأركان

يحيى لقد أحيا الشريعة هاديا ... بزوائد وغرائب وبيان

هو درة اليمن الذي ما مثله ... من أول في عصرنا أو ثاني ... وكانت وفاته بقرية ذي السفال مبطونا وقد عد النبي صلى الله عليه وسلم المبطون شهيدا وذلك بعد أن اعتقلت لسانه ليلتين ويوما ومتى جاء وقت الصلاة سأل عن ذلك بالإشارة فإذا قيل له بالوقت صلى ثم كان لا يزال يشير بالتهليل يعرف ذلك منه برفع مسبحته ويحركها ثم توفي في آخر ليلة الأربعاء بعد طلوع الفجر سادس عشر ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وقبر بجرب له بالقرب من أرضه وقبره من القبور المعدودة للزيارة واستنجاز الحوائج والتوسل إلى الله بأصحابها وقد زرته بحمد الله مرارا

وقد جرت العادة غالبا متى عرض ذكر أحد من الأعيان ذكرت من ذكره ما لاق." (٢)

"وأوحى ربك إلى النحل لما ذكر الله سبحانه وتعالى دلائل قدرته، وعجائب صنعته الدالة على وحدانيته من إخراج اللبن من بين فرث، ودم وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل، والأعناب ذكر في هذه الآية إخراج العسل الذي جعله شفاء للناس من دابة ضعيفة، وهي النحلة فقال سبحانه وتعالى وأوحى ربك إلى النحل الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به كل فرد من الناس ممن له عقل، وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وأنه الخالق لجميع الأشياء المدبر لها بلطيف حكمته،

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣/٣٥٣

(٢) السلوك في طبقات العلماء والملوك الجُنْدي، بهاء الدين ١/٣٠٠

وقدرته وأصل الوحي الإشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز، والتعريض وقد يكون بصوت مجرد ويقال للكلمة الإلهية التي يلقيها الله إلى أنبيائه وحي وإلى أوليائه إلهام وتسخير الطير لما خلق له ومنه قوله تعالى «وأوحى ربك إلى النحل» يعني أنه سخرها لما خلقها له، وألهمها رشدها وقدر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر، وذلك أن النحل تبني بيوتا على شكل مسدس من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة، أو غير ذلك من الأشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فألهمها الله سبحانه وتعالى، أن تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل وفرجة خالية ضائعة وألهمها الله تعالى أيضا أن تجعل عليها أميرا كبيرا نافذ الحكم فيها وهي تطيعه، وتمتثل أمره ويكون هذا الأمير أكبرها جثة وأعظمها خلقة ويسمى يعسوب النحل يعني ملكها كذا حكاه الجوهري وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضا أنها تخرج من بيوتها، فتدور وترعى ثم ترجع إلى بيوتها، ولا تضل عنها. ولما امتار هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة، الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الإلهام الإلهي فكان ذلك شبيها بالوحي، فلذلك قال تبارك وتعالى: وأوحى ربك إلى النحل، والنحل زنبور العسل ويسمى الدبر أيضا، قال الزجاج:

يجوز أن يقال سمي هذا الحيوان نحلا لأن الله سبحانه وتعالى، نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها بمعنى أعطاهم. وقال غيره: النحل يذكر ويؤنث وهي مؤنثة في لغة الحجاز، وكذا أنثها الله تعالى فقال أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون يعني يبنون ويثقفون وذلك أن النحل منه وحشي، وهو الذي يسكن الجبال والشجر ويأوي إلى الكهوف ومنه أهلي وهو الذي يأوي إلى البيوت، ويربيه الناس **وقد جرت العادة أن** الناس يبنون للنحل الأماكن حتى تأوي إليها، وقال ابن زيد: أراد بالذي يعرشون الكروم ثم كلي من كل الثمرات يعني من بعض الثمرات لأنها لا تأكل من جميع الثمار فلفظة كل هاهنا ليست للعموم فاسلكي سبل ربك يعني الطرق التي ألهمك الله أن تسلكيها، وتدخلي فيها لأجل طلب الثمرات ذللا قيل إنها نعت للسبل يعني أنها مذللة لك الطرق مسهلة لك مسالكها. قال مجاهد: لا يتوعر عليها مكان تسلكه. وقيل: الذلل نعت للنحل يعني أنها مذللة مسخرة لأربابها مطيعة منقادة لهم حتى أنهم ينقلونها من مكانها إلى مكان آخر حيث شاؤوا! وأرادوا لا تستعصي عليهم يخرج من بطونها شراب يعني العسل مختلف ألوانه يعني ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل. وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والأزهار، ويستحيل في بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب، وزعم الإمام فخر الدين الرازي أنه رأى في بعض كتب الطب، أن العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على

الأزهار، وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه، وتدخر بعضه في بيوتها لأنفسها للتغذى به فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير، فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب إلى العقل لأن طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل، وأيضا فإنا نشاهد أن النحل تتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى: يخرج من بطونها بأن كل تجويف في داخل البدن يسمى بطنا، فقوله: يخرج من بطونها يعني من أفواهها، وقول أهل الظاهر أولى وأصح لأنا نشاهد أنه يوجد في طعم العسل طعم تلك الأزهار التي تأكلها النحل، وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضا، ويعضد هذا قول بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم له: أكلت مغافير؟ قال: لا. قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: سقتني حفصة شربة." (١)

"من الإرصاد التام، فإن كل كلمة من هذا الكلام مناسبة لما بعدها وملائمة له على أكمل نظام، وأعجب إتمام، فلو وقف على قوله «فإنك ممن استظهر به» لفهم ما بعدها ولو وقف على قوله «وأقمع به» لفهم ما وراءها، لأن الاستظهار تقوية واعتماد، والقمع هو الكف وهو ملائم للنخوة وهو العلو والكبر وهكذا قوله: واخفض

فلو وقف عليه لفهم منه الجناح، لأنه يستعار كثيرا فى لين الجانب كما قال تعالى: واخفض جناحك للمؤمنين (٨٨)

[الحجر: ٨٨] وهكذا القول فى سائر ألفاظه، فإنها متلائمة متناسبة يدل بعضها على بعض.

المثال الرابع ما ورد من كلام أهل البلاغة

واعلم أن الشعراء المفلقين يفتخرون بما كان أول البيت دالا على آخره، وفى هذا يقول بعضهم:

خذها إذا أنشدت فى القوم من طرب ... صدورها عرفت منها قوافيها

ينسى لها الراكب العجلان حاجته ... ويصبح الحاسد الغضبان يطريها

وهذا هو الإرصاد كما قلناه، ومن جيد الإرص۱د ما قاله البحترى:

أحلت دمى من غير جرم وحرمت ... بلا سبب يوم اللقاء كلامى

فليس الذى حللته بمحلل ... وليس الذى حرمته بحرام «١»

فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الأول وصدر البيت الثانى أن عجزه ما قاله البحترى، **وقد جرت العادة عند** إنشاد الشعر بانتهاب عجز البيت من لسان منشده قبل ذكره ويسبق إليه فينشده قبل إنشاده له لما كان المعنى مفهوما قبل ذكره، وهذا هو الذى نريده بالإرصاد ومن هذا قول بعض البلغاء:

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٨٦/٣

ولربما اعتصم الحليم بجاهل ... لا خير فى يمنى بغير يسار

فهذا إذا قرع السامع صدر البيت ووقف على قوله «لا خير فى يمنى» فإنه يتحقق أن لا بد من ذكر اليسار لا محالة، لما فيه من الملائمة له والمناسبة، ومن ذلك ما قاله زهير

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله ... ولكننى عن علم ما فى غد عم «٢»

فالأزمنة ثلاثة، الماضى، والحاضر، والمستقبل، فلما ذكر حكم الماضى، والحاضر،." (١)

"عندها بملفوظة، ولا السقطات لديها بمحفوظة؛ وكانت الريح تتلعب بلهبها، وتختلف على شعبه بشعبها، وطورا تقيمه فيصير أنملة، وطورا تميله فيصير سلسلة، وتارة تجوفه فيصير مدهنة، وتارة تجعله ذا ورقات فيتمثل سوسنة، ومرة تنشره فينبسط منديلا، ومرة تلفه على رأسها فيستدير إكليلا؛ ولقد تأملتها فوجدت نسبتها إلى العنصر العسلي وقدها قد العسال، وبها يضرب المثل للحليم، غير أن لسانها لسان الجهال ومذهبها مذهب الهنود في إحراق نفسها بالنار، وهي شبيهة العاشق في انهمال الدمع، واستمرار السهر، وشدة الاصفرار.

ومنه قوله:

ولقد عدا السحاب طوره إذا هطل في بلدة هو بها مقيم، لكن عذره أنه أتى متعلما، **وقد جرت العادة بإفادة** التعليم، وما أقول: إنه يقابل ذاك الوجه الندي إلا بوجه قل ماؤه، ولو استحيا منه حق الحياء لما هطلت سماؤه، وأنى يقاس فيض كرم السحاب بفيض كرمه، أو ديمه الدائمة بإقلاع ديمه.

ومنه ق ول ه:

إذا رفعت الخطوب أعناقها، لقيها من رأيه بسعد الذابح، وإن بقي ليلها غشيه من عزمه بالسماك الرامح، فهو يسفك دماءها، ويجلو ظلماءها، ولهذا ترى وقد أجفلت عن طريقه، فرجعت عن حرب عدوه إلى سلم صديقه.

ومنه قوله في اليأس والطمع: إن نظر إلى اليأس والطمع، وجدا سواء في جدوى الإعطاء، ولا فرق بينهما إلا في روح التعجيل وكرب الإبطاء، ومن هاهنا عجل اليأس غنى والطمع فقرا، وأوسع صاحب هذا ذما، وصاحب هذا شكرا.." (٢)

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المُؤَيَّد العلوي ١٧١/٢

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ابن فضل الله العمري ٢٨٢/١٢

"اعلم أن حروف المعجم على نوعين: ثنائي، وثلاثي، **وقد جرت العادة –** عادة العرب – أن ينطقوا بالثنائيات المقطوعة ممالة، فيقولوا: با، تا، ثا، وكذلك أمثالها، وأن ينطقوا بالثلاثيات التي في وسطها الألف مفتوحة مشبعة، فيقولون: دال ذال، صاد، ضاد، وكذلك أشكالها.

أما الرازي وحده من بين حروف المعجم، فمعتاد فيه الأمران،؛ فإن من أظهر ياءه في النطق حتى يصير ثلاثيا، لم يمله، ومن لم يظهر ياءه في النطق؛ حتى يشبه الثنائي، أماله.

واعلم أن إشباع الفتحة في جميع المواضع أصل، والإمالة فرع عليه؛ ولذلك يجوز إشباع كل ممال، ولا يجوز كل مشبع من المفتوحات.

والعامة على تسكين أواخر هذه الأحرف المقطعة، لذلك كان بعض القراء يقف على كل حرف منها وقفة يسيرة كبالغة في تمييز بعضها من بعض.

وقرأ [الحسن] «كاف» [و «ها»] وتفخيمهما، وبعضهم يعبر عن التفخيم بالضم، كما يعبر عن الإمالة بالكسر، وإنما ذكرته؛ لأن عبارتهم في ذلك موهمة.

وأزهر دال «صاد» قبل ذال «ذكر» نافع، وابن كثير، واعاصم؛ لن الأصل، وأدغمها فيها الباقون.

والمشهور إخفاء نون «عين» قبل الصاد؛ لأنها تقاربها، ويشتركان في الفم، وبعضها يظهرها؛ لأنها حروف مقطعة يقصدون تمييز بعضها من بعض.." (١)

"وخامسها: هذه الآية: وليس في لفظها ما يدل على أن ذلك المثلا أي شيء كان والمفسرون ذكروا فيه وجوها:

أشهرها: قال ابن عباس وأكثر المفسرين: نزلت الآية في مجادلة عبد الله بن الزبعرى مع النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام لما نزل قول الله عز وجل: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨] كما تقدم في سورة الأنبياء.

والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلا، وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه «إذا قومك» من قريش «منه» أي من هذا المثل «يصدون» أي يرتفع لهم ضجيج فرحا بسبب مارأوا من سكوت النبي صلى الله عليه وسلم فإنه **قد جرت العادة بأن** أحد الخصمين إذا انقطع، أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج.

وقيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلها لأنفسهم قالت

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/١٣

كفار قريش: إن محمدا يريد أن يجعل نفسه لنا إلها كما جعل النصارى المسيح إلها لأنفسهم فعند هذا قالوا: ﴿أآلهتنا خير أم هو﴾ فعند ذلك قالوا: إن محمدا يدعونا لعبادة نفسه وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام وإذا كان لا بد من عبادة أحد هذين فعبادة الأصنام أولى؛ لأن آبائنا وآسلافنا أجمعوا على ذلك، وأما محمد فإنه متهم في أمرنا بعبادته. ثم إنه تعالى لم يقل: إن عبادة المسيح طريق حسن، بل هو كلام باطل، وأن عيسى ليس إلا عبدا أنعمنا علي فزالت شبهتهم في قولهم: إن محمدا يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه.

وقيل: إن الكفار لما رأوا النصارى يعبدون عيسى قالوا إذا عبد النصارى عيسى فآلهتنا خير من عيسى فعبدوال الملائكة.

قوله: «يصدون» قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويصدون بضم الصاد والباقون بكسرها، فقيل: هما بمعنى واحد. وهو الصحيح واللفظ، يقال: صد يصدذ ويصد كعكف يعكف ويعكف وعرش يعرش ويعرش.

قال ابن عباس (رضي الls عنهما) يضجرون. وقال سعيد بن المسيب:." (١)

"وفي يمينك ما أنت واعده ... ما دل أنك في الميعاد متهم

وسمعته يقول في قوله تعالى: " أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة " الفرقان: ٥، قال: العجب لجهلهم حين أرادوا أن يلقى إليه كنز أو تكون له جنة. ولو فهموا علموا أن كل الكنوز له وجميع الدنيا ملكه. أوليس قد قهر أرباب الكنوز، وحكم في جميع الملوك. وكان من تمام معجزته أن الأموال لم تفتح عليه في زمنه لئلا يقول قائل **قد جرت العادة بأن** إقامة الدول، وقهر الأعداء بكثرة الأموال، فتمت المعجزة بالغلبة والقهر من غير مال، ولا كثرة أعوان، ثم فتحت الدنيا على أصحابه، ففرقوا ما جمعه الملوك بالشره، فأخرجوه فيما خلق له، ولم يمسكوه إمساك الكافرين، ليعلموا الناس بإخراج ذلك المال: أن لنا دارا سوى هذه، ومقرا غير هذا. وكان من تمام المعجزات للنبي صلى الله عليه وسلم: أنه لما جاءهم بالهدى فلم يقبل، سل السيف على الجاحد، ليعلمه أن الذي ابتعثني قاهر بالسيف بعد القهر بالحجج.

ومما يقوي صدقه أن قيصر وكبار الملوك لم يوفقوا للإيمان به لئلا يقول قائل: إنما ظهر لأن فلانا الملك تعصب له فتقوى به، فبان أن أمره من السماء لا بنصرة أهل الأرض.." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٨٢/١٧

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ابن رجب الحنبلي ١٤٦/٢

"ليطلب برجه الذي هو مستوطنه إذا أرسل. فإذا عرض أمر مهم أو ورد بريد أو غيره ممن «١» يحتاج إلى مطالعة الأبواب السلطانية به إلى مكان من الأمكنة التي فيها برج من أبراج الحمام، كتب واليها المتحدث فيها بذلك للأبواب السلطانية، وبعث بها على أجنحة الحمام. **وقد جرت العادة أن** تكتب بطاقتان وتؤرخان بساعة كتابتهما من النهار، ويعلق منهما في جناح طائر من الحمام الرسائلي ويرسلان، ولا يكتفى بواحد لاحتمال أن يعرض له عارض يمنعه من الوصول إلى مقصده. فإذا وصل الطائر إلى البرج الذي وجه به إليه، أمسكه البراج وأخذ البطاقة من جناحه وعلقها بجناح طائر من حمام البرج الذي يليه، أي من المنقول إلى ذلك البرج، وعلى ذلك حتى ينتهي إلى برج القلعة فيأخذ البراج الطائر والبطاقة في جناحه ويحضره بين يدي الدوادار الكبير فيعرض عليه، فيضع البطاقة عن جناحه بيده: فإن كان الأمر الذي حضرت البطاقة بسببه خفيًا لا يحتاج إلى مطالعة السلطان به، استقل الدوادار به؛ وإن كان مهما يحتاج إلى إعلام السلطان به، استدعى كاتب السر وطلع لقراءة البطاقة على السلطان كما يفعل في المكاتبات الواردة. وكذلك الحكم فيما يطرأ من المهمات بالأبواب السلطانية فإنه يوجه بالحمام من برج القلعة إلى الجهة المتعلقة بذلك المهم. وفي معنى ذلك كل نيابة من النيابات العظام بالممالك الشامية كدمشق، وحلب، وطرابلس ونحوها مع ما تحتها من النيابات الصغار والولايات، على ما سيأتي ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

الأمر الثامن نظره في أمور الفداوية

وهم طائفة من الإسماعيلية المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي أبي طالب كرم الله." (١)

"ومقدمي العساكر والأجناد، ورؤساء البلاد، متابعته وموافقته، وطلب مصالحهم من جنابه «١» والتصرف على استصوابه؛ وقد أكدت وصاته في الرفق بهم والاشتمال عليهم، والإحسان إليهم، وإجمال السيرة فيهم؛ وكلما أشكل عليه أمر من المتجددات يطالع به الديوان العزيز- مجده الله تعالى- لينهج له السبيل إلى فتح رتاجه، وسلوك منهاجه؛ والله ولي التوفيق والهداية، وجمع الكلمة في كل إعادة وبداية، والمعونة على العصمة من الزلل، والتأييد في القول والعمل؛ إن شاء الله تعالى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الوجه السابع (فيما يكتب في مستند عهد السلطان عن الخليفة، وما يكتبه الخليفة في بيت العلامة، وما يكتب في نسخة العهد من الشهادة أو ما يقوم مقامها)

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١/١٥٤

أما ما يكتب في المستند، **فقد جرت العادة أن** يكتب فيه نحو ما تقدم في البيعات وعهود ولاة العهد بالخلافة: وهو: «بالإذن العالي، المولوي، الإمامي، النبوي، الفلاني (بلقب الخلافة) أعلاه الله تعالى» .

وأما ما يكتبه الخليفة في بيت العلامة، فإنه يكتب علامته وتحتها: «فوضت إليه ذلك، وكتب فلان بن فلان» . ورأيت في بعض الدساتير نقلا عن الحاكم بأمر الله أبي العباس [ابن الخليفة] «٢» المستكفي بالله أبي الربيع سليمان [أنه] «٣» كان يكتب: «وكتب أحمد ابن عم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم» .

وأما ما يكتب في نسخة العهد من الشهادة، **فقد جرت العادة أن** يكتب قاضيان فأكثر من قضاة القضاة الأربعة في حاشية العهد أو في ذيله ما صورته:

«أشهدني مولانا أمير المؤمنين العاهد المشار إليه فيه- أدام الله تعالى أيامه- بما نسب إليه فيه من العهد إلى فلان بن فلان» أو ما في معنى ذلك.." (١)

"ثم الذي رأيته في دستور معتمد ينسب للمقر العلائي بن فضل الله أنه يكون بين كل سطرين قدر ربع ذراع. وأخبرني بعض فضلاء الكتاب أنه رأى في بعض الدساتير أن سطوره تكون مزدوجة على نظير البسملة والسطر الأول، وبين كل سطرين بعد بيت العلامة تقدير خمسة أصابع مطبوقة.

قلت: ولعل ذلك تفنن من الكاتب وتطريز للكتابة، لا على سبيل اللزوم.

فإن قيل: لم كان مقدار البياض بين سطور العهد مع كبر قطع الورق دون بياض ما بين سطور التقاليد ونحوها مما يكتب عن السلطان على ما سيأتي ذكره؟

فالجواب أن العهد كالمكاتبة من العاهد للمعهود إليه، كما أن التقليد كالمكاتبة من المقلد للمقلد، والأعلى في حق المكتوب إليه أن تكون السطور متضايقة على ما تقدم في الكلام على المكاتبات؛ فناسب أن تكون سطور العهد أكثر تقاربا من سطور التقليد وما في معناه، تعظيما لشأن السلطان في الحالتين.

فإن قيل: ينقض ذلك بعظم قلم العهد، ضرورة أنه كلما غلظ القلم كان أنزل في رتبة المكتوب إليه على ما تقدم أيضا، فالجواب: أن غلظ القلم في العهد تابع للورق في كبر قطعه، وقاعدة ديوان الإنشاء أنه كلما كبر قطع الورق في المكاتبات، كان تعظيما للمكتوب إليه، بدليل أن كل من عظم مقداره من الملوك كان قطع الورق في مكاتبته أكبر، ولو كتب العهد بقلم دقيق مع ضيق السطور وسعة الورق لجاء في غاية القصر.

ثم **قد جرت العادة أن** تكون كتابة العهد من أوله إلى آخره من غير نقط ولا شكل، وعليه عمل الكتاب

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٥٨/١٠

إلى آخر وقت.

قلت: هذا بناء على المذهب الراجح في أن المكاتبة إلى الرئيس تكون من غير إعجام ولا ضبط: لما في الإعجام والضبط من استجهال المكتوب إليه ونسبته للغباوة وقلة الفهم، بخلاف من ذهب إلى أن الكتابة إلى الرئيس تقيد بالإعجام والضبط كي لا يعترضه الشك، ولا يكلف إعمال الفكر، على ما تقدم ذكره في أوائل المكاتبات، فإنه يرى نقط العهد وشكله.

وإذا انتهى إلى آخر العهد كتب المشيئة، ثم التاريخ، ثم المستند، ثم." (١)

"ما تقتضيه الحال، ويحتمله المقال، بل ربما ولي بعض المناصب من فيه صفات تستحق ألقابا ونعوتا خاصة، فيكتب له بذلك مراعاة لما يقتضيه حاله، ويستوجبه مقامه، ثم يلي ذلك المنصب بعده من لا يستحق الوصف بالألقاب والنعوت التي تخص المتقدم، فيؤتى بها للثاني: كما اتفق فيما كتب به في نيابة الشام حين وليها الأمير بيدمر الخوارزمي «١» رحمه الله، وكان من الديانة على ما لا يوجد في غيره؛ فكتب في ألقابه حينئذ: العابدي، الناسكي، الخاشعي، فلزمت فيمن بعده وصارت مما يكتب به إلى الآن، سواء اتصف نائبها بدين أم لا- وكما اتفق في الصاحب علم الدين بن زنبور حين اجتمع له الوزارة ونظر الخاص والجيش، فكتب له بألقاب ونعوت جامعة لألقاب تلك الوظائف ونعوتها، فاستمر ذلك فيما يكتب به لكل من ولي الوزارة بعده إلى الآن؛ حتى إنه يكتب في ألقاب الوزير الآن «مرتب الجيوش» وهو الألقاب الخاصة بناظر الجيش استطرادا لما كتب به لابن زنبور: لانضمام نظر الجيش إليه على ما تقدم- وكما اتفق فيما كتب به للشيخ تقي الدين السبكي «٢» من الألقاب الجليلة المقدار، الرفيعة المكانة، في قضاء الشام لرفعة مقامه، واتساع باعه في العلم، وعلو مكانته في الخاصة والعامة فلزم كتابة ذلك لقاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية، من حيث إنه لا يليق بالحال أن يكون قاضي الشام أعلى رتبة من قاضي الديار المصرية. ثم سرى ذلك في كل من ولي المنصب بعد ذلك، وهلم جرا إلى زماننا.

ومما يلتحق بذلك أنه قد جرت العادة في الزمن المتقدم وهلم جرا إلى." (٢)

"من هذه الرتبة، وتذكر بعض ألقابه، ثم يقال: «أدام الله علوه» أو «أعزه الله، فليتقدم» ويكمل إلى آخره.

واعلم أن المقر الشهابي ابن فضل الله رحمه الله قد ذكر في «التعريف» افتتاحات أخرى للتواقيع بين رتبة

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٠/١٦٠

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١١/٨٥

«أما بعد حمد الله» ورتبة «رسم بالأمر الشريف» فقال: بعد الافتتاح بأما بعد حمد الله: وقد تستفتح بقول: «أما بعد فإن أولى ما كان كذا» أو ما هذا معناه، وقد تستفتح بقول: «من حسنت طرائقه، وحمدت خلائقه» أو ما هذا معناه، وجعلها رتبة بعد رتبة.

قلت: وهذه الافتتاحات كانت مستعملة في الدولة العباسية ببغداد، وفي الدولة الفاطمية بالديار المصرية والبلاد الشامية، ثم في الدولة التركية إلى زمن المقر الشهابي المشار إليه في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون؛ ثم رفضت بعد ذلك، وترك استعمالها بالديار المصرية البتة، فلم يكن أحد من كتاب ديوان الإنشاء يستعمل شيئا منها.

المقصد الثالث (في بيان كيفية وضع ما يكتب في هذه الولايات في الورق، ويتعلق به عشرة أمور)

الأمر الأول- الطرة

، وهي في اصطلاحهم عبارة عن طرف الدرج من أعلاه، ثم أطلقوه على ما يكتب في رأس الدرج مجازا، تسمية للشيء باسم محله.

قلت: وليس صحيحا من حيث اللغة، فإنه في الأصل مأخوذ من طرة الثوب. وقد ذكر الجوهري وغيره أن طرة الثوب هي طرفه الذي لا هدب فيه، والذي لا هدب فيه من الثوب هو حاشيتاه، بخلاف أعلاه وأسفله. نعم يجوز أن تكون مأخوذة من الطر بمعنى القطع، لأن الطرة مقتطعة عن كتابة المتن، يفصل بينهما بياض، ومنه سمي الشعر المرسل على الصدغ طرة. **وقد جرت العادة في** كل ما يكتب له طرة أن يكتب في أعلى الدرج في الوسط بقلم الرقاع بكل حال." (١)

"فإنه مبارك أينما كان ورحمة للأنام؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه، إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الثالثة (نقابة الأشراف)

وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية في المقالة الثانية أن موضوعها التحدث على الأشراف، وهم أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت: **وقد جرت العادة أن** الذي يتولى هذه الوظيفة يكون من رؤوس الأشراف، وأن يكون من أرباب الأقلام، وإنما أوردته مع أرباب السيوف لأن المقر الشهابي بن فضل الله قد ذكر في بعض دساتيره الشامية

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٢٦/١١

أنه يكتب لنقيب الأشراف «الأميري» ولا يكتب له «القضائي» ولو كان صاحب قلم. وقد رأيت له عدة تواقيع على ذلك مكتتبة من الأبواب السلطانية وعن نائبي الشام وحلب وغيرهما، معبرا عنه فيها ب «الأميري» وتوقيعه في قطع الثلث مفتتح بخطبة مفتتحة ب «الحمد لله» .

وهذه نسخة [توقيع] «١» بنقابة الأشراف، وهي:

الحمد لله مشرف الأنساب، وموفي الأحساب، حقوق ملاحظتهم بغير حساب، وجاعل أيامنا الشريفة تحمد الاكتساب.

نحمده بمحامد حسنة الإيجاد والإيجاب، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا شك في مقالها ولا ارتياب، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ونبيه الذي أنزل عليه الكتاب، وشرف به الذراري من شجرته المباركة الأعقاب، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا تتوارى شمسها بحجاب.

وبعد، فإن خير ما صرفت الهمم إلى تشييد مبانيه، وتقييد مهمل رواعيه." (١)

"وللرعايا في أكثر معايشهم وأسبابهم نافعة؛ فإذا استقرت الفروع «١» كانت الأصول لها جامعة. وفقهاء مذهبه هم الفقراء لقلة المحصول وضعف الأوقاف، وهم على الرقة كالرماح المعدة للثقاف؛ فخذ بخواطرهم، ومد آمالهم في غائب وقتهم وحاضرهم، واشملهم بالإحسان الذي يرغبهم، ويقل به طلبهم لوجوه الغنى ويكثر طلبهم.

الطبقة الثانية (من أرباب الوظائف الدينية أصحاب التواقيع، وتشتمل على مراتب)

المرتبة الأولى

(ما كان يكتب في النصف ب «المجلس العالي» كما كان يكتب للقضاة الأربعة أولا، وقد تقدم)

المرتبة الثانية (ما يكتب في قطع الثلث ب «السامي» بالياء)

واعلم أن الأصل فيما يكتب من التواقيع أن يفتتح ب «أما بعد» إلا أن الكتاب تسامحوا فيه فافتتحوا لمن علت رتبته حيث اقتضى الحال الكتابة له في الثلث ب «الحمد لله» ، وأبقوا من انحطت رتبته عن ذلك على ما كان عليه من الافتتاح ب «أما بعد» وها أنا أورد ما سنح من ذلك مما أنشأه الكتاب في ذلك من الافتتاحين جميعا. ويشتمل على وظائف.

الوظيفة الأولى (قضاء العسكر)

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٦١/١١

وقد تقدم في المقالة الثانية أن موضوعها التحدث في الأحكام في الأسفار السلطانية وأن له مجلسا يحضره بدار العدل في الحضر. **وقد جرت العادة أن**." (١)

"فكره، مشيدة بما يبديه من أوضاح التقرير وغرره- من سما همة وحسن سمتا، وسلك في الأمانة طريقا لا عوج فيها ولا أمتا «١» ، وحل في الرتب فحلاها، وتنقل فيها فما قالت له إيه إلا وقال الذي فارقها آها؛ وكان فلان هو الذي استحق بكفايته حسن التنقل، واستوجب الصلة والعائد لما فيه من جميل التأتي والتوصل- اقتضى حسن الرأي الشريف أن ننقله إلى رتب السعادة، وأن نخصه كل حين من نعمنا بالحسنى وزيادة، فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقر ...

فليضبط أصولها وفروعها، ومفردها ومجموعها، وليؤنس بحياطة اجتهاده ربوعها، وليكفلها بأمانة تضم أطرافها، ونزاهة تحلي أعطافها، وكتابة تحصر جليلها ودقيقها، ونباهة توفي شروطها وحقوقها، وليحرر واردها ومصروفها، ليغدو مشكور الهمم موصوفها، وليلاحظ جرائد حسابها، ويحفظ من الزيغ قلم كتابها، حتى ينمي تصرفه فيها على الأوائل، ويشكر تعرفه وتعطفه على كل عامل ومعامل؛ و ا لله تعالى يبلغه من الخير ما هو آمل، بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الخامسة (نظر خزائن السلاح)

وقد تقدم أن موضوعها التحدث فيما يستعمل ويبتاع من أنواع السلاح الذي يحمل للزردخاناه «٢» السلطانية. **وقد جرت العادة أن** يحمل ما يتحصل من." (٢)

"بدوامه، ولوحظ بعين الإقبال ما أسلفه من حسن الطاعة لله ولرسوله ولإمامه- من جد في الخدمة فأضحى الجد له خادما، وداوم على المناصحة فغدا سعده دائما، وأخذ من كل فضل بزمامه، ومت بما له على الدولة الشريفة من حرمته وذمامه، وسلك في أداء الأمانة السنن القويم، وجعل على خزائن الأرض بما تلا لسان فضله: إني حفيظ عليم

«

وتمسك من الإخلاص بأقوى الأسباب، وجعلت له التقوى محلا يدخل عليه ملائكة القبول من كل باب، وزين سماء المعالي بكواكب مجده فما تشوف إليها طرف متطاول إلا وأتبعه شهاب «٢» ولما كان فلان هو الذي غدا حسن مناقبه إلى شكره مرشدا، وإلى ذكره بالجميل مسعدا، وألهج لسان القلم في وصفه

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٢٠٢/١١

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٣٩/١١

منشدا، واختص من هذه المحامد بأوفرها قسما، وطلع في أفق هذا الثناء الجميل نجما، فلذلك رسم................ ....

ومنها- استيفاء الدولة.

وموضوعها التحدث في كل ما يتحدث الوزير وناظر الدولة، وضبط الأموال الديوانية، وكتابة الحسبانات، وكل ما يجري مجرى ذلك. **وقد جرت العادة أن** يكون فيها مستوفيان «٣» .

وهذه نسخة توقيع باستيفاء الدولة:

أما بعد حمد الله الذي صان الأموال بالأقلام المحررة، والدفاتر المسطرة، والحسبانات المصدرة، والجوامع المسيرة، والتيقظ الذي استخرج." (١)

"على مقتضى دينهم وغير ذلك.

وقد تقدم في الكلام على النحل والملل أن الموجودين من اليهود ثلاث طوائف: وهم الربانيون، والقراؤون، والسامرة «١» **وقد جرت العادة أن** يكون الرئيس من طائفة الربانيين دون غيرهم، وهو يحكم على الطوائف الثلاث.

وهذه نسخة توقيع «٢» برآسة اليهود، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وهي:

أما بعد حمد الله الذي جعل ألطاف هذه الدولة القاهرة تصطفي لذمتها من اليهود رئيسا فرئيسا، وتختار لقومها كما اختار من قومه موسى، وتبهج لهم نفوسا كلما قدمت عليهم نفيسا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي، والرسول الذي أجمل الوصية بالملي والذمي، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما هطل وبلي «٣» ، وما نزل وسمي «٤» - فإن معدلة هذه الدولة تكتنف «٥» الملل والنحل بالاحتياط، وتعمهم من إنصافها وإسعافها بأوفر الأنصباء وأوفى الأقساط، وتلمهم من حادث الزمن إذا اشتط ومن صرفه إذا شاط، وتضمهم كما." (٢)

"نومة لا ينتبهون بها من كراهم، حتى يتأدب بهم كل من أغرض، ويتداوى بمداواته كل من في قلبه مرض. وما أشكل عليك فاسترشد فيه بمطالعة أبوابنا الشريفة: لتجد هدى واضحا، وحقا لائحا؛ والله تعالى يجعلك من الممهدين لأرضه، القائمين في أنواع الجهاد بفرضه؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه.

الجهة الثالثة (درب الحجاز الشريف)

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٥٠/١١

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٧٩/١١

وقد تقدم أنه كان في الزمن المتقدم يكتب عن السلطان تقليد لأمير الركب «١» في الدولة الفاطمية وما تلاها. أما الآن فقد ترك ذلك ورفض كما رفض غيره من الكتابة لأرباب السيوف بالحضرة السلطانية، ولم يبق الآن من يكتب له من ديوان الإنشاء شيء سوى قاضي الركب. **وقد جرت العادة أن** يكتب له توقيع في قطع العادة مفتتحا ب «رسم» .

وهذه نسخة توقيع من ذلك، كتب به للشيخ «تقي الدين السبكي» «٢» رحمه الله في مبدإ أمره، وهي: رسم بالأمر الشريف- لا زال يعين على البر والتقوى، ويرتاد لوفد الله من يتمسك في نشر الأحكام الشرعية بينهم بالسبيل الأقوم والسبب الأقوى- أن يستقر فلان في كذا: لما اختص به من غزارة علومه، وإفاضة فضائله المتنوعة إلى قوته في الحق وتصميمه؛ فإن مثله من يختار لهذه الوظيفة الجارية بين وفد الله الذين هم أحق ببراءة الذمم، وأولى بمعرفة حكم الله تعالى فيما يجب على المتلبس بالإحرام والداخل إلى الحرم، وأحوج إلى الاطلاع على جزاء الصيد." (١)

"والرعية فهم عند والي الأمر ودائع: ينبغي أنها تكون محفوظة، وبعين الاعتناء ملحوظة؛ فأحسن جوارهم، وأزل نفارهم، واكفف عنهم مضارهم، ولا تعاملهم إلا بما لا تسأل عنه غدا بين يدي ربك فإنه يراك حين تقوم، وأعدد جوابا لذلك فكل راع مسؤول.

وأما غير ذلك فلا بد أن تطلعك المباشرة على خفايا تغنيك عن المؤامرة، وستتوالى إليك الأجوبة عند المسافرة في المكاتبات الواردة والصادرة؛ والله يوفقك في كل منهج تسلكه وتقتفيه، ويسددك فيما من ذلك تنتحيه.

قلت: أما سائر أرباب الوظائف بها: كشد الدواوين، وشد مراكز البريد وغيرهما، **فقد جرت العادة أن** النائب يستقل بتوليتها. فإن قدر كتابة شيء من ذلك لأحد بها، كتب لمن يكون طبلخاناه في قطع النصف ب «السامي» بغير ياء، ولمن يكون عشرة في قطع الثلث ب «- مجلس الأمير» كما في غيرها.

الصنف الثاني (أرباب الوظائف الدينية، وهم على مرتبتين)

المرتبة الأولى- من يكتب له في قطع الثلث ب «السامي بالياء»

. وهم قضاة القضاة الأربعة.

المرتبة الثانية- من يكتب له في قطع العادة

: إما في المنصوري، مفتتحا ب «أما بعد» وإما في الصغير مفتتحا ب «- رسم» . وعلى ذلك تكتب

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١١/٤٣٥

تواقيع قضاة العسكر بها، ومفتي دار العدل، والمحتسب، ووكيل بيت المال، ووظائف التداريس والتصادير، ونظر [الأحباس] «١» إن كتب شيء من ذلك عن الأبواب السلطانية، وإلا فالغالب كتابة ذلك عن النائب بها «٢»." (١)

"موطن برها، وأهلته الأقدار إلى جوار نبي هو خاتم الأنبياء وفاتح أمرها، وأصبح للحكم في المدينة، مستحقا لما فيه من سكينة، وتحصيل للعلم ومن حصل العلم كان الله معينه.

فلذلك رسم أن يستقر.............

فليباشر منصبا جليلا في محل جليل، وليعلم أن سائر الأمصار تغبطه وتحسده وما لمنصبه من مثيل؛ أين يوجد سواه في كل سبيل؟ من قاض هو بسيد المرسلين نزيل، ومن يصبح ويمسي جارا للمستجير في المحشر الطويل.

فاحكم بين ناس طيبة بورع وتأصيل، وتحرير في تحريم وتحليل، واتق الله في كل فعل وقيل، واستقم على الحق حذار أن تميل؛ فصاحب الشرع أنت منه قريب والنبي من الله قريب وحبيب وخليل، وماذا عسى أن نوصيه وهو بحمد الله تعالى كالنهار لا يحتاج إلى دليل.

وأما الخطابة: فارق درج منبرها، وشنف الأسماع من ألفاظك بدرها وحرر ما تقوله من المواعظ فإن صاحب العظات يسمعك، وتواضع لله فإن الله يرفعك؛ وهذا المرقى فقد قام فيه النبي الأمي سيد الثقلين، ومن بعده الخليفتان قرتا العين، ومن بعدهما عثمان ذو النورين، وعلي رضي الله عنه أبو الحسنين؛ فاخشع، عند المطلع، واصدع، بما ينفع، وانظر لما تقوله فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك يسمع، وقاضي المدينة وخطيبها يرجو أن ليس للشيطان فيه مطمع؛ والله تعالى يحوز له الخير ويجمع، بمنه وكرمه!.

الوظيفة الثالثة (مشيخة الحرم الشريف)

وقد جرت العادة أن يكون له خادم من الخصيان المعبر عنهم بالطواشية، يعين لذلك من الأبواب السلطانية، ويكتب له توقيع في قطع الثلث ب «المجلس السامي» بالياء مفتتحا ب «الحمد لله» .." (٢)

"رعايتنا، وحضانة عنايتنا، وكنف إحساننا، ووديعة برنا وامتناننا؛ لا تطمح إليها عين معاند، ولا يمتد إليها إلا ساعد مساعد وعضد معاضد.

فليقابل هذه النعمة بشكر الله الذي هداه إلى الطاعة، وصان بإخلاص ولائه نفسه ونفائس بلاده من

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٢٠١/١٢

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٢٥٤/١٢

الإضاعة، وليقرن ذلك بإصفاء موارد المودة، وإضفاء ملابس الطاعة التي لا تزداد بحسن الوفاء إلا جدة، واستمرار المناصحة في السر والعلن، واجتناب المخادعة ما ظهر منها وما بطن، وأداء الأمانة فيما استقر معه الحلف عليه، ومباينة ما يخشى أن يتوجه بسببه وجه عتب إليه، واستدامة هذه النعمة بحفظ أسبابها، واستقامة أحوال هذه المنة برفض موجبات الكدر واجتنابها، وإخلاص النية التي لا تعتبر ظواهر الأحوال الصالحة إلا بها.

ومن ذلك ما يكتب به لحكم رماة البندق «١» .

قد جرت العادة أنه إذا كان للسلطان عناية برمي البندق، أقام لرماته حاكما من الأمراء الذين لهم عناية برمي البندق.

وهذه نسخة توقيع من ذلك:

الحمد لله الذي خص أيامنا الزاهرة، باستكمال المحاسن في كل مرام، وجعل [من] أولياء دولتنا القاهرة، من أصاب من كل مرمى بعيد شاكلة الصواب حتى أصبح حاكما فيه بين كل رام، وجمع لخواصنا من أشتات المفاخر ما إذا برزوا فيه للرياضة ليلا [أغنت] «٢» قسيهم عن الأهلة ورجومها عن رجوم الظلام." (١)

"فيلبس ذلك [المريد] «١» ثيابا، ثم يجعل في كوز أو نحوه ماء ويخلط به بعض ملح، ويقوم كل منهم فيشرب من ذلك الماء وينسبه إلى كبيره. وربما اعتنا «ابن بذلك بعض الملوك. **وقد جرت العادة في** ذلك أنه إذا ألبس السلطان واحدا من الأمراء أن يكتب له بذلك توقيعا.

وهذه نسخة توقيع بفتوة، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وهو:

الحمد لله الذي جعل أنساب الفتوة، متصلة بأشرف أسباب النبوة، وأفضل من أمده منه بكل حيل وقوة، وأسعد من سما فكان عليا على كل من سام علوه.

نحمده حمدا تغدو الأفواه به مملوة، ونشكره على مواهبه بآيات الشكر المتلوة، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من جعل إلى منهج التوحيد رواحه وغدوه، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي شد الله أزره بخير من أفتى وفتى فنال كل فتوي من الفتيان به شرف الأبوة والبنوة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نصروا وليه وخذلوا عدوه، صلاة موصلة إلى نيل الأماني المرجوة.

وبعد، فإن خير من اتصل به رجاء الرجال الأجواد، وطوى البعيد إلى تحصيل مرامه كل طود من الأطواد،

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٢/٢٦٤

وأماط به عن مكارم الأخلاق لثام كل جود وامتطى ظهر خير جواد، واستمسك من ملابس الشرف بما يؤمن ويؤمل وما يشد به من كل خير لباس التقوى، وما تؤيد به عزيمته فتقوى، وما يتقيد به على رؤوس الأحزاب، وما يتنزل به عليه أحسن آية من هذا الكتاب- من اشتهر بالشجاعة التي تقدم بها على قومه، وحمد أمسها في يومه، وبالشهامة التي لها ما للسهام من تفويق، ولزرق الأسنة من تحذيق، ولبيض الصفاح من حدة متون، وللسمهرية من ازدحام إذا ازدحمت المنون، ومن صدق العزيمة، ما يشهد به كرم الشيمة، ومن شدة الباس، ما يجتمع به على طاعته كثير من الناس، ومن صدق اللهجة واللسان، ما اتصف عفافه منهما بأشرف ما يتصف به." (١)

"الباب الثاني فيما يكتب في المسامحات والإطلاقات؛ وفيه فصلان.

الفصل الأول فيما يكتب في المسامحات

والمسامحات جمع مسامحة، وهي [الجود والموافقة على ما أريد منه] «١» والمراد المسامحة بما جرت به عادة الدواوين السلطانية: من المقررات واللوازم السلطانية، وهي على ضربين:

الضرب الأول (ما يكتب من الأبواب السلطانية)

وقد جرت العادة أن السلطان إذا سمح بترك شيء من ذلك كتب به مرسوم شريف وشملته العلامة الشريفة؛ وهو على مرتبتين:

المرتبة الأولى- المسامحات العظام.

وقد جرت العادة أن تكتب في قطع الثلث مفتتحة ب «الحمد لله» .

وصورتها أن يكتب في أعلى الدرج بوسطه الاسم الشريف كما في مراسيم الولايات، ثم يكتب من أول عرض الورق إلى آخره «مرسوم شريف أن يسامح بالجهة الفلانية وإبطال المكوس بها، أو أن يسامح بالباقي بالجهة الفلانية، أو أن." (٢)

"الباب الثالث من المقالة السادسة في الطرخانيات

والمراد بها أن يصير الشخص مسموحا له بالخدم السلطانية: يقيم حيث شاء، ويرتحل متى شاء: تارة بمعلوم يتناوله مجانا، وتارة بغير معلوم «١» ؛ وفيه فصلان:

الفصل الأول في طرخانيات أرباب السيوف

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٢٦٩/١٢

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٢٤/١٣

واعلم أن الطرخانية تكتب للأمراء تارة وللأجناد أخرى، وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية.

وقد جرت العادة أن يسمى ما يكتب فيها مراسيم؛ وهي على ثلاث «٢» مراتب:

المرتبة الأولى

(أن يفتتح المرسوم المكتتب في ذلك بالحمد لله) والرسم فيه على نحو من الولايات: وهو أن تستوفي الخطبة إلى آخرها، ثم يقال: وبعد، ثم يقال: ولما كان فلان ونحو ذلك، ثم يقال: اقتضى رأينا." (١)

"هذا التقرير، تكتب سجلات التحضير، وتنتظم الحسبانات المرفوعة، والمشارع الموضوعة، وتطرد القوانين المشروعة، وتثبت المكلفات المقطوعة؛ ولو لم يكن بين دواعي نقلها، وعوارض زللها وزوالها، إلا أن الأجناد إذا قبضوا واجباتهم عن منشور إلى سنة خمس في أواخر سنة سبع وسقط ساقطهم بالوفاة، وجرى بحكم السمع لا بالشرع إلى أن يرث وارثه دون بيت المال مستغل السنة الخراجية التي يلتقي فيها تاريخ وفاته من السنة الهلالية وفي ذلك ما فيه، مما يباين الإنصاف وينافيه [لكفى] «١» وإذا كان العدل وضع الأشياء في مواضعها فلسنا نحرم أيامنا المحرمة بذمامنا، ما رزقته أبناؤها من عدل أحكامنا، بل نخلع عن جديدها «٢» المس كل المس، و [نمنع] «٣» تبعة الضلال أن تسند مهادنته إلى نور الشمس، ولا نجعل أيامنا معمورة بالأسقاط التي تجمعها، بل مغمورة بالأقساط التي تنفعها؛ فليبن التاريخ على بنيانه وليحسم الخلف الواقع في السنين، بهذا الحق الصادع المبين، ولينسخ المشهود به في جميع الدواوين، وليكاتب بحكمه من الخراج إلى من يمكنه من المستخدمين- ومنها أن المستجد من الأجناد لو حمل على السنة الخراجية في استغلاله، وعلى الهلالية في استقباله، لكان محالا على ما يكون محالا، وكان يتعجل استقبالا، ويباطن استغلالا؛ وفي ذلك ما ينافر أوصاف الإنصاف ويصون الفلاح إن شاء الله تعالى.

الضرب الثاني (ما يكتب به في زماننا)

وقد جرت العادة أن يكتب في قطع الثلث وأنه يفتتح بخطبة مفتتحة ب «الحمد لله» ثم يقال: وبعد فإنا لما اختصنا الله تعالى به من النظر في أمر الناس." (٢)

"الفصل الثاني من الباب الرابع من المقالة السادسة

(فيما يكتب في التذاكر [وفيه ثلاثة أضرب] «١») والتذاكر جمع تذكرة.

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٥١/١٣

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٧٨/١٣

قال «في مواد البيان» : **وقد جرت العادة أن** تضمن جمل الأموال التي يسافر بها الرسول ليعود إليها إن أغفل شيئا منها أو نسيه، أو تكون حجة له فيما يورده ويصدره، قال: ولا غنى بالكاتب عن العلم بعنواناتها وترتيبها.

فأما عنوان التذكرة فيكون في صدرها تلو البسملة؛ فإن كانت للرسول يعمل عليها، قيل: تذكرة منجحة صدرت على يد فلان عند وصوله إلى فلان بن فلان، وينتهي بمشيئة الله تعالى إلى ما نص فيها، وإن كانت حجة له يعرضها لتشهد بصدق ما يورده، قيل: تذكرة منجحة صدرت على يد فلان بن فلان بما يحتاج إلى عرضه على فلان.

وأما الترتيب فيختلف أيضا بحسب اختلاف العنوان: فإن كانت على الرسم الأول، كان بصدرها «قد استخرنا الله عزو جل وندبناك، أو عولنا عليك، أو نفذناك، أو وجهناك إلى فلان: لإيصال ما أودعناك وشافهناك به من كذا وكذا» ويقص جميع الأغراض التي ألقيت إليه مجملة. وإن كانت محمولة على يده كالحجة له فيما يعرضه، قيل: «قد استخرنا الله عز وجل وعولنا عليك في تحمل تذكرتنا هذه والشخوص بها إلى فلان، أو النفوذ، أو التوجه، أو المصير، أو القصد." (١)

"الشريف مفردا، كما في الأمثلة السلطانية إلى من جرت العادة أن تكون العلامة له الاسم الشريف، وما «١» يتعلق بالتقاليد والتواقيع والمراسيم الشريفة، وأوراق الطريق، أو يضاف إلى الاسم الشريف والده، أو أخوه، وذلك مما يتعلق بالأمثلة الشريفة خاصة إلى من جرت عادته بأن تكون العلامة إليه كذلك، وذلك بخلاف المناشير: فإن العلامة فيها على ما جرت به العوائد، أن يكتب السلطان: «الله أملي» أو «الله وليي» أو «الله حسبي» أو «الملك لله» أو «المنة لله وحده» لا يختلف في ذلك أعلى ولا أدنى؛ فلا يحتاج إلى إشارة بسببها ينبه عليها، لأن ترك الإشارة إليها دليل عليها، وإشارة إليها، كما ذكر النحاة علامات الاسم والفعل ولم يذكروا للحرف علامة، فصار ترك العلامة إليها علامة، بخلاف الأمثلة: فإنها تختلف: فتكون العلامة فيها تارة «الاسم» ، وتارة «أخوه» ، وتارة «والده» .

الجملة الرابعة (في الطغرى «٢» ،التي تكون بين الطرة المكتتبة في أعلى المنشور وبين البسملة)

قال في «التعريف» : **قد جرت العادة أن** تكتب للمناشير الكبار كمقدمي الألوف والطبلخانات طغرى بالألقاب السلطانية؛ ولها رجل مفرد بعملها وتحصيلها بالديوان. فإذا كتب الكاتب منشورا أخذ من تلك الطغراوات واحدا، وألصقها فيما كتب به. قال في «التعريف» : وتكون فوق وصل بياض فوق البسملة.

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٨٤/١٣

قال في «التثقيف» : فبعد وصلين أو ثلاثة من الطرة.

قلت: ولم تزل هذه الطغرى مستعملة في المناشير إلى آخر الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» «٣» ثم تركت بعد ذلك ورفض استعمالها وأهملت. ولا يخفى أنه يرد عليها السؤال الوارد على الطغرى المكتتبة في أول المكاتبات إلى سائر ملوك الكفر من تقديم اسم السلطان على البسملة، على ما تقدم بيانه في موضعه.." (١)

"المنصورية الواصلة من مصر المحروسة وتعليقها على الكعبة الشريفة في كل موسم، وأن لا يعلوها كسوة غيرها، وأن أقدم علمه المنصور على كل علم في كل موسم، وأن لا يتقدمه علم غيره. وإنني أسهل زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين، والآمين لحرمه والحاجين والواقفين. وإنني أجتهد في حراستهم من كل عاد بفعله وقوله، ومتخطف للناس من حوله. وإنني أؤمنهم في سربهم، وأعذب لهم مناهل شربهم؛ وإنني والله أستمر بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصوري، وأفعل في الخدمة فعل المخلص الولي، وإنني والله أمتثل مراسيمه امتثال النائب للمستنيب، وأكون لداعي أمره أول سامع مجيب. وإنني ألتزم بشروط هذه اليمين من أولها إلى آخرها لا أنقضها.

المهيع الخامس (في صورة كتابة نسخ الأيمان التي يحلف بها)

وقد جرت العادة أنه إذا أستقر ملك، في الملك يحلف له جميع ال أمراء والنواب في المملكة، وإذا استقر نائب من النواب في نيابة حلف ذلك النائب عند استقراره؛ وربما اقتضت الحال التحليف في غير هذه الأوقات.

ثم الأيمان التي يحلف بها على ضربين:

الضرب الأول (الأيمان التي يحلف بها الأمراء بالديار المصرية)

وقد جرت العادة أن كتاب ديوان الإنشاء يجتمع من يجتمع منهم بالقلعة، ويتصدى كل واحد منهم لتحليف جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية وغيرهم، وينصب المصحف الشريف على كرسي أمام الحالفين، ويحلف كل كاتب من كتاب الإنشاء من يحلفه تجاه المصحف بألفاظ اليمين المتقدمة الذكر على الوجه الذي يرسم تحليفهم عليه؛ ويكتب كل واحد من أولئك الكتاب أسماء الذين حلفهم في ورقة ويؤرخها ويحملها إلى ديوان الإنشاء فتخلد فيه.." (٢)

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٦٧/١٣

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣١٩/١٣

"الضرب الثاني (الأيمان التي يحلف بها نواب السلطنة والأمراء بالممالك الشامية وما انضم إليها)

وقد جرت العادة أنه إذا أريد تحليف نائب من نواب الممالك الخارجة عن الحضرة بالديار المصرية أو أمير من أمرائها أن تكتب نسخة يمين من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية، وتجهز إلى النائب أو الأمير الذي يقصد تحليفه فيحلف على حكمها متلفظا بألفاظها جميعها. قال في «التثقيف» : وصفة ما يكتب في النسخة بعد البسملة من يمين الورق «أقول وأنا» .... ثم يخلي بياضا قليلا بقدر أصبعين لموضع كتابة الحالف اسمه، ثم يكتب تحته من يمين الورق بهامش دقيق جدا «والله والله والله» وتكمل تتمة النسخة على ما تقدم ذكره. وتكون سطورها متلاصقة سطرا إلى سطر إلى عند قوله «وهذه اليمين يميني وأنا» ..... فيخلي بعد ذلك بياضا قليلا لموضع كتابة اسم الحالف أيضا؛ ثم يكتب من يمين الورق:

«والنية في هذه اليمين بأسرها» إلى آخر النسخة.

قلت: وكذلك نسخ الأيمان التي تكتب ليحلف بها في الهدن التي تفرد الأيمان فيها عن الهدن، يخلى فيها بياض لكتابة الاسم بعد قوله «أقول وأنا» ...... وبعد قوله «وهذه اليمين يميني وأنا» ..... سواء في ذلك اليمين التي يحلف بها السلطان أو الملك الذي تقع معه المهادنة: من ملوك الإسلام أو ملوك الكفر.

وقد جرت العادة أن يكون الورق الذي تكتب فيه نسخ الأيمان التي يحلف بها النواب وغيرهم من الأمراء الخارجين عن الحضرة في قطع العادة. أما ما يحلف به على الهدن فلم أقف فيه على مقدار قطع الورق. والذي يظهر أن كل يمين تكون في قطع الورق الذي يكاتب بها ذلك الملك الذي يحلف.." (١)

"المرأة الكافرة فإنه لا يمنع الصحة. قال الغزالي: **وقد جرت العادة أن** يقول:

[نهادنكم] «١» على أن من جاءكم من المسلمين رددتموه، ومن جاءنا مسلما رددناه. فإن كان في المسلمين ضعف وخيف عليهم، جاز التزام المال لهم دفعا للشر، كما يجوز فك الأسير المسلم إذا عجزنا عن انتزاعه.

الرابع- أن لا تزيد مدة الهدنة عن أربعة أشهر عند قوة المسلمين وأمنهم، ولا يجوز أن تبلغ سنة بحال؛ وفيما دون سنة وفوق أربعة أشهر قولان للشافعي رضي الله عنه، أصحهما أنه لا يجوز، أما إذا كان في المسلمين ضعف وهناك خوف، فإنه تجوز المهادنة إلى عشر سنين؛ فقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة عشر سنين كما رواه أبو داود في سننه. ولا تجوز الزيادة عليها على الصحيح؛ وفي وجه تجوز الزيادة على ذلك للمصلحة.

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٢٠/١٣

فلو أطلق المدة فالصحيح من مذهب الشافعي أنها فاسدة؛ وقيل: إن كانت في حال ضعف المسلمين حملت على عشر سنين، وإن كانت في حال القدرة: فقد قيل تحمل على الأقل: وهو أربعة أشهر، وقيل على الأكثر: وهو ما يقارب السنة. ولو صرح بالزيادة على ما يجوز عقد الهدنة عليه: فإن زاد على أربعة أشهر في حال القوة أو على عشر سنين في حال الضعف صح في المدة المعتبرة وبطل في الزائد؛ فإن احتيج إلى الزيادة على العشر، عقد على عشر ثم عشر ثم عشر قبل تقضي الأولى؛ قاله الفوراني «٢» وغيره من أصحابنا الشافعية. وذهب أصحاب مالك رحمهم الله إلى أن مدتها غير محدودة، بل يكون موكولا إلى اجتهاد الإمام ورأيه.." (١)

"المعقود معه الهدنة كافرا. وإن شرط له مالا عند ضعف المسلمين للضرورة أتى في كلامه بما يقتضي أن ذلك رغبة في الصلح المأمور به، لا عن خور طباع وضعف قوة؛ إذ الله تعالى يقول: فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم

«١» .

ومنها- أن يتحفظ من سقط يدخل على الشريعة نقيصة، إن كانت المهادنة مع أهل الكفر، أو يجر إلى سلطانه وهيصة «٢» ، إن كانت بين مسلمين؛ ويتحذر كل الحذر من خلل يتطرق إليه: من إهمال شيء من الشروط، أو ذكر شرط فيه خلل على الإسلام أو ضرر على السلطان، أو ذكر لفظ مشترك أو معنى ملتبس يوقع شبهة توجب السبيل إلى التأول، وأن يأخذ المأخذ الواضح الذي لا تتوجه عليه معارضة، ولا تتطرق إليه مناقضة، ولا يدخله تأويل.

ومنها- أن يبين أن الهدنة وقعت بعد استخارة الله تعالى وتروية النظر في ذلك وظهور الخير فيه، ومشاورة ذوي الرأي وأهل الحجى، وموافقتهم على ذلك.

ومنها- أن يبين مدة الهدنة. فقد تقدم أن الصحيح من مذهب الشافعي أنه إذا لم تبين المدة في مهادنة أهل الكفر فسدت الهدنة.

قال في «التعريف» : **وقد جرت العادة أن** يحسبوها مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمرية. ويذكر سنين وأشهرا وأياما وساعات حتى يستوفي السنين الشمسية المهادن عليها. أما في عقد الصلح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك، بل ربما قالوا: إن ذلك صار لازما للأبد، حتى في الولد وولد الولد.." (٢)

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٤/٩

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٤/١٤

"صورة الحلف الذي يقع في الهدن في الكلام على الأيمان «١» فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

ومنها- أن يحرر أمر التاريخ بالعربي وما يؤرخ به في مملكة الملك المهادن: من السرياني والرومي وغيرهما. قال في «التعريف» : ولهم عادة أن يحسبوها مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمرية، ويذكر سنين وأشهرا وأياما وساعات حتى يستكمل السنين الشمسية المهادن عليها. وقد تقدم في الكلام على التاريخ من المقالة الثالثة كيفية معرفة التواريخ واستخراجها.

ومنها- أن يقع الإشهاد على كل من المتعاقدين بذلك، ولا بأس بإثبات ذلك. **وقد جرت العادة أنه** يشهد على كل ملك جماعة من أهل دولته ليقضى على ملكهم بقولهم وإن كان مخالفا في الدين. وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم «أشهد على مصالحته مع قريش رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين» . وربما طلب النائب عن الملك الغائب إحضار نسخة مهادنة من جهة مستنيبه على ما وقع به العقد، مشمولة بخط الكتاب، مشهودا عليه فيها بأهل مملكته، أو تجهز إليه نسخة يكتب عليها خطه، ويشهد عليه فيها أهل مملكته. والغالب الاكتفاء بالرسل في ذلك.." (١)

"الفصل الثاني في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات «١» ، ومذاهب الكتاب في ذلك؛ وفيه طرفان.

الطرف الأول (فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم- وتخلد منه نسخ بالأبواب السلطانية، وتدفع منه نسخ إلى ملوك الكفر)

ثم ما يكتب في ذلك على نمطين:

النمط الأول (ما يكتب في طرة الهدنة من أعلى الدرج)

وقد جرت العادة أن يفتتح بلفظ «هذا» أو لفظ «هذه» وما في معنى ذلك، مثل أن يكتب: «هذا عقد صلح» أو «هذا كتاب هدنة» أو «هذه موادعة» أو «هذه مواصفة» وما أشبه ذلك. وربما حذف المبتدأ وهو «هذا» واكتفي بالخبر عنه، مثل أن يقال: «كتاب هدنة» أو «كتاب موادعة» أو «عقد مصالحة» وما أشبه ذلك.." (٢)

"الملك الأشرف وبين الملك دون حاكم. أما سائر النسخ المتقدمة فإنها مبتذلة الألفاظ، غير رائقة الترتيب، لا يصدر مثلها من كاتب عنده أدنى ممارسة لصناعة الكلام. والعجب من صدور ذلك في زمن

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٦/١٤

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٧/١٤

«الظاهر بيبرس» و «المنصور قلاوون» وهما من هما من عظماء الملوك!!! وكتابة الإنشاء يومئذ بيد بني عبد الظاهر الذين هم بيت الفصاحة ورؤوس أرباب البلاغة!!! ولعل ذلك إنما وقع، لأن الفرنج كانوا مجاورين للمسلمين يومئذ ببلاد الشام، فيقع الاتفاق والتراضي بين الجهتين على فصل فصل، فيكتبه كاتب من كل جهة من جهتي المسلمين والفرنج بألفاظ مبتذلة غير رائقة، طلبا للسرعة، إلى أن ينتهي بهم الحال في الاتفاق والتراضي، إلى آخر فصول الهدنة، فيكتبها كاتب الملك المسلم على صورة ما جرى في المسودة، ليطابق ما كتب به كاتب الفرنج؛ إذ لو عدل فيها كاتب السلطان إلى الترتيب، وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب، لاختل الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج أولا، فينكرونه حينئذ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق، لقصورهم في اللغة العربية، فيحتاج الكاتب إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المسودة. وبالجملة فإنما ذكرت النسخ المذكورة- على سخافة لفظها، وعدم انسجام ترتيبها- لا شتمالها على الفصول التي جرى فيها الاتفاق فيما تقدم من الزمان، ليستمد منها الكاتب ما لعله لا يحضر بباله من مقاصد المهادنات، أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها.

واعلم أنه قد جرت العادة، إنه إذا كتبت الهدنة، كتب قرينها يمين يحلف بها السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة، على التوفية بفصولها وشروطها، ويمين يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بعقد الهدنة، ممن يأذن له في عقدها عنه، بكتاب يصدر عنه بذلك، أو تجهز نسختها إلى الملك الكافر ليحلف عليها، ويكتب خطه بذلك، وتعاد إلى الأبواب السلطانية.." (١)

"الباب السادس من المقالة التاسعة (في الفسوخ الواردة على العقود السابقة؛ وفيه فصلان)

الفصل الأول (الفسخ؛ وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر)

قال في «التعريف» : وقل أن يكون فيه إلا ما يبعث به على ألسنة الرسل. قال: وقد كتب عمي الصاحب شرف الدين [أبو محمد] «١» عبد الوهاب رحمه الله، سنة دخول العساكر الإسلامية ملطية «٢» ، سنة أربع عشرة وسبعمائة فسخا على «التكفور» متملك سيس «٣» ، كان سببا لأن زاد قطيعته.

ولم يذكر صورة ما كتبه في ذلك.

وقد جرت العادة أنه إذا كان الفسخ من الجانب الواحد أن يذكر الكاتب فيه موجب الفسخ الصادر عن

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٤/٨٣

المفسوخ عليه: من ظهور ما يوجب نقض العهد، ونكث العقد، وإقامة الحجة على المفسوخ عليه من كل وجه.." (١)

"الفصل الرابع من الباب الأول من المقالة العاشرة (في الصدقات؛ وفيه طرفان)

الطرف الأول (في الصدقات الملوكية وما في معناها)

قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تكتب له خطبة صداق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد، فتطال للملوك وتقصر لمن دونهم بحسب الحال.

وهذه نسخة صداق، كتب به للملك السعيد بركة، ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي قبل سلطنته، بالقلعة المحروسة، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر؛ وهي:

الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة، ومصدق الفأل لمن جعل عنده أعظم بركة، ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانه وصهره ملكه، الذي جعل للأولياء من لدنه سلطانا نصيرا، وميز أقدارهم باصطفاء تأهله حتى حازوا نعيما وملكا كبيرا، وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أفاد شمس آمالهم ضياء وزاد قمرها نورا، وشرف به وصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيما وإنعامه كثيرا، مهيىء أسباب التوفيق العاجلة والآجلة، وجاعل ربوع." (٢)

"الفصل الخامس من الباب الأول من المقالة العاشرة (فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت العادة بمراعاة النثر المسجوع فيه، ومحاولة الفصاحة والبلاغة؛ وفيه طرفان)

الطرف الأول (فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب؛ ثم هو على صنفين)

الصنف الأول (الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات الكتب ونحوها)

أما الإجازة بالفتيا، **فقد جرت العادة أنه** إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس- أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس، ويكتب له بذلك.

وجرت العادة أن يكون ما يكتب في الغالب في قطع عريض، إما في فرخة الشامي أو نحوها من البلدي، وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطرا متوالية، بين كل سطرين نحو أصبع عريض.

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٢١/١٤

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٤١/١٤

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن الشهير بابن الملقن «١» ، سقى الله تعالى عهده،." (١)

"محمد بن إسماعيل البخاري» ، ومنها «البدر المنير، في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير» للإمام أبي القاسم الرافعي، وبه تكمل معرفة الفقيه ويصير محدثا فقيها.

وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعني روايته بشرطه عند أهله، زاده الله وإياي من فضله؛ ومنها الكتب الستة: «البخاري» و «مسلم» و «أبو داود» و «الترمذي» و «النسائي» و «ابن ماجه» ، والمسانيد: «مسند أحمد» و «مسند الشافعي» وغير ذلك.

وكان ذلك في تاريخ كذا. وكتب عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، غفر الله لهم: حامدا ومصليا ومسلما وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخره» .

قلت: وتكون ألقاب المجاز على قدر رتبته، مثل أن يكتب له: «الفقير إلى الله تعالى، الشيخ، الإمام، العالم العامل، الأوحد، الفاضل، المفيد، البارع، علم المفيدين، رحلة القاصدين، فلان الدين، أبو فلان فلان بن فلان» (بحسب رتب آبائه) . وإنما أهملت ذكر الألقاب في هذه الإجازة، من حيث إنه لا يليق بأحد أن يذكر ألقاب نفسه في مصنف له، لأنه يصير كأنه أثنى على نفسه.

وأما الإجازة بعراضة الكتب، **فقد جرت العادة أن** بعض الطلبة إذا حفظ كتابا في الفقه، أو أصول الفقه، أو النحو، أو غير ذلك من الفنون، يعرضه على مشايخ العصر، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب، ويفتح منه أبوابا ومواضع، يستقرئه إياها من أي مكان اتفق، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب، وكتب له بذلك كل من عرض عليه، في ورق مربع صغير، يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء، وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها: فمن عال، ومن هابط. وربما خفف بعضهم فكتب:." (٢)

"الصنف الثاني (التقريضات التي تكتب على المصنفات المصنفة والقصائد المنظومة)

قد جرت العادة أنه إذا صنف في فن من الفنون أو نظم شاعر قصيدة فأجاد فيها أو نحو ذلك، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقريض والمدح، ويأتي كل منهم بما في وسعه من البلاغة في

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٤/ ٣٦٤

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٤/ ٣٦٩

ذلك.
فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي الشافعي في الاستدلال على أن البسملة من أول الفاتحة؛ وهي:
وقفت على هذا التصنيف الذي وضعه هذا العلامة، ونشر به في المذهب الشافعي أعلامه، وأصبح ونسبته إليه أشهر علم وأبهر علامة؛ فأقسم ما سام الروض حدائقه، ولا شام أبو شامة بوارقه، كل الأئمة تعترف بما فيه من الأدلة، وكل التصانيف تقول أمامه: بسم الله؛ كم فيه من دليل لا يعارض بما ينقضه، وكم فيه من حجة يكل عنها الخصم لأن عقله على محك النقد يعرضه؛ قد أيد ما ادعاه بالحديث والأثر، ونقل مذهب كل إمام سبق وما عثر؛ لقد سر الشافعي بنص قوله الذي هذبه، وجعل أعلام مذهبه مذهبة، وأتى فيه بنكت تطرب من أسرار الحرف، وفوائد عرف بها ما بين ابن الدرهم وبين البوني من البون في تفاوت الصرف:
أكرم به مصنفا ... فاق تصانيف الورى!
ليل المداد فيه ... بالمعنى المنير أقمرا!
كم فيه برد حجة ... قد حاكه محررا،
وكم دليل سيفه ... إذا التقى خصما فرى
فلم يكن من بعده ... مخالف قط يرى!!
ومن ذلك ما كتب به المقر الشهابي بن فضل الله على قصيدة ميمية،." (١)
"الصنف الثاني (إسجالات العدالة)
قد جرت العادة أن أبناء العلماء والرؤساء تثبت عدالتهم على الحكام، ويسجل لهم بذلك، ويحكم الحاكم بعدالة من تثبت عدالته لديه، ويشهد عليه بذلك، ويكتب له بذلك في درج عريض، إما في قطع فرخة الشامي الكاملة، وإما في نحو ذلك من الورق البلدي، وتكون كتابته بقلم الرقاع وأسطره متوالية، وبين كل سطرين تقدير عرض أصبع أو نحو ذلك.
قلت: وهذه نسخة سجل أنشأته، كتب به لولدي نجم الدين أبي الفتح محمد، وكتب له بها عند ثبوت عدالته، على الشيخ العلامة ولي الدين أحمد، ابن الشيخ الإمام الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي، خليفة الحكم العزيز بمصر والقاهرة المحروستين، في شهور سنة ثلاث عشرة وثمانمائة؛ وهي:
الحمد لله الذي أطلع نجم العدالة من سماء الفضائل في أفق معاليها، وأنار بدراري العلماء من حنادس

---
(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٤/٣٧٨

الجهالة مدلهم لياليها، وكمل عقود النجابة من نجباء الأبناء بأغلى جواهرها وأنفس لآليها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ترقي قائلها إلى أرفع الذرا، ويمتطي منتحلها صهوة الثريا: وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المخصوص بمحاسن الشيم، والموصوف بكرم المآثر ومآثر الكرم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا من عرا الدين بالسبب الأقوى، وسلكوا جادة الهداية فحصلوا من أقصى مغياها على الغاية القصوى، وسلم تسليما كثيرا.

وبعد، فلما كانت العدالة هي أس الشريعة وعمادها، وركنها الأعظم في الاستناد إلى الصواب وسنادها، لا تقبل دونها شهادة ولا رواية، ولا يصح مع عدمها إسناد أمر ولا ولاية- فقد بنيت الشريعة المطهرة على أركانها." (١)

"وقد جرت العادة أن المراكب إذا سفرت سفر معها من يتدركها من ثلاجين لمداراتها. ثم الواصلون بها في البحر يعودون على البريد في البر.." (٢)

"واعلم أن الثلج إذا وصل على المراكب والهجن حتى انتهى إلى القلعة، خزن بالشرابخاناه السلطانية. قال في «التعريف» : ومذ قرر أن يحمل من الثلج على الظهر ما يحمل، استقر منه خاص المشروب، لأنه يصل أنظف وآمن عاقبة، على أن المتسفرين يأخذون الجاشني «١» منه بحضور أمير مجلس وشاد الشرابخاناه السلطانية وخزانها. أما المنقول في البحر فلما عدا ذلك. قال: وللمجهزين به من الخلع ورسوم الإنعام رسوم مستقرة، وعوائد مستمرة.

قلت: وقد جرت العادة أن واصل الثلج في كل نقلة في البر والبحر تكتب به رجعة من ديوان الإنشاء، وهذا هو وجه تعلقه بديوان الإنشاء.." (٣)

"الطرف الثاني في ذكر جسورها الحابسة لمياه النيل على أرض بلادها إلى حين استحقاق الزراعة؛ وأصناف أرضها

؛ وما يختص بكل صنف من أرضها من الأسماء الدائرة بين كتابها؛ ومزارعها؛ وبيان أصناف مزدرعاتها وأحوال زرعها

فأما جسورها فعلى صنفين:

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٨٩/١٤

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٤٤٢/١٤

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٤٤٤/١٤

الصنف الأول الجسور «١» السلطانية

وهي الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة التي تعمر في كل سنة في الديوان السلطاني بالوجهين: القبلي والبحري، ولها جراريف ومحاريث وأبقار مرتبة على غالب البلدان بكل عمل من أعمالها. **وقد جرت العادة أن** يجهز لكل عمل في كل سنة أمير بسبب عمارة جسوره، ويعبر عنه بكاشف الجسور بالعمل الفلالي، ويعرف بذلك في تعريف مكاتبته عن الأبواب الشريفة، وربما أضيف كشف جسور عمل من الأعمال إلى متولي جريه، ويقال في تعريفه: والي فلانة وكاشف الجسور بها، إذا كانت المكاتبة بسبب شيء يتعلق بالجسور؛ ولهذه الجسور كاتب منفرد بها مقرر في ديوانه ما على كل بلد من الجراريف والأبقار، وتكتب التذاكير السلطانية لكاشف كل عمل في الورق الشامي المربع، ويشملها العلامة الشريفة السلطانية بالاسم الشريف، وللجسور خولة «٢» ومهندسون لكل عمل يقومون في خدمة الكاشف في عمارة الجسور إلى أن تنتهي عمارتها.." (١)

"الضرب الثاني ما هو جار في الإقطاعات

وهو جل البلاد بالوجهين القبلي والبحري، والبلاد النفيسة الكثيرة المتحصل في الغالب تقطع للأمراء على قدر درجاتهم، فمنهم من يجتمع له نحو العشر بلاد إلى البلد الواحدة، وما دون ذلك من البلدان يقطع للمماليك السلطانية يشترك الاثنان فما فوقهما في البلدة الواحدة في الغالب، وربما انفرد الواحد منهم بالبلد الواحد. وما دون ذلك يكون لأجناد الحلقة «١» تجتمع الجماعة منهم في البلد الواحد بحسب مقداره وحال مقطعيه، وفي معنى أجناد الحلقة المقطعون من العربان بالبحيرة والشرقية من أرباب الأدراك «٢» وملتزمي خيل البريد وغيرهم.

ثم اعلم أن لبلاد الديار المصرية حالين:

الحال الأول

– أن تنجز إجارة طين البلد بقدر معين لا يزيد ولا ينقص وطلب الخراج على حكمها.

الحال الثاني

– أن تكون البلاد مما جرت العادة بمساحة أرضها لسعة طينها واختلاف الري فيه بالكثرة والقلة في السنين؛ **وقد جرت العادة في** ذلك أن كاتب خراج الناحية يطلب خولة القانون بذلك البلد وتوريخ الأحواض على المزارعين بفدن مقدرة، وتكتب بها أوراق تسمى أوراق المسجل، وتحمل نسختها إلى ديوان صاحب

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣/٥١٥

الإقطاع فتخلد فيه، فإذا طلع الزرع خرج من باب صاحب الإقطاع مباشرون، فيمسحون أرض تلك البلد في كل قبالة بأسماء المزارعين، ويكتب." (١)

"والأخذ على أيديهم، **وقد جرت العادة أن** يكونوا أربعة أمراء: واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه «١» .

الرابعة- إمرة مجلس. وموضوعها «٢» وهو يتحدث على الأطباء والكحالين «٣» ، ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحدا.

الخامسة- إمرة سلاح. وأصل موضوعها حمل السلاح للسلطان في المجامع الجامعة، وصاحبها هو المقدم على السلاح دارية من المماليك السلطانية والمتحدث في السلاح خاناه السلطانية، وما يستعمل لها ويقدم إليها، ولا يكون إلا واحدا من الأمراء المقدمين «٤» .

السادسة- إمرة أخورية «٥» . وموضوعها التحدث على إصطبل السلطان وخيوله، وعادتها مقدم ألف يكون متحدثا فيها حديثا عاما، وهو الذي يكون ساكنا بإصطبل السلطان، ودونه ثلاثة من أمراء الطبلخاناه. أما أمراء العشرات والجند، فغير محصورين.

السابعة- الدوادارية «٦» . قال في «مسالك الأبصار» : وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد، هو وأمير جاندار وكاتب السر، ويأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكتب. وإذا خرج عن السلطان بكتابة." (٢)

"مع الدوادار وكاتب السر. قال: وصاحبها كالمتسلم للباب، وله به البردارية وطوائف الركابية والخازندارية. وإذا أراد السلطان تعزير أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة؛ وهو المتسلم للزردخاناه التي هي أرفع قدرا في الاعتقالات، ولا تطول مدة المعتقل بها، بل إما يعجل بتخلية سبيله أو إتلاف نفسه؛ وصاحب هذه الوظيفة هو الذي يطوف بالزفة حول السلطان في سفره، **وقد جرت العادة أن** يكون فيها أميران: مقدم ألف، وطبلخاناه، والمشار إليه هو المقدم «١» .

العاشرة- الاستادرية. قال في «مسالك الأبصار» : وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان وهو الذي يمشي بطلب السلطان، ويحكم في غلمانه وباب

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣/٥٢٥

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٩/٤

داره، وإليه أمر الجاشنكيرية، وإن كان كبيرهم نظيره في الإمرة من ذوي المئين، وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوي «٢» وما يجري مجرى ذلك للمماليك وغيرهم. **وقد جرت العادة أن** يكونوا أربعة: واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه، وربما نقصوا عن ذلك.

الحادية عشرة- الجاشنكيرية. وموضوعها التحدث في أمر السماط مع الأستادار على ما تقدمت الإشارة إليه، ويقف على السماط مع أستادار الصحبة، وأكبرهم يكون من الأمراء المقدمين.

الثانية عشرة- الخازندارية. وموضوعها التحدث في خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك، وكانت عادتها طبلخاناه، ثم استقرت تقدمة ألف، ويطالبه في حساب ذلك ناظر الخاص الآتي ذكره.." (١)

"الأدوية والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلك، يصرف ذلك لمن يعرض له مرض بالطريق.

الهيئة السابعة النوم

وقد جرت العادة أنه يبيت عنده خواص مماليكه من الأمراء وأرباب الوظائف من الجمدارية وغيرهم، يسهرون بالنوبة بقسمة بينهم على بناكيم الرمل «١» ، كلما انقضت نوبة قوم أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم، ويتعانى كل منهم ما يشاغله عن النوم فقوم يقرأون في المصاحف، وقوم يلعبون بالشطرنج والأكل «٢» وغير ذلك.

المقصد السادس في عادته في إجراء الأرزاق؛ وهو على ضربين

الضرب الأول الجاري المستمر؛ وهو على نوعين

النوع الأول الإقطاعات

والإقطاعات في هذه المملكة تجري على الأمراء والجند، وعامة إقطاعاتهم بلاد وأراض يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيف شاء، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهات وهو القليل، وتختلف باختلاف حال أربابها.

فأما الأمراء بالديار المصرية فقد ذكر في «مسالك الأبصار» أن أكابر الأمراء." (٢)

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٢١/٤

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٥١/٤

"ثم في آخر الدولة الظاهرية برقوق استقرت الكتابة صفراء مشعرة بالذهب. ولهذه الكسوة ناظر مستقل بها، ولها وقف أرض بيسوس من ضواحي القاهرة يصرف منها على استعمالها.

وأما دوران المحمل، **فقد جرت العادة أنه** يدور في السنة مرتين: المرة الأولى في شهر رجب بعد النصف منه، يحمل وينادى لأصحاب الحوانيت التي في طريق دورانه بتزيين حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام، ويكون دورانه في يوم الاثنين أو الخميس لا يتعداهما، ويحمل المحمل على جمل وهو في هيئة لطيفة من خركاه وعليه غشاء من حرير أطلس أصفر، وبأعلاه قبة من فضة مطلية ويبيت في ليلة دورانه داخل باب النصر بالقرب من باب جامع الحاكم، ويحمل بعد الصبح على الجمل المذكور ويسير إلى تحت القلعة، فيركب أمامه الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم، ويركب جماعة من المماليك السلطانية الرماحة ملبسين المصفات «١» الحديد المغشاة بالحرير الملون، وخيولهم ملبسة البركستوانات «٢» والوجوه الفولاذ كما في القتال، وبأيديهم الرماح، عليها الشطفات السلطانية فيلعبون تحت القلعة كما في حالة الحرب، ومنهم جماعة صغار بيد كل منهم رمحان يديرهما في يده وهو واقف على ظهر الفرس، وربما كان وقوفه في نعل من خشب على ذباب سيفين من كل جهة؛ وهو يفعل كذلك ويهيئوا من أزيار النفط وغيرها جملة مستكثرة، ويطلق تحت القلعة في خلال ذلك، ثم يذهب إلى الفسطاط فيمر في وسطه، ثم يعود إلى تحت القلعة ويفعل كما في الأول إلا أنه أقل من ذلك؛ ثم يحمل من «٣» من جامع الحاكم ويوضع في مكان هناك إلى شوال؛ وفي خلال ذلك كله الطبلخانات والكوسات السلطانية تضرب خلفه، ويخلع فيه على جماعة مستكثرة؛ وكذلك يفعل في نصف شوال إلا." (١)

"أنه يرجع من تحت القلعة إلى باب النصر ويخرج إلى الريدانية للسفر ولا يتوجه إلى الفسطاط.

المقصد الثامن في انتهاء الأخبار إليه، وهو على ثلاثة أنواع

النوع الأول أخبار الملوك الواردة عليه مكاتبات منهم

وقد جرت العادة أنه إذا وصل رسول من ملك من الملوك إلى أطراف مملكته كاتب نائب تلك الجهة السلطان عرفه بوفوده، واستأذنه في إشخاصه إليه، فتبرز المراسيم السلطانية بحضوره فيحضر. فإذا وقع الشعور بحضوره فإن كان مرسله ذا مكانة عظيمة من الملوك: كأحد القانات من ملوك الشرق، خرج بعض أكابر الأمراء كالنائب وحاجب الحجاب ونحوهما للقائه، وأنزل بقصور السلطان بالميدان الذي يلعب فيه بالكرة، وهو أعلى منازل الرسل. وإن كان دون ذلك تلقاه المهمندار واستأذن عليه الدوادار وأنزله دار الضيافة

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٤/٥٩

أو ببعض الأماكن على قدر رتبته، ثم يرتقب يوم موكب فيجلس السلطان بإيوانه، وتحضر أعيان المملكة الذين شأنهم الحضور من أرباب السيوف والأقلام، ويحضر ذلك الرسول وصحبته الكتاب الوارد معه، فيقبل الأرض ويتناول الدوادار الكتاب منه فيمسحه بوجه الرسول، ثم يدفعه إلى السلطان فيفضه ويدفعه إلى كاتب السر فيقرؤه على السلطان ويأمر فيه أمره.

النوع الثاني الأخبار التي ترد عليه من جهة نوابه

عادة هذا السلطان أن يطالعه نوابه في مملكته بكل ما يتجدد عندهم من مهمات الأمور أو ما قاربها، وتؤخذ أوامره وتعود أجوبته عليهم من ديوان الإنشاء بما يراه في ذلك، أو يبتدئهم هو بما يقتضيه رأيه، وينفذ على البرد أو أجنحة." (١)

"الحمام الرسائلي على ما يأتي ذكره في المقالة الثالثة من الكتاب إن شاء الله تعالى.

وقد جرت العادة أنه إذا ورد بريد من بلد من بلاد المملكة أو عاد المجهز من الأبواب الشريفة بجواب، أحضره أمير جاندار والدوادار وكاتب السر بين يدي السلطان فيقبل الأرض، ثم يأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدي، ثم يناوله للسلطان فيفضه ويجلس كاتب السر فيقرؤه عليه ويأمر بأمره.

وأما بطائق الحمام، فإنه إذا وقع طائر من الحمام الرسائلي ببطاقة أخذها البراج وأتى بها الدوادار، فيقطع الدوادار البطاقة عن الحمام بيده، ثم يحملها إلى السلطان ويحضر كاتب السر فيقرؤها كما تقدم.

النوع الثالث أخبار حاضرته

جرت العادة أن والي الشرطة يستعلم متجددات ولاياته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك في كل يوم من نوابه، ثم تكتب مطالعة جامعة بذلك وتحمل إلى السلطان صبيحة كل يوم فيقف عليها. قال في «مسالك الأبصار» : وأما ما يقع للناس في أحوال أنفسهم فلا.

المقصد التاسع في هيئة الأمراء بالديار المصرية وترتيب إمرتهم

واعلم أن كل أمير من أمراء المئين أو الطبلخانات سلطان مختصر في غالب أحواله، ولكل منهم بيوت خدمة كبيوت خدمة السلطان من الطشت خاناه، والفراش خاناه، والركاب خاناه، والزردخاناه، والمطبخ، والطبلخاناه، خلا الحوائج خاناه فإنها مختصة بالسلطان، ولكل واحد من هذه البيوت مهتار متسلم حاصله،

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٤/٦٠

وتحت يده رجال وغلمان لكل منهم وظيفة تخصه، وكذلك لكل منهم الحواصل من إصطبلات الخيول ومناخات الجمال وشون الغلال؛ وله من أجناده." (١)

"ومعاملاتها بالدنانير وبالدراهم النقرة، وصنجتها في الذهب والفضة كصنجة الديار المصرية. وكان بها فلوس كل ثمانين منها بدرهم، ويعبر عن كل أربعة منها بحبة، ثم راجت بها الفلوس الجدد في أوائل الدولة الناصرية «فرج بن برقوق» ولكن كل ستة وثلاثين فلسا منها بدرهم، ورطلها سبعمائة وعشرون درهما بالدرهم المصري، وأواقية اثنتا عشرة أوقية، كل أوقية ستون درهما. ومكيلاتها معتبرة بالغرارة. وكل غرارة من غرائرها ثلاثة أرادب بالمصري؛ وقياس قماشها بالذراع المصري؛ وأرضها معتبرة بالفدان الإسلامي والفدان الرومي على ما تقدم في دمشق؛ وجيوشها مجتمعة من الترك ومن في معناهم ومن العرب والتركمان؛ وبها من الوظائف النيابة ثم تارة يصرح لنائبها بنيابة السلطنة.

وبكل حال فنائبها أو مقدم العسكر بها لا يكون إلا مقدم ألف؛ وبها أمراء الطبلخاناه والعشرات والخمسات ومن في معناهم، وفيها من وظائف أرباب السيوف الحجوبية وحاجبها أمير طبلخاناه، وولاية المدينة وولاية البر، وشد الدواوين، والمهمندارية، ونقابة النقباء وغير ذلك.

وبها من الوظائف الديوانية كاتب درج، وناظر جيش، وناظر مال، وولايتهم من الأبواب السلطانية.

ومن الوظائف الدينية قاض شافعي، وولايته من قبل قاضي دمشق إذا كانت غزة تقدمة عسكر وإلا فهي من الأبواب السلطانية، وقاض حنفي قد استحدث، وولايته من الأبواب السلطانية، وبها المحتسب، ووكيل بيت المال ومن في معناهم وكلهم نواب لأرباب هذه الوظائف بدمشق كما في القاضي الشافعي.

وليس بها قضاء عسكر ولا إفتاء دار عدل.

الثانية- (نيابة القدس) - وقد تقدم أنها كانت في الزمن المتقدم ولاية صغيرة وأن النيابة استحدثت فيها في سنة سبع وسبعين وسبعمائة، ونيابتها إمرة طبلخاناه، **وقد جرت العادة أن** يضاف إليها نظر القدس ومقام الخليل عليه السلام؛." (٢)

"عيسى في وقتنا هم ملوك البر فيما بعد واقترب، وسادات الناس ولا تصلح إلا عليهم العرب.

وأما الإمرة عليهم **فقد جرت العادة أن** يكون لهم أمير كبير منهم يولى من الأبواب السلطانية، ويكتب له تقليد شريف بذلك، ويلبس تشريفا أطلس أسوة النواب إن كان حاضرا، أو يجهز إليه إن كان غائبا؛ ويكون

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٦١/٤

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٥٠٢/٤

لكل طائفة منهم كبير قائم مقام أمير عليهم، وتصدر إليه المكاتبات من الأبواب الشريفة إلا أنه لا يكتب له تقليد ولا مرسوم. قال في «مسالك الأبصار» : ولم يصرح لأحد منهم بإمرة على العرب بتقليد من السلطان إلا من أيام العادل أبي بكر: أخي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، أمر منهم حديثة يعني ابن عقبة «١» بن فضل بن ربيعة، والذي ذكره قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون في تاريخه أن الإمرة عليهم في أيام العادل أبي بكر بن أيوب كانت لعيسى بن محمد بن ربيعة، ثم كان بعده ماتع ابن حديثة بن عقبة «٢» بن فضل، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة، وولي عليهم بعده ابنه مهنا، وحضر مع المظفر قطز قتال هولاكو ملك التتار وانتزع سلمية من المنصور ابن المظفر صاحب حماة وأقطعها له؛ ثم ولى الظاهر بيبرس عند مسيره إلى دمشق لتشييع الخليفة المستعصم إلى بغداد عيسى بن مهنا بن ماتع ووفر له الإقطاعات على حفظ السابلة وبقي حتى توفي سنة أربع وثمانين وستمائة؛ فولى المنصور قلاوون مكانه ابنه مهنا بن عيسى، ثم سافر الأشرف «خليل بن قلاوون» إلى الشام فوفد عليه مهنا بن عيسى في جماعة من قومه فقبض عليهم، وبعث بهم إلى قلعة الجبل بمصر فاعتقلوا بها وبقوا في السجن حتى أفرج عنهم العادل كتبغا عند جلوسه على التخت سنة أربع وتسعين وستمائة ورجع إلى إمارته؛ ثم كان له في أيام الناصر بن قلاوون نصرة واستقامة تارة وتارة، وميل إلى التتر بالعراق، ولم يحضر شيئا من وقائع غازان؛ ووفد أخوه فضل بن عيسى على السلطان الملك الناصر سنة اثنتي عشرة وسبعمائة فولاه مكانه وبقي مهنا مشردا، ثم لحق سنة ست." (١)

"السلطانية بمرسوم شريف.

الثالثة- (نيابة الرها) «١» - قال في «الثقيف» : **وقد جرت العادة أن** تكون نيابتها طبلخاناه، ثم استقر بها في الدولة المنصورية في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة مقدم ألف.

الصنف الثاني من أرباب السيوف بخارج حلب الولاة، وولاية جميعها من نائب حلب بتواقيع كريمة، والمشهور منها اثنتا عشرة ولاية

الأولى- (ولاية بر حلب كما في دمشق) - إلا أن والي بر حلب هو والي الولاة.

الثانية- (ولاية كفرطاب) «٢» - وواليها جندي.

الثالثة- (ولاية سرمين) - وواليها في الغالب جندي، وربما كان أمير عشرة.

الرابعة- (ولاية الجبول) «٣» - وواليها جندي.

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٤/٢١٣

الخامسة- (ولاية جبل سمعان) - وواليها جندي، وهو مقيم بمدينة حلب، يحضر المواكب مع والي المدينة ووالي البر: لقربه منها.

السادسة- (ولاية عزاز) «٤» - وواليها جندي، وربما كان أمير عشرة.

السابعة- (ولاية تل باشر) «٥» - وكان لها وال بمفردها جندي، ثم أضيفت آخرا لعينتاب.." (١)

"قاسم، بن جماز، بن قاسم، بن مهنا، بن الحسين، بن مهنا، بن داود، بن القاسم، بن عبيد الله، بن طاهر، بن يحيى، بن الحسن، بن جعفر حجة الله، بن عبد الله بن الحسين الأصغر، بن علي زين العابدين، بن الحسين السبط، بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وإمرتها الآن متداولة بين بني عطية وبين بني جماز، وهم جميعا على مذهب الإمامية الرافضة يقولون بإمامة الاثني عشر إماما وغير ذلك من معتقدات الإمامية، وأمراء مكة الزيدية أخف في هذا الباب شأنا منهم.

الجملة الرابعة في ترتيب المدينة النبوية

أما معاملاتها فعلى ما تقدم في الديار المصرية من المعاملة بالدنانير والدراهم، والأمر في الفلوس على ما تقدم في مكة؛ ويعتبر وزنها في المبيعات بالمن وهو مائتان وستون درهما على ما تقدم في مكة؛ ويعتبر كيلها بالمد، وقياس قماشها بالذراع الشامي؛ وأسعارها نحو أسعار مكة، بل ربما كانت مكة أرخى سعرا منها لقربها من ساحل البحر بجدة.

وأما إمارتها فإمارة أعرابية كما في مكة من غير فرق.

وأما وفود الحجيج عليها، **فقد جرت العادة أن** كل من قصد السبق في العود إلى الديار المصرية من الجند وغيرهم يزور النبي صلى الله عليه وسلم عند ذهاب الركب إلى مكة ثم يعود بعد الحج إلى مصر من غير تعريج على المدينة، وباقي الحجيج وأمير الركب لا يأتونها للزيارة إلا بعد انقضاء الحج.

واعلم أن كسوة الحجرة الشريفة ليست مما يجدد في كل سنة كما في كسوة الكعبة، بل كلما بليت كسوة جددت أخرى، ويقع ذلك في كل نحو سبع سنين أو ما قاربها، وذلك أنها مصونة عن الشمس، بخلاف كسوة الكعبة فإنها بارزة للشمس فيسرع بلاؤها.." (٢)

"الصنف الثاني (ما يصدر عن غير صاحب ديوان الإنشاء، كالأمور التي يكتب بها من الدواوين السلطانية غير ديوان الإنشاء وتلتمس الكتب من ديوان الإنشاء على مقتضاها، كالمكاتبات الخاصة بتعلقات

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٢٣٦/٤

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٠٦/٤

شيء من الدواوين المذكورة، وبعض التواقيع التي أصلها من ديوان الوزارة)

وينحصر ذلك في أربعة دواوين:

الديوان الأول- ديوان الوزارة

: وهو أعظمها خطرا، وأجلها قدرا.

وقد جرت العادة أنه إذا دعت الضرورة إلى كتابة كتاب من ديوان الإنشاء يتعلق بديوان الوزارة أن تكتب به قائمة من ديوان الوزارة في ورقة ديوانية بما مثاله: «رسم بالأمر الشريف- شرفه الله تعالى وعظمه- أن يكتب مثال شريف إلى فلان الفلاني بكذا وكذا» . وكيفية وضع هذه القائمة أن يكون السطر الأول في رأس الورقة من الوجه الأول منها، وآخره «شرفه الله تعالى وعظمه» وبينه وبين السطر الثاني قدر إصبعين معترضين بياضا، وباقي السطور مسترسلة متقاربة بقلم الرقاع؛ ويكتب الوزير في البياض الذي بين السطر الأول والثاني بقلم الثلث ما مثاله: «يكتب» . ويوجه بالقائمة إلى ديوان الإنشاء صحبة مدير من ديوان الوزارة أو غيره، فيكتب على حاشيتها يكتب بذلك، ويعينها على بعض كتاب الإنشاء فيكتب مثالا بما فيها، ويخلد القائمة عنده شاهدا له، وربما خلدت بديوان الإنشاء في جملة ما يخلد في الأضابير «١» شاهدا لديوان الإنشاء، والأول هو الأليق.

وإن كان الذي يكتب من ديوان الوزارة توقيعا بإطلاق أو نحوه مما أصله من ديوان الوزارة، كتب الوزير على حاشية قصة صاحبه ما مثاله «يكتب بذلك، أو." (١)

"المقصود منها لطولها واختلاط بعض مقاصدها ببعض. وأما كونها مبلغة للغرض المطلوب وفهم المخاطب، فلأنها إذا كانت بصدد الاختصار المجحف والتعقيد، نبا عنها فهم الرئيس ومجها سمعه، فإما أن يعرض عنها فيفوت على صاحبها المطلوب، وإما أن يسأل غيره عن معناها فيكون سببا لتنزله عن عز الرياسة إلى ذل السؤال، وكلاهما غير مستحسن.

وقد جرت العادة في مثل ذلك أن يخلى من أول الورقة قليلا، ويجعل لها هامش بحسب عرضها، ويبتدأ فيها بالبسملة ثم يكتب تحت أول البسملة:

«المملوك فلان يقبل الأرض، وينهي كذا وكذا» إلى آخر إنهائه، ثم يقال:

«وسؤاله كذا وكذا» فإن كان السؤال لغير للسلطان قال: «وسؤاله من الصدقات الشريفة كذا وكذا» وإن كان السؤال لغير السلطان قال: «وسؤاله من الصدقات العميمة كذا وكذا» . ثم إن كان المسؤول كتابا؛ فإن كان

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٩١/٦

عن السلطان قال:

وسؤاله مثال شريف بكذا وكذا، وإن كان عن غير السلطان قال: «مثال كريم بكذا وكذا» ثم يقول إن شاء الله تعالى، ويحمد الله تعالى ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويحسبل «١» . وربما كتب «المملوك فلان» بحاشية القصة، خارجا عن سمت «٢» البسملة. وربما أبدل لفظ المملوك بلفظ الفقير إلى الله تعالى.

ويقال حينئذ بدل «يقبل الأرض» «يبتهل إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة» أو «يواصل بالأدعية الصالحة» ونحو ذلك.

وقد جرت العادة في كتابة القصص أن صاحبها إن كان أميرا ونحوه كتب تحت البسملة «الملكي الفلاني» بلقب سلطانه، مخليا بياضا من جانبيها. على أنه قد تصدى لكتابة القصص من لا يفرق بين حسنها وقبيحها، ولا ينظر في دلالتها، ولا يراعي مدلولها. وذلك كسنة الزمان في أكثر أحواله.

قلت: وقد جرت عادة أكثر الناس في القصص أنه إذا فرغ الكاتب من." (١)

"وتدخل القصص إليه، فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها، فاتخذ بيتا له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص، وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولا فأولا فينظر فيه لئلا يقدم بعضها على بعض.

قال: وقدم عليه رجل فتظلم فأنصفه فاستخفه الفرح حتى غشي عليه، فلما أفاق قال: ما حسبت أني أعيش حتى أرى هذا العدل فلما رأيته داخلني من السرور ما زال معه عقلي- فقال له المهدي: كان الواجب أن ننصفك في بلدك، وكان قد صرف في نفقة طريقه عشرين دينارا فأمر له بخمسين دينارا وتحلل منه.

قال أبو الفضل الصوري: ومهما كان من الرقاع يحتاج إلى العرض على السلطان، عرضه عليه، وأحسن السفارة والتلطف فيه، ووقع بما يؤمر به، فقد تحدث في هذه الرقاع الأمور المهمة التي تنتفع بها الدولة، وتستضر بتأخير النظر فيها، ويفهم من طي هذه الرقاع من جور بعض الولاة والمستخدمين ما توجب السياسة صرفهم عما ولوه منها. ومهما كان منها مما يشك السلطان في صحته، ندب من يثق به للكشف مع رافعه، فإن صح قوله أنصف من خصمه، وإن بان تمحله قوبل بما يردع أمثاله عن الكذب والتمرد، ويعلم الولاة والمشارفون وسائر المستخدمين أن السلطان متفرغ للنظر في قصص الناس وشكاويهم، وقد نصب لذلك من يتفرغ له ويطالعه بالمهم منه فيكف أيديهم عن الظلم، ويحذرون سود عاقبة فعلهم، ويقل المتظلمون

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٩٤/٦

قولا واحدا، وتحسن سمعة الدولة بذلك فيكون لها به الجمال الكبير.

قلت: والذي يرفع من القصص في معنى ذلك في زماننا على ستة أنواع.

النوع الأول منها (ما يرفع إلى السلطان في آحاد الأيام)

وقد جرت العادة فيه أن يقرأ على السلطان: فما أمضاه منه كتب على ظهر." (١)

"القصة ما مثاله «يكتب» ثم تحمل إلى كاتب السر فيعينها على بعض كتاب الإنشاء، فيكتب بمقتضاها ويخلدها عنده شاهدا له.

النوع الثاني (ما يرفع لصاحب ديوان الإنشاء)

وقد جرت العادة في ذلك أن رافع القصة والمحتاج إلى الأمثلة الشريفة السلطانية في مهماته ومتعلقاته إن كان من الأعيان والمعتبرين كأحد من الأمراء أو المماليك السلطانية وأكابر أرباب الأقلام، بعث بقصته لديوان الإنشاء، فيقف عليها صاحب ديوان الإنشاء ويتأملها وينظر ما تضمنته، فإن كان مما يحتاج فيه إلى مخاطبة السلطان ومؤامرته، أخذها ليقرأها عليه عند حضوره بين يديه، ويمتثل ما يأمر به فيها، فيكتب بمقتضاه، سواء طابق سؤال السائل أم لا، ويعينها على كاتب من كتاب الإنشاء، فيكتب بمقتضاها ويخلد القصة شاهدا عنده. وهذه المثالات ورقها من ديوان الإنشاء من المرتب السلطاني، وإن كان رافع القصة من غير المعتبرين كآحاد الناس، دفع القصة إلى مدير من مدراء ديوان الإنشاء فيجعل عليها علامة له، ويجمع كل مدير ما معه من القصص، وترفع إلى صاحب ديوان الإنشاء، فما كان منها غير سائغ للكتابة عليه قطعه أو رده؛ وما كان منها سائغا كتب عليه وعينه. وربما استشكل بعضها فأخره ليقرأه على السلطان وينظر ما يأمر به فيه فيعتمده. وإذا عينها على كاتب من كتاب الإنشاء كتب بمقتضاها وخلد القصة عنده شاهدا.

النوع الثالث (ما يرفع من القصص بدار العدل عند جلوس السلطان للحكم في المواكب)

وقد جرت العادة في ذلك أنه إذا ترتب مجلس السلطان على ما تقدم في ترتيب المملكة أن القصص تفرق على كاتب السر ومن حضر من كتاب." (٢)

"الدست «١» ، فيقرأ كاتب السر منها ما عن له قراءته؛ ثم يقرأ الذي يليه من كتاب الدست، ثم الذي يليه إلى آخرهم، ويشير السلطان برأسه أو يده بإمضاء ما شاء منها؛ فيكتب كاتب السر أو كاتب

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٩٦/٦

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٩٧/٦

الدست على تلك القصة بما فيه خلاص قلمه، ثم تحمل إلى ديوان الإنشاء فيعينها على من يشاء من كتاب الإنشاء فيكتبها، ويخلد تلك القصص عنده شاهدا.

النوع الرابع (ما يرفع منها للنائب الكافل، إذا كان ثم نائب)

وقد جرت العادة أن النائب يكون عنده كاتب من كتاب الدست يجلس بين يديه لقراءة القصص عليه، وتنفيذ ما يكتب عنه. فإذا رفعت القصة إلى النائب الكافل قرأها عليه كاتب الدست وامتثل أمره فيها، وأصلح في القصة ما يجب إصلاحه، وضرب على ما يجب الضرب عليه، وزاد بين سطوره ما تقتضيه الزيادة؛ ثم تدفع القصة إلى النائب الكافل، فيكتب على حاشيتها في الوسط آخذا من جهة أسفلها إلى جهة أعلاها بقلم مختصر الطومار «٢» م ١ مثاله «يكتب» ثم تحمل بعد ذلك إلى كاتب السر فيعينها على بعض كتاب الإنشاء فيكتبها.

النوع الخامس (ما يرفع من القصص إلى الأتابك؛ إذا كان في الدولة أتابك عسكر، وهو الأمير الكبير) وغالب ما يكون ذلك إذا كان السلطان طفلا أو نحو ذلك. **وقد جرت العادة أن** يكون عند الأتابك كاتب من كتاب الدست أيضا، فإذا رفعت القصة إلى الأتابك، وإن «٣» كان الأمر فيها واضحا كخلاص حق أو نحوه، كتب كاتب الدست." (١)

"الدار، وتجب موافقتهم عليه وإن كان خطأ جريا على المصطلح.

الجملة الثانية (في موضع كتابة المستند)

وقد اصطلح الكتاب على أن يكتب المستند في الغالب بعد التاريخ، ويكون الظرف أو الجار والمجرور فيه متعلقا من التاريخ بلفظ كتب، وكأنه يقول: كتب في تاريخ كذا، حسب الأمر الشريف، أو بالإشارة الفلانية. وربما كتب بحاشية المكتوب في المراسيم الصغار التي تكتب على ظهور القصص ونحوها، وكذلك أوراق الطريق؛ وموضع كتابته يقابل بين السطرين الأولين آخذا من جهة الأسفل إلى جهة الأعلى بحيث يكون آخر كتابة المستند مسامتا للسطر الأول، فإن كان «حسب المرسوم الشريف» فقط، كتبه سطرا واحدا، وإن كان «من دار العدل» كتب «حسب المرسوم الشريف» سطرا، و «من دار العدل الشريف» سطرا تحته، وكذلك إن كان «من ديوان الخاص» كما يكتب في أسفل الكتاب. وإن كان برسالة الدوادار، **فقد جرت العادة أن** يكتب «حسب المرسوم الشريف» في أسفل الكتاب تحت التاريخ سطرا واحدا، ويكتب «برسالة الجناب العالي، الأميري، الكبيري، الفلاني، الدوادار، الفلاني ضاعف الله تعالى نعمته!» بالهامش

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٦/١٩٨

في المحل المتقدم، سطرين كما كان يكتب بآخر الكتاب. وإن كان المستند الإشارة كتب جميعه بحاشية الكتاب في المحل المقدم ذكره سطرين على ما تقدم بيانه.

الطرف الرابع (في الحمدلة في آخر الكتاب، وفيه جملتان)

الجملة الأولى (في الأصل في كتابتها)

والأصل في ذلك أن الله سبحانه كما جعل الحمد مفتاحا للأمور تيمنا." (١)

"المكاتبة إلى الخلفاء ذكر ترتيبها إن شاء الله تعالى.

وإن كان المكتوب عنه ملكا، **فقد جرت العادة أن** يعبر عنه بنون الجمع للتعظيم فيقال: فعلنا كذا، وأمرنا بكذا، واقتضت آراؤنا الشريفة كذا، وبرزت مراسيمنا بكذا، ومرسومنا إلى فلان أن يتقدم بكذا، أو يتقدم أمره بكذا، وما أشبه ذلك. وذلك أن ملوك الغرب كانوا يجرون على ذلك في مخاطباتهم، فجرت الملوك على سننهم في ذلك. وفي معنى الملوك في ذلك سائر الرؤساء، من الأمراء، والوزراء، والعلماء، والكتاب، ونحوهم من ذوي الأقدار العلية، والأخطار الجليلة، والمراتب السنية في الدين والدنيا، ممن يصلح أن يكون آمرا وناهيا، إذا كتبوا إلى أتباعهم ومأموريهم، إذ كانت هذه النون مما يختص بذوي التعظيم دون غيرهم.

وشاهد ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون

«١» فدعاه دعاء المفرد لعدم المشاركة له في ذلك الاسم، وسأله سؤال الجمع لمكان العظمة، إلى غير ذلك من الآيات الواردة مورد الاختصاص له كما في قوله تعالى: إنا نحن نرث الأرض ومن عليها

«٢» وقوله: إنا نحن نحي الموتى «٣»

وقوله: نحن الوارثون «٤»

وغير ذلك من الآيات. قال في «معالم الكتابة» : وقد أخذ كتاب المغرب بهذا مع ولاة أمورهم في الجمع بالميم فخاطبوا الواحد مخاطبة الجمع مثل: أنتم، وفعلتم، وأمرتم، وما أشبه ذلك.

قلت: والأمر في ذلك عندهم مستمر إلى الآن. قال ابن شيث: وهو غير ما صور به عند غيرهم.." (٢)

"قلت: قد تقدم في صدر الكلام على المكاتبات ذكر أصول يعتمدها الكاتب في كتبه تعم الكتب السلطانية وغيرها، وأنا أذكر هنا ما يختص منها بالكتب الصادرة عن السلطان على النمط الجاري عليه الاصطلاح الآن ليسهل القصد إليها لقربها، ويحصل الغرض من ذلك، بذكر [تسعة] أمور:

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٢٥٤/٦

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٢٨٩/٦

أولها– مقادير قطع الورق، قد تقدم في الكلام على مقادير قطع الورق المستعملة في دواوين الإنشاء جملة، والذي يختص منها بالكتب الصادرة عن السلطان أربعة مقادير:

أحدها– قطع البغدادي الكامل، وقد مر أنه يكتب فيه للقانات.

وثانيها– قطع النصف، وفيه يكتب إلى أكابر الملوك ممن دون القانات.

وثالثها– قطع الثلث، وفيه يكتب إلى الرتبة الثانية من الملوك.

ورابعها– قطع العادة، وفيه يكتب إلى أصاغر الملوك والولاة وغيرهم.

الثاني– العنوان؛ قد تقدم في مقدمة الكتاب أن الذي كان يكتب عنوانات الكتب السلطانية في الزمن المتقدم هو صاحب ديوان ا لإنشاء دون غيره، أما الآن، فإن كاتب كل كتاب صار هو الذي يكتب عنوانه بنفسه.

وقد جرت العادة في عامة الكتب السلطانية أن يكون المكتوب فيها هي ألقاب المكتوب إليه ونعوته التي في صدر المكاتبة في الباطن، ثم يدعى للمكتوب إليه في آخر الألقاب بالدعوة التي صدر بها الدعاء في الصدر مثل: أعز الله أنصاره، أو ضاعف الله نعمته، وما أشبه ذلك من الأدعية التي تفتتح بها المكاتبات، فإن كان الكتاب مفتتحا بالحمدلة أو بلفظ من فلان، كتب في العنوان الألقاب التي في صدر الكتاب بعد ذلك، ثم بعد الدعاء يخلي بياضا قليلا، ثم يذكر تعريف المكتوب إليه، مثل «صاحب فلانة» ونحو ذلك مما تقدم ذكره من التعريفات. وتكون كتابة العنوان بنظير قلم الباطن في الدقة والغلظ. وتكون أسطره متصلة من أول عرض الدرج إلى آخره، وأسطره متلاصقة متتالية.." (١)

"الثالث– الطرة التي يكتب فيها تعريف المكتوب إليه، والعلامة التي يكتبها المكتوب عنه، والسبب في كتابته.

وقد جرت العادة في ذلك أنه يكتب في رأس الدرج «١» في الجانب الأيمن «إلى فلان» وفي الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» وفي الوسط العلامة التي يعلمها السلطان مثل «أخوه» أو «والده» أو «اسمه» ، لينظر عند علامة السلطان على الكتاب فيعلم حال الكتاب، ويجرى الأمر في العلامة «٢» على هذا الرسم، وتكون كتابتها بقلم الكتاب من ثلث أو رقاع أو غيرهما، إلا أن يكون الكتاب بمختصر الطومار «٣» في قطع البغدادي فيكون ذلك بقلم الثلث. وهذه الطرة تقطع بعد أن يعلم على الكتاب.

الرابع– البياض في أعلى الكتاب، **وقد جرت العادة في** الكتب السلطانية أن العلامة إلى المكتوب إليه،

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٨/٢٠

إن كانت «أخوه» أو «والده» ترك فيه ثلاثة أوصال بياضا بما فيه من وصل العنوان، ثم تكتب البسملة في رأس الوصل الرابع، وإن كانت العلامة إليه الاسم، ترك وصلان بياضا فقط وكتبت البسملة في أول الوصل الثالث، ثم يكتب السطر الأول من الكتاب على سمت البسملة ملاصقا لها، ثم يخلى موضع العلامة بياضا، ويكتب السطر الثاني على سمت الأول في أواخر ذلك الوصل على قدر إصبعين من آخره، ثم يجعل بين كل سطرين أربعة أصابع مطبوقة، إن كان القطع صغيرا، وإن كان القطع كبيرا كان فيه قدر ربع ذراع أو نحوه بحسب المناسبة، فإذا انتهى إلى آخر الكتاب كتب «إن شاء الله تعالى» في." (١)

"الفصل الخامس من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في الكتب الواردة على الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية، ممن جرت العادة بمكاتبته إليها من أهل المملكة وغيرها من سائر الممالك المكاتبة عن هذه المملكة، وهي نوعان)

النوع الأول (المكاتبات الواردة عن ملوك المسلمين، وهي على قسمين)

القسم الأول- في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة

، بالديار المصرية، والبلاد الشامية، ممن يؤهل للمكاتبة إلى الأبواب السلطانية، من النواب وغيرهم من الأمراء، وأرباب الأقلام، من الوزراء، والعلماء ومن في معناهم، وهم على ضربين:

الضرب الأول (في المطالعات الواردة عن أكابر أهل الدولة بالديار المصرية والبلاد الشامية، من النواب ومن في معناهم)

قد جرت عادة من يكتب إلى الأبواب السلطانية من أهل هذه المرتبة، أن يكتب جميعهم كتبهم في قطع العادة، فإن كان بالديار المصرية فمن الورق البلدي، وإن كان بالبلاد الشامية فمن الورق الشامي، وجميع ذلك في الورق الأبيض، إلا نائب الشام نائب الكرك، فإنهما **قد جرت العادة فيهما** بأنهما يكتبان إلى الأبواب السلطانية في الورق الأحمر الشامي، شيء اختصا به دون سائر أهل المملكة.." (٢)

"المهيع الأول (في رتب المكاتبات المصطلح عليها)

وقد اختلفت مقاصدهم في ترتيبها اختلافا متقاربا في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير، مع مراعاة أصول المراتب. وها أنا أذكر ما استقر عليه الحال من ذلك، وأنبه على ما خالفه من ترتيبهم المتقدم الذكر، لتحصل الإحاطة به، ويعلم ما جرى عليه أهل كل عصر منهم مما لعل مختارا يختاره، أو ينسج على منواله،

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٨/٢١

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٨/٥٦

منبها على وهم من وهم في شيء من ذلك.

واعلم أنهم قد بنوا هذا النوع من الإخوانيات على قاعدتين، تتعين معرفتهما قبل الخوض في رتب المكاتبات:

القاعدة الأولى- فيما يتعلق بورق هذه المكاتبات.

قد جرت العادة أن تكون جميع هذه المكاتبات من الأعلى إلى الأدنى، ومن الأدنى إلى الأعلى، ومن النظير إلى النظير، في ورق قطع العادة دون ما فوقه من مقادير قطع الورق المتقدمة الذكر، غير أن أعيان أهل الديار المصرية يكاتبون في الورق المصري، وأعيان أهل الشأم يكاتبون في الورق الشامي؛ لكثرة وجوده عندهم، والمعنى في ذلك أن كتب السلطان الصادرة عنه إلى جميع أهل المملكة من النواب وغيرهم في هذا القطع، فلا جائز أن تعلو مكاتبة أحد منهم على مكاتبة السلطان في ذلك.

ثم قد اصطلحوا على أن يكون في أعلى المكاتبة عن كل أحد من أعيان الدولة قبل البسملة وصل واحد بياضا، إذ كان أقل ما يجعل بياضا في كتب السلطان وصلين فاقتصروا على وصل واحد، كي لا يساويه غيره في ذلك، واصطلحوا أيضا على أن لا تنقص المكاتبات المذكورة عن ثلاثة أوصال: الوصل الأبيض في أعلى المكاتبة على ما تقدم، ووصلان مكتوبان، إذ لو نقص عن ذلك، لخرج الكتاب في القصر عن الحد فيزدرى، أما لو دعت الضرورة إلى الزيادة على الثلاثة لزيادة الكلام فلا مانع منه. واصطلحوا على أن يترك للكتاب حاشية بيضاء تكون بقدر ربع الدرج على ما تقدم ذكره في غير هذا الموضع.." (١)

"قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية لا يمتنع وقوعه في وقت من الأوقات؛ فإن عرض له موجب، راعى الكاتب فيه صورة الحال، وكتب على ما يوجبه المقام، وتقتضيه تلك الوقعة.

الصنف الثاني والعشرون (ما يكتب مع الإنعام لنواب السلطنة بالخيل والجوارح وغيرها من أنواع الإنعامات وهذا الصنف من المستعمل في زماننا كل وقت)

فأما ما يكتب مع الإنعام بالخيل، **فقد جرت العادة أن** السلطان ينعم بالخيل على نواب السلطنة بالشام، ويكتب بذلك مثالات شريفة إليهم، وربما أنعم بالخيل وكتب بها في غير ذلك.

وهذه نسخة مثال شريف من ذلك:

ضاعف الله تعالى نعمة الجناب وخصه من النعم بما لا تحصى له آثار، ولا يتعلق له بغبار، ولا يوصف بحال واحدة؛ لأنه إن جرى فبحر، وإن وقف فنار.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي بكل سلام لا تدرك لسوابقه غاية، ولا تحصى له نهاية، ولا يرد

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٧٣/٨

منه كل ما جاء وله في وجهه كفلق الصبح آية. ولا يتقدم في ميدان إلا وقد حمل له في كل مكان راية. وتوضح لعلمه الكريم أنه قد جهز له قرينها ما جرت به عادته من الحصن التي لا يدعي البرق أنه لها نظير، ولا تجاري الرياح من سوابقها ما يطير، كم لها في ميدان مجال، وكم لها في رؤية دوية ارتجال، وكم دعي الوغى بها على كل ضامر فأتت رجالا تقدح سنابكها نارا، وتفيض جوانبها من الركض عقارا، ويتكفل بديعها بكل مرام، وتعطي ما في يديها لأنها من الكرام، وقد تشرفت من نعمنا الشريفة بالسروج واللجم والعدة المكملة، وتحلت من الذهب والفضة ما يغني بجملته المفصلة، وأرسلناها إليه ترقص في أعنتها زهوا، وتترك بطيب صهيلها كل بحر تخوضه إلى المنايا رهوا، وتوجه بها فلان كالعرائس المجلوة في حللها، والنجوم لولا ما تميزت به من حلي عطلها، والسحاب إلا أنها لا تحتاج منة الرياح في تنقلها.." (١)

"الضرب الثالث (من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نواب السلطنة إلى النواب بسبب ما يرد عليهم من المثالات السلطانية)

اعلم أنه **قد جرت العادة بأنه** إذا ورد على نائب السلطنة بالشام مثال شريف من الأبواب السلطانية، يأمرهم «١» كتب نائب الشام إلى نواب السلطنة بورود المثال الشريف مبشرا بذلك، ويجهز إلى كل منهم مع المثال الوارد إلى كل نائب من نواب السلطان معنى المثال الوارد من الأبواب السلطانية بذلك. إلا أنه يكون حاكيا لصورة المثال الوارد بذلك، لا أنه مبتدئه، ويشتمل ذلك على عدة أمور:

فمن ذلك جلوس السلطان على تخت الملك، فيخبر نائب الشام في الكتاب الصادر عنه إلى بعض النواب بأن المثال الشريف ورد عليه بذلك، وأنه ورد كتاب إلى المكتوب إليه فجهزه إليه.

[وهذه نسخة كتاب من ذلك] كتب به عن نائب الشام إلى بعض نواب «٢» السلطنة، بالبشارة بسلطنة السلطان الملك الصالح إسماعيل «٣» بن الناصر محمد ابن قلاوون، وقد ورد على يد بعض الحجاب، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن «٤»." (٢)

"المهيع الثاني (من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب به عن نواب السلطان والأتباع إلى السلطان ابتداء)

وهو على أنواع كثيرة، نذكر منها ما يستضيء به الكاتب في مثله.

فمن ذلك ما يكتب عن نائب كل مملكة إذا وصل إلى محل ولايته.

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٥٤/٨

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٦٣/٨

قد جرت العادة أن النائب إذا وصل إلى مملكته ومقر ولايته، كتب إلى السلطان يخبره بذلك وبما المملكة عليه.

وهذه نسخة مكاتبة من ذلك، كتب بها عن نائب حلب في معنى ذلك، وهي:

يقبل الأرض وينهي أن المملوك وصل إلى المملكة الفلانية المحروسة، وحل محالها المأنوسة، التي شملته الصدقات الشريفة بكفالتها، وأهلته المراحم المنيفة لإيالتها، رافلا في حلل الإنعام الشريف، متفيئا ظل العز الوريف، صحبة فلان مسفره، ودخلها يوم كذا من شهر كذا لا بسا تشريفه الشريف المنعم به عليه، ماشيا لمحل الكرامة الذي سار إليه [بحضور من جرت العادة بحضوره] «١» من قضاة القضاة والأمراء والحجاب، والعساكر المنصورة والأصحاب، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، وقبل الأرض بباب القلعة المنصورة، ودخل دار العدل الشريف وقطوف الأماني له مهصورة، وقريء بها بحضرة أولياء الدولة تقليده، وعظم المراسم الشريفة تأييده، وتصدى لما نصبته له المراسم الشريفة من إنصاف المظلوم، وتنفيذ كل مهم شريف ومرسوم، وتصفح أحوال المملكة، وسلك كل أحد مسلكه، واستجلبت الأدعية لمولانا السلطان، واجتهد في حياطة البلاد ممن يمد إليه شيطان المفسدين بأشطان، وانتظم له أمر المملكة بالمهابة." (١)

"يسوغ أن يهنأ بإدراك ما كتب الله له أن يدركه بأقلام الأقدار على صفحات الليل والنهار، والعبد يسأل الله تعالى ضارعا إليه في إنهاض أمير المؤمنين بما حمله وكلفه، وتوفيقه فيما كفله واستخلفه، وأن يمكن له في الأرض، ويعلي يده بالبسط والقبض، ويمده بعز السلطان، وعلو الشان، وظهور الأولياء، وثبور الأعداء، وإعزاز الدين، وابتزاز الملحدين، وتقوية يده في نصرة الإسلام، وسياسة الأنام، ويعرف رعيته من يمن دولته، وسعادة ولايته، ما يجمعهم على الطاعة والموافقة، ويعصمهم من المعصية والمفارقة، ويوفقهم من الإخلاص في موالاته، لما يوفر حظهم من مرضاته، ويجعل ولايته هذه مقرونة بانفساح المدة والأجل، وبلوغ المنى والأمل، وصالح القول والعمل، ويبلغه في مملكته ودولته أفضل ما بلغه خليفة من خلفائه، ووليا من أوليائه.

ومن ذلك ما يكتب في البشارة بالفتوح:

قد جرت العادة أن السلطان إذا وجه جيشا لفتح قلعة أو قطر من الأقطار وحصل الفتح على يديه أن يكتب السلطان مبشرا بذلك الفتح، منوها بقدره، معظما لأمره، وما كان فيه من عزيز النصر وقوة الظفر.

[فمن مكاتبة في البشارة بفتح حصن «١» المرقب، وهي:] «٢» قد أسفر عن الفتح المبين صباحه،

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٩٢/٨

والتأييد وقد طار به محلق التباشير فخفق في الخافقين جناحه، والإسلام وقد وطيء هامة الكفر بمقدمه، والدين وقد عز بفتكات سيفه المنصور فأنف أن يكون الشرك من خدمه، والأفلاك وقد علمت أنه لهذا الفتح القريب كان اجتماع كواكبها، والأملاك وقد نزلت لتشهد." (١)

"الوسن، ومن زائد الاكتئاب، ما كاد يحرمه التقمص بثوب الثواب، بحيث إنه عوض بالزمن الأسود عن العيش الأخضر، وذاق من موجب لبس الأبيض طعم الموت الأحمر، وأنه ضمه إليه ضم المحبوب، وابتهج به ابتهاج من ظفر بغاية السول والمطلوب، فأغمدت الكآبة خوفا من قلمه سيفها، وأزالت الدنيا الدنية عنه حيفها، وعزى نفسه وسلاها، وشغله إحسانه عن محاسن محا الموت سناها، فرفض من توجعه ما فرضته حادثته، وسلك منهجا غير المنهج الذي فتتت فيه حشاه ومهجته، فالله تعالى يكفينا ما نحاذره في المجلس ويحرس سناه، ويديم سعده وعلاه.

النوع الثالث (من مقاصد المكاتبات التهادي والملاطفة)

قال في «مواد البيان» : رقاع التهادي يجب أن تودع من الألفاظ المستحسنة ما يمهد لقبول الملاطفة والمبرة التي تتميز في المودة. قال: وينبغي أن يطرف الكاتب إذا كان مهديا أو مستهديا، **وقد جرت العادة أن** تودع هذه الرقاع من أوصاف الشيء المهدى ما يحسنه في نفس المهدى إليه. قال:

وينبغي لمن ذهب هذا المذهب أن لا يعتمد تفخيم هديته، ولا الإشارة إلى جلالة خطرها، فإن ذلك يخل بشروط المروءة ويتحاماه الكرماء.

ثم هي على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول (ما يكتب مع التقادم إلى الملوك من أهل مملكتهم إلى القائمين بإيصال التقدمة إلى الملك وكاتب السر ونحوهما)

الشيخ جمال الدين بن «١» نباته: إلى كاتب «٢» السر بالأبواب السلطانية." (٢)

"الأول بحر الطويل، ووزنه (فعولن مفاعيلن) أربع مرات. أشار إلى (فعولن) بالألف من (أبن) المشار بها إلى (أصابت) ، وإلى (مفاعيلن) بالباء منه المشار بها إلى (بسهميها) ، فكأنه يقول: دائرة المختلف مثمنة، وفيها بحر وزنه: (أصابت بسهميها) أربع مرات، وعلى ذلك فقس. غير أنه فاته تسمية البحر فاستدرك ذلك عند إتيانه بالأبيات المتضمنة للكلمات المشار بها إلى شواهد الأعاريض والضروب والزحاف كما

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٩٥/٨

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٠١/٩

سيأتي مفصلا. والنون من قوله (أبن) ملغاة لأنها ليست من أحرف الرمز.

البحر الثاني المديد. ووزنه (فاعلاتن فاعلن) أربع مرات. أشار إلى مستفعلن بالواو من قوله (وله) المشار بها إلى (وقعيهما) ، وأشار إلى (فاعلن) بالهاء منه المشار بها إلى (همة) . واللام المتوسطة بين الواو والهاء ليست من أحرف الرمز، فهي ملغاة لا يقع بها لبس.

وقد علمت أن الوتد الموجود في هذه الدائرة مجموع وأنها ليس بهل وتد مفروق، فإذن كل من (فاعلاتن) الواقع في المديد (ومستفعلن) الواقع في البسيط مجموع الوتد.

ويخرج من هذه الدائرة بحران مهملان أحدهما وزنه (مفاعيلن فعولن) أربع مرات، عكس الطويل. ويسميه بعضهم المستطيل. وحكى عن الخليل أن العرب لم تستعمله، وأن السبب في إهماله ما يلزم عليه من وقوع سببين بين وتدين في أوله فلا يمكن زحافهما.

واعترض بأن هذه العلة لو صحت للزم إهمال الهزج والمضارع والمقتضب، لأن كلا منها مبني على سببين بين وتدين، فلا يمكن زحافهما. وأجيب بأنها لا يمكن في تأليفها إلا ذلك، إذ لا خماسي فيها، بخلاف هذا لأن فيه خاسيا، فيخرج من المحذور بتقديمه.

واستشكله الصفاقسي، قال: (والأشبه ما قاله الزجاج، وهو أن (مفاعيلن) لو وقع أولا لجاز خرمه، لأن أوله وتد مجموع، ويلزم أن يقع الخرم في جزء أصله أن يقع بذلك في حشو البيت ولا نظير له) . واعترضه أبو الحكم بأن هذا لو صح لما وقع الخرم في (مفاعيلن) في الهزج لوقوعها في الطويل حشوا، لكن قد وقع فيها فدل على عدم اعتبار هذه العلة. قال الصفاقسي: (ولقائل أن يجيب عنه بأن المحذور الذي ألزمناه هو وقوع الخرم في جزء أصله أن يقع بذلك حشوا لبيت، أي في تلك الدائرة، و (مفاعيلن) في دائرة الهزج أصله أن يقع فيها بدءا فلا تصلح ناقضة لتعليله والله اعلم. وقد نظم المولدون على هذا الوزن المهمل كقول بعضهم:

لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أحور ... أدير الصدغ منه على مسكس وعنبر

وقول الآخر:

أمط عني ملاما برى جسمي مداه ... فما قلبي جليدا على سمع الملام

وقول الآخر:

أيسلو عنك قلب بنار الحب يصلى ... وقد سددت نحوي من الألحاظ نصلا

البحر الثاني المهمل مقلوب المديد. وزنه (فاعلن فاعلاتن) أربع مرات، وسموه بالممتد، وقد نظم المولدون

عليه أيضا كقول بعضهم:

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال ... كلما زدت حبا زاد مني نفورا

وقول الآخر:

قد شجاني حبيب واعتراني ادكار ... ليته إذ شجاني ما شجته الديار

وقد جرت العادة بأن يوضع شكل دائرة، ويرسم عليها نصف واحد من تفعيل البحر الأول منها بأن تجعل علامة المتحرك صورة حلقة صغيرة وتجعل علامة الساكن صورة ألف، فتضع الدائرة هكذا: وطريق الفك أنك تبتدئ من أول كل وتد وسبب وتمر إلى الآخر، فإن اتفق فوات شيء من أول الدائرة فتداركه آخرا بأن تضيفه إلى ما فككته حتى تصل إلى المحل الأول الذي ابتدأت منه، فتبتدئ هنا من أول وتد في الدائرة وتمر إلى منتهاها، فيكون (فعولن مفاعلين، وهو بحر الطويل. ثم تبتدئ من أول سبب فيها فتقول (لن مفاعيلن فعولن مفاعيلن وتضيف إليه ما فات مما سبق، وهو فعو، فيحدث بحر المديد، وهو (فاعلاتن فاعلن) .

ثم تبتدئ من أول الوتد الثاني فيكون (مفاعيلن فعولن مفاعيلن) وتضيف إليه ما فات سبقا فيحدث وزن المهمل الأول المسمى بالمستطيل.

ثم تبتدئ من أول سبب بعد هذا الوتد الثاني فتقول (عيلن فعولن مفاعيلن) ، وتتدارك ما فات سبقا، وهو (فعولن مفا) ، فيحدث بحر البسيط.

ثم تبتدئ من ثاني سبب فتقول (لن فعولن مفاعيلن) ، وتتدارك ما سبق وهو (فعولن مفاعي) ، فيحدث البحر تامسمى بالممتد.." (١)

"وما يأتي بعدها فمرض الحافظ في آخر هذه السنة، ومات في أول سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

وقال القاضي الفاضل: في متجددات سنة ست وسبعين وخمسمائة وفي يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر ربيع الأول، وهو السادس عشر من مسرى. وفي النيل على ستة عشر ذراعا، وهو الوفاء ولا يعرف وفاؤه بهذا التاريخ في زمن متقدم، وهذا أيضا مما تغير فيه قانون النيل في زماننا فإنه صار يوفي في أوائل مسرى ولقد كان الوفاء في سنة اثنتي عشرة، وثمانمائة في اليوم التاسع والعشرين من أبيب قبل مسرى بيوم، وهذا من أعجب ما يؤرخ في زيادات النيل، واتفق أن في الحادي عشر من جمادى الأولى سنة تسع وسبعمائة، وفي النيل وكان ذلك اليوم التاسع عشر من بابه بعد النوروز بتسعة وأربعين يوما.

---

(١) العيون الغامزة على خبايا الرامزة البَدْر الدَّمَامِيني ص/١٤

قال: وفي تاسع عشرة يعني شوال سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة. كسر بحر أبي المنجى وباشر الملك العزيز عثمان كسره وزاد النيل فيه أصبعا وهي الأصبع الثامنة عشرة من ثمان عشرة ذراعا، وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى. فانظر كيف يسمي القاضي الفاضل هذا القدر اللجة الكبرى؟! وإنه والعياذ بالله لو بلغ ماء النيل في سنة هذا القدر فقط لحل بالبلاد غلاء يخاف منه أن يهلك فيه الناس، وما ذاك إلا لما أهمل من عمل الجسور؛ ويحصل لأهل مصر بوفاء النيل ست عشرة ذراعا فرح عظيم، فإن ذلك كان قانون الري في القديم واستمر ذلك إلى يومنا هذا. ويتخذ ذلك اليوم عيدا يركب فيه السلطان بعساكره، وينزل في المراكب لتخليق المقياس.

وقد ذكرنا ما كان في الدولة الفاطمية من الاهتمام بفتح الخليج عند ذكر مناظر اللؤلؤة. وقال بعض المفسرين رحمهم الله تعالى: إن يوم الوفا هو اليوم الذي وعد فرعون موسى عليه السلام بالاجتماع في قوله تعالى:

قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى

[طه/ ٥٩] .

وقد جرت العادة أن اجتماع الناس للتخليق يكون في هذا الوقت.

ومن أحسن السياسات في أمر النداء على النيل ما حكاه الفقيه ابن زولاق «١» في سيرة المعز «٢» لدين الله قال: وفي هذا الشهر، يعني شوال، سنة اثنتين وستين وثلثمائة منع المعز لدين الله من النداء بزيادة النيل، وأن لا يكتب بذلك إلا إليه، وإلى القائد جوهر، فلما تم." (١)

"طائرا ولعمل المأمونية رطلين ونصفا من السكر، وما يعمل برسم الجمدارية فإنه بعسل النحل.

ذكر العلامة السلطانية

قد جرت العادة أن السلطان يكتب خطه على كل ما يأمر به، فأما مناشير الأمراء والجند وكل من له إقطاع فإنه يكتب عليه علامته، وكتبها الملك الناصر محمد بن قلاون، الله أملي، وعمل ذلك الملوك بعده إلى اليوم، وأما تقاليد النواب، وتواقيع أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب، وبقية أرباب الوظائف، وتواقيع أرباب الرواتب والإطلاقات، فإنه يكتب عليها اسمه واسم أبيه إن كان أبوه ملكا، فيكتب مثلا محمد بن قلاون، أو شعبان بن حسين، أو فرج بن برقوق، وإن لم يكن أبوه ممن تسلطن كبرقوق أو شيخ، فإنه يكتب اسمه فقط، ومثاله برقوق، أو شيخ. وأما كتب البريد وخلاص الحقوق والظلامات، فإنه يكتب أيضا عليها اسمه، وربما كرم المكتوب إليه فكتب إليه أخوه فلان، أو والده فلان، وأخوه يكتب للأكابر من

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المقريزي ١/ ١١٤

أرباب الرتب والذي يعلم عليه السلطان، أما إقطاع فالرسم فيه أن يقال خرج الأمر الشريف، وأما وظائف ورواتب وإطلاقات، فالرسم في ذلك أن يقال رسم بالأمر الشريف، وأعلى ما يعلم عليه ما افتتح بخطبة أولها الحمد لله، ثم ما افتتح بخطبة أولها أما بعد حمد الله، حتى يأتي على خرج الأمر في المناشير، أو رسم بالأمر في التواقيع، ثم بعد هذا أنزل الرتب، وهو أن يفتتح في المناشير، خرج الأمر وفي التواقيع رسم بالأمر، وتمتاز المناشير المفتتح فيها بالحمد لله. أول الخطبة، أن تطغر بالسواد وتتضمن اسم السلطان وألقابه، وقد بطلت الطغرافي وقتنا هذا، وكانت العادة أن يطالع نواب المملكة السلطان بما يتجدد عندهم تارة على أيدي البريدية، وتارة على أجنحة الحمام، فتعود إليهم الأجوبة السلطانية وعليها العلامة، فإذا ورد البريدي أحضره أمير جاندار، وهو من أمراء الألوف، والدوادار وكاتب السر بين يدي السلطان، فيقبل البريدي الأرض، ويأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدي، ثم يناول للسلطان فيفتحه، ويجلس حينئذ كاتب السر ويقرأ على السلطان سرا، فإن كان أحد من الأمراء حاضرا تنحى حتى يفرغ من القراءة، ويأمر السلطان فيه بأمر، وإن كان الخبر على أجنحة الحمام، فإنه يكتب في ورق صغير خفيف ويحمل على الحمام الأزرق، وكان لحمام الرسائل مراكز كما كان للبريد مراكز، وكان بين كل مركزين من البريد أميال، وفي كل مركز عدة خيول كما بيناه في ذكر الطريق فيما بين مصر والشام، وكانت مراكز الحمام كل مركز منها ثلاثة مراكز من مراكز البريد، فلا يتعدى الحمام ذلك المركز، وينقل عند نزوله المركز على ما على جناحه إلى طائر حتى يسقط بقلعة الجبل، فيحضره البراج، ويقرأ كاتب السر البطاقة، وكل هذا مما يعلم عليه بالقصر، ومما كان يحضر إلى القصر بالقلعة في كل يوم ورقة الصباح، يرفعها والى القاهرة ووالي مصر، وتشتمل على إنهاء ما تجدد في كل يوم وليلة بحارات البلدين وأخطاطهما من حريق أو قتل قتيل أو سرقة سارق ونحو ذلك، ليأمر السلطان فيه بأمره.." (١)

"من العلماء هذه الحكاية وبالغوا في الإنكار وطعنوا في الرواة، وقال بعض: إنها من وضع الزنادقة وهي أنه عليه السلام تمني أن يأتيه من ربه ما يقرب بينه وبين قومه رجاء أن يسلموا، فكان يوما في محضر قريش إذ أنزل عليه سورة " والنجم " فأخذ يقرأها، فلما بلغ ومناة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان في قراءته فسبق لسانه: سهوا أو تكلم الشيطان فحسب أن القارئ رسول الله أو نام نومة فجرى على لسانه تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فلما وصل قراءته إلى السجدة سجد فسجد من في النادي من المسلم والمشرك، وفرح المشركون فأتاه جبريل وقال: ماذا صنعت؟! لقد تلوت ما لم آتك به عن الله فحزن

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المقريزي ٣/٣٦٨

حزنا وخاف خوفا فعزاه الله بتلك الآية يعني: ما أنت بأوحدي بهذا، بل مكنا الشيطان ليلقي في أمانيهم كما ألقى في أمانيك ابتلاء منا ليزيد المنافقون شكا وظلمة، والمؤمنون يقينا ونورا (١)، (فينسخ الله): يزيل ويبطل، (ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته): يثبتها بحيث لا تشتبه بكلام غيره، (والله عليم حكيم): فيما يفعل، (ليجعل)، أي: مكنا الشيطان منه ليجعل، (ما يلقي الشيطان فتنة): ضلالة، (للذين في قلوبهم مرض): شك ونفاق، (والقاسية قلوبهم): المشركين فإنهم لما سمعوا نسخ قول الشيطان ازدادوا غيظا وظنوا أنه ندم مما ألقى من عند نفسه، (وإن الظالمين): المنافقين والمشركين، (لفي

---

(١) قال الإمام فخر الدين الرازي ما نصه:

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى إعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على إيمانهم فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة والنجم إذا هوى [النجم: ١] فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى [النجم: ١٩، ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه «تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى» فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبي أحيحة سعيد بن العاصي فإنهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها إلى/ جبهتيهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فقال ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت ما لم أقل لك؟! فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله خوفا عظيما حتى نزل قوله تعالى: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته الآية.

هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول. أما القرآن فوجوه: أحدها: قوله تعالى: ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]، وثانيها: قوله: قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي

إن أتبع إلا ما يوحى إلي [يونس: ١٥] وثالثها: قوله: وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلى لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال وذلك لا يقوله مسلم ورابعها: قوله تعالى: وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا [الإسراء: ٧٣] وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل وخامسها: قوله: ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا [الإسراء: ٧٤] وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل وسادسها: قوله: كذلك لنثبت به فؤادك [الفرقان: ٣٢]. وسابعها: قوله: سنقرئك فلا تنسى [الأعلى: ٦]. وأما السنة فهي ما روي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال هذا وضع من الزنادقة وصنف فيه كتابا. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسن البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم، وأيضا فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي عليه السلام قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق. وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرانيق. وأما المعقول فمن وجوه: أحدها: أن من جوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان وثانيها: أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنا أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه وإنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلا أو في أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم وثالثها: أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجدا مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم ورابعها: قوله: فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها، فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى وخامسها: وهو أقوى الوجوه/ أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس [المائدة: ٦٧] فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب أن جمعا من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة، ولنشرع الآن في التفصيل فنقول التمني جاء في اللغة لأمرين: أحدهما: تمني القلب والثاني:

القراءة قال الله تعالى: ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني [البقرة: ٧٨] أي إلا قراءة لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف وإنما يعلمه قراءة، وقال حسان:

تمنى كتاب الله أول ليلة ... وآخرها لاقى حمام المقادر

قيل إنما سميت القراءة أمنية لأن القارئ إذا انتهى إلى آية رحمة تمنى حصولها وإذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها، وقال أبو مسلم التمني هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية وفاة الإنسان في الوقت الذي قدره الله تعالى، ومنى الله لك أي قدر لك. وقال رواة اللغة الأمنية القراءة واحتجوا ببيت حسان، وذلك راجع إلى الأصل الذي ذكرناه فإن التالي مقدر للحروف ويذكرها شيئا فشيئا، فالحاصل من هذا البحث أن الأمنية، إما القراءة، وإما الخاطر، أما إذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان: الأول: أنه تعالى أراد بذلك ما يجوز أن يسهو الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ويشتبه على القارئ دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى الثاني: المراد منه وقوع هذه الكلمة في قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه: الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد تكلم به لكنه عليه السلام لما قرأ سورة النجم اشتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظه ما رووه من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب إليه جماعة وهو ضعيف لوجوه: أحدها: أن التوهم في مثل ذلك إنما يصح فيما **قد جرت العادة بسماعه** فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه وثانيها: أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فإن العادة مانعة من اتفاق الجم العظيم في الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد في المحسوسات وثالثها: لو كان كذلك لم يكن مضافا إلى الشيطان الوجه الثاني: قالوا إن ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بأن تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أوقعه في درج تلك التلاوة في بعض وقفاته ليظن أنه من جنس الكلام المسموع من الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا والذي يؤكده أنه لا خلاف في أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يأتي الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات في أثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فإذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول وما رأوا شخصا آخر ظن الحاضرون أنه كلام/ الرسول، ثم هذا لا يكون قادحا في النبوة لما لم يكن فعلا له، وهذا أيضا ضعيف فإنك إذا جوزت أن يتكلم في أثناء الشيطان كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بما يشتبه على كل السامعين كونه كلاما للرسول بقي هذا الاحتمال في كل ما يتكلم به الرسول فيفضي إلى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع فإن قيل هذا الاحتمال قائم في الكل ولكنه لو وقع لوجب في حكمة الله تعالى أن يشرح

الحال فيه كما في هذه الواقعة إزالة للتلبيس، قلنا لا يجب على الله إزالة الاحتمالات كما في المتشابهات وإذا لم يجب على الله ذلك تمكن الاحتمال من الكل الوجه الثالث: أن يقال المتكلم بذلك بعض شياطين الإنس وهم الكفرة فإنه عليه السلام لما انتهى في قراءة هذه السورة إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته أنه يعيبها فقال بعض من حضر تلك الغرانيق العلى فاشتبه الأمر على القوم لكثرة لغط القوم وكثرة صياحهم وطلبهم تغليطه وإخفاء قراءته، ولعل ذلك كان في صلاته لأنهم كانوا يقربون منه في حال صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها، وقيل إنه عليه السلام كان إذا تلا القرآن على قريش توقف في فصول الآيات فألقى بعض الحاضرين ذلك الكلام في تلك الوقفات فتوهم القوم أنه من قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أضاف الله تعالى ذلك إلى الشيطان لأنه بوسوسته يحصل أولا ولأنه سبحانه جعل ذلك المتكلم في نفسه شيطانا وهذا أيضا ضعيف لوجهين: أحدهما: أنه لو كان كذلك لكان يجب على الرسول صلى الله عليه وسلم إزالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل وإظهار أن هذه الكلمة منه صدرت وثانيهما: لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالنقل، فإن قيل إنما لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه كان قد أدى السورة بكمالها إلى الأمة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤديا إلى التلبيس كما يؤدي سهوه في الصلاة بعد أن وصفها إلى اللبس، قلنا إن القرآن لم يكن مستقرا على حالة واحدة في زمان حياته لأنه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسور فلم يكن تأدية تلك السورة بدون هذه الزيادة سببا لزوال اللبس، وأيضا فلو كان كذلك لما استحق العتاب من الله تعالى على ما رواه القوم الوجه الرابع: هو أن المتكلم بهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه فإنه إما أن يكون قال هذه الكلمة سهوا أو قسرا أو اختيارا أما الوجه الأول: وهو أنه عليه السلام قال هذه الكلمة سهوا فكما يروى عن قتادة ومقاتل أنهما قالا إنه عليه السلام كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من في المسجد وفرح المشركون بما سمعوه وأتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه، فلما انتهى إلى الغرانيق قال لم آتك بهذا، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن نزلت هذه الآية وهذا ضعيف أيضا لوجوه: أحدها: أنه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع وثانيها: أن الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها، فإنا نعلم بالضرورة أن واحدا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها وثالثها: هب أنه تكلم/ بذلك سهوا، فكيف لم ينبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر أما الوجه الثاني: وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك قسرا وهو الذي قال قوم إن الشيطان أجبر النبي صلى الله عليه

وسلم على أن يتكلم بهذا فهذا أيضا فاسد لوجوه: أحدها: أن الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي عليه السلام لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز في أكثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك بإجبار الشياطين وثانيها: أن الشيطان لو قدر على هذا الإجبار لارتفع الأمان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال وثالثها: أنه باطل بدلالة قوله تعالى حاكيا عن الشيطان وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى: إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه [النحل: ٩٩، ١٠٠] وقال: إلا عبادك منهم المخلصين [الحجر: ٤٠] ولا شك أنه عليه السلام كان سيد المخلصين أما الوجه الثالث: وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك اختيارا فههنا وجهان:

أحدهما: أن نقول إن هذه الكلمة باطلة والثاني: أن نقول إنها ليست كلمة باطلة أما على الوجه الأول فذكروا فيه طريقين: الأول:

قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء إن شيطانا يقال له الأبيض أتاه على صورة جبريل عليه السلام وألقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم فجاء جبريل عليه السلام فاستعرضه فقرأها فلما بلغ إلى تلك الكلمة قال جبريل عليه السلام أنا ما جئتك بهذه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أتاني آت على صورتك فألقاها على لساني

الطريق الثاني: قال بعض الجهال إنه عليه السلام لشدة حرصه على إيمان القوم أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها، وهذان القولان لا يرغب فيهما مسلم البتة لأن الأول يقتضي أنه عليه السلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث والثاني يقتضي أنه كان خائنا في الوحي وكل واحد منهما خروج عن الدين أما الوجه الثاني: وهو أن هذه الكلمة ليست باطلة فههنا أيضا طرق الأول: أن يقال الغرانيق هم الملائكة وقد كان ذلك قرآنا منزلا في وصف الملائكة. فلما توهم المشركون أنه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته الثاني: أن يقال المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار، فكأنه قال: أشفاعتهن ترتجى؟ الثالث: أن يقال إنه ذكر الإثبات وأراد النفي كقوله تعالى: يبين الله لكم أن تضلوا [النساء: ١٧٦] أي لا تضلوا كما قد يذكر النفي ويريد به الإثبات كقوله تعالى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا [الأنعام: ١٥١] والمعنى أن تشركوا، وهذان الوجهان الأخيران يعترض عليهما بأنه لو جاز ذلك بناء على هذا التأويل فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر في جملة القرآن أو في الصلاة بناء على هذا التأويل، ولكن الأصل في الدين أن لا يجوز عليهم شيء من ذلك لأن الله تعالى قد نصبهم حجة واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم ما

يطعن في ذلك أو ينفر، ومثل ذلك في التنفير أعظم من الأمور التي حثه الله تعالى على تركها كنحو لفظاظة والكتابة وقول الشعر فهذه الوجوه المذكورة/ في قوله تلك الغرانيق العلا قد ظهر على القطع كذبها، لهذا كله إذا فسرنا التمني بالتلاوة. و أما إذا فسرناها بالخاطر وتمني القلب فالمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم متى تمنى بعض ما يتمناه من الأمور يوسوس الشيطان إليه بالباطل ويدعوه إلى ما لا ينبغي ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه إلى ترك الالتفات إلى وسوسته، ثم اختلفوا في كيفية تلك الوسوسة على وجوه: أحدها: أنه يتمنى ما يتقرب به إلى المشركين من ذكر آلهتهم بالثناء قالوا إنه عليه السلام كان يحب أن يتألفهم وكان يردد ذلك في نفسه فعند ما لحقه النعاس زاد تلك الزيادة من حيث كانت في نفسه وهذا أيضا خروج عن الدين وبيانه ما تقدم وثانيها: ما قال مجاهد من أنه عليه السلام كان يتمنى إنزال الوحي عليه على سرعة دون تأخير فنسخ الله ذلك بأن عرفه بأن إنزال ذلك بحسب المصالح في الحوادث والنوازل وغيرها وثالثها: يحتمل أنه عليه السلام عند نزول الوحي كان يتفكر في تأويله إن كان مجملا فيلقي الشيطان في جملته ما لم يرده، فبين تعالى أنه ينسخ ذلك بالإبطال ويحكم ما أراده الله تعالى بأدلته وآياته ورابعها: معنى الآية (إذا تمنى) إذا أراد فعلا مقربا إلى الله تعالى ألقى الشيطان في فكره ما يخالفه فيرجع إلى الله تعالى في ذلك وهو كقوله تعالى: إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون [الأعراف: ٢٠١] وكقوله: وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله [الأعراف: ٢٠٠] ومن الناس من قال لا يجوز حمل الأمنية على تمني القلب لأنه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر ببال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة للكفار وذلك يبطله قوله تعالى: ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، والجواب: لا يبعد أنه إذا قوي التمني اشتغل الخاطر به فحصل السهو في الأفعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة للكفار فهذا آخر القول في هذه المسألة. اهـ (مفاتيح الغيب ٢٣/ ٢٣٧ - ٢٤١)." (١)

"أكثرهم في ذلك فطلبوا الرصاص في النواويس العادية، فانتهوا الى قبر حجارة في داخله قبر من رصاص فأخرجوا الميت الذي فيه فوضعوه فوق الارض فوقع رأسه في هوة من الارض فانقطع عنقه (١) فسال من فيه دم فهالهم ذلك، فسألوا عنه فكان فيمن سألوا عنه عبادة بن نسيء (٢) الكندي، فقال لهم: هذا القبر قبر طالوت الملك.

وقد شاهدت هذا القبر وهو مسطح وعليه تابوت والى جانبه عمود زرزوري (٣) قيل انه كان يقاتل به، وأخذ

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٦٥/٣

مرة الى الجامع الاموي فأصبح موضعه، وعلى هذا القبر مسجد بابه من حجر، وهو صغير، وخارجه مكان يقال انه كان ديرا للرهبان، وقدام باب هذا الدير البراني خروبة قديمة على حافة النهر المذكور.

وقد جرت العادة في هذا المكان بأن النساء يذهبون في كل يوم أربعاء أيام الصيف اليه ويقيمون به الوقت وتقرأ الاضراء لهم فيه موالد، وينتفع المتسببون بهم فانهم يذهبون ويبسطون على باب هذا المكان الخارج.

* * *

وقبر الانبياء بمغارة الجوع من جهة الشرق تحت مغارة الدم، قيل: إنه مات في هذه المغارة أربعون نبيا من الجوع ودفنوا في هذا القبر، وقد مر لنا أنه قيل: ان قبر الامام جمال الدين بن مالك في هذه المغارة، فان كان فيها فهو من جهة الغرب، وانه بها.

«مطلب» وهذه المغارة مأنوسة أعرفها وحولها بيوت مبنية، وكذا فوقها، وشرقيها مغارتان معظمتان معدتان للسكنى، وقد جرت

---

(١) في الاصل: عنه، والتصحيح من المصدر السابق.

(٢) في الاصل: عبادة بن يسر والتصحيح من المصدر السابق.

(٣) هذا العمود من نوع الحجر الجرانيت المصري بلون ازرق.." [١]

"وكتب مع أخرى يعتذرا عن هدية قوله

(وهديت اليسير فانعم وقابل ... نزره بالقبول والامتنان)

(فلو أن العيوق والشمس والبدر ... مع الفرقدين في إمكاني)

(كنت أهديتها وقدمت عذرا ... ورأيت القصور مع ذاك شاني)

وقال من فصل وهو مما يختار للكاتب مع الهدايا **قد جرت العادة بمهاداة** الخدم للسادة رجاء أن يجددوا لهم ذكرا وإن كانت الهدية شيئا نزرا ولهم في ذلك أسوة بالسحاب إذا أهدى القطر إلى تيار البحر وبالنسيم إذا أهدى النشر إلى حديقة الزهر وله من قصيدة يخاطب بها صديقا له

(تزول الرواسي عن مقر رسومها ... وودي على الأيام ليس يزول)

---

(١) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية @ ط مجمع اللغة ابن طولون ص/٥٦٠

(ولست بمن يرضيه من أهل وده ... خفي وداد في الفؤاد دخيل)

(إذا لم يكن في ظاهر المرء شاهد ... على سره فالود منه عليل)

(أأرضى بود في الفؤاد مغيب ... وليس إلى علم الغيوب سبيل)

(وأقبل عن هجري اعتذار مزينا ... تمحلته أني إذا لجهول)

(لعمرك قد حركت ما كان س ا كنا ... وعلمتني بالغيب كيف أصول)
وكتب إلى العلامك البوسنوي يودعه حين توجه إلى الروم من حلب من غير عزل وأقامه مقامه
(ركابك مقرون بعز وإقبال ... وسيرك ميمون بطالعك العالي)

(رحلت فأضرمت القلوب بجمرة ... وكل ما أوريت من حرها صالي)

(وغادرتنا حلف التأسف والأسى ... نبيت بآلام وتغدو بأوجال)

(إذا ما تذكرنا زمانك والذي ... جنيناه فيه من جنى كل إفضال)

(تمزق درع الصبر عنا تلهفا ... عليه ولم نبرح رهائن بلبال)

(فما أنت إلا الغيث نخصب إن دنا ... ونجدب إما هم عنا بترحال)

(وقد كانت الشهباء لما حللتها ... تجر مروط العز ناعمة البال)

(وتفخر إعجابا وما ذاك بدعة ... فكم من عرين نال فخرا برئبال)

(فصارت وقد أعرضت عنها خلية ... عن العدل والانصاف في أسوء الحال)

(كان أمرأ القيس انتحاها بقوله ... ألا عم صباحا أيها الطلل البالي)

وقال يخاطب بعض أصحابه بقوله." (١)

"حبشي اسمه بلال أما الأول فكان عند مولانا الشريف من زمان حتى كبر وصار شيخا للعسكر اللهام فقام عليهم أحسن قيام وكان ذا هيبة ورأى سديد صاحب قوة وبأس شديد فدعاه مولانا الشريف في بعض الساعات إليه وأوصاه على بنيه وعولته رحمة الله عليه فلما انتقل الشريف إلى دار الآخرة امتثل مولاه أوامره وقام على قدميه وشمر وكشف عن ساعديه وشد المئزر ورتب العساكر في المدارس بلصق المسجد الحرام المعمور ووزعهم على المنائر والدور ووضع المدافع على رءوس المنافذ والطرقات وضبط قانون الحرابة من سائر الجهات هذا ومولانا السيد حمود لم يبرح من بيته مع بني عمه وشيعته ونار الفتنة قائمة أشد قيام قلنا يا نار كوني بردا وسلام ثم بعد ذلك جلس مولانا الشريف سعد للتهنئة والسرور وتأطد له الملك بفأل اسمه والحبور ودعا مشايخ العرب وأهل الدرك وألزم كلا بجهته ولم يقع ولله الحمد بمكة المشرفة شئ من النهب أو القتل أو الخوف ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وءامنهم من خوف﴾ قريش ٣ ٤ ومن لطف الله سبحانه أن كان انتقال مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى بعد انقضاء الحج وتوجه كل إلى بلده وكان بمكة المشرفة يومئذ بعض تجار من حجاج الشام تخلفوا عن أميرهم **وقد جرت العادة بذلك** أنهم يقيمون مدة لقضاء حوائجهم بعده ثم يتوجهون ويجتمعون به في المدينة المنورة فلما أرادوا السفر طلبوا من مولانا الشريف سعد حفظه الله تعالى أن يأمر من يوصلهم المدينة خوفا على أنفسهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك كان الله له وأرسل معهم السيد فارس ابن المرحوم بركات بن حسن ومعهم جمع من العسكر فأوصلوهم المدينة الشريفة سالمين ولله الحمد والمنة ثم أمر حاكم الطائف وكان بمكة جمع من أهل الطائف من الحجاج قد أحصروا عن أولادهم وأموالهم ولم يمكنهم التوجه شفقة فجهز جماعة من العسكر صحبة." (٢)

"وزوار الرسول عليه الصلاة والسلام الذين خرجوا على النصف من رجب لما كانوا في الطريق وهم ذاهبون بلغهم خبر العسكر وما وقع لهم فاضطربوا وأشكل عليهم الأمر وترددوا بين أن يرجعوا إلى مأمنهم أو يتوجهوا إلى مقصدهم فردوا الأمر إلى سيد القافلة وكبيرها مولانا الشيخ عيسى بن محمد المغربي الثعالبي وكان متوجها معهم فأشار عليهم بالتوجه من طريق القاحة وهي معروفة وكان سابقا يسلكها الأولون وفيها

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر المحبي ٣١٩/١

(٢) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي العصامي ٤٨٧/٤

عمائر وآثار بناء وعيون إلا أنها هجرت الآن فسلكوا بالأمان تلك الأنحاء وتلقاهم شيخ العرب وسلطانها القائم بخدمة الحرمين منذ أزمان الشهاب أحمد بن رحمة بن مضيان وتوجه بهم إلى المدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فسلكوها آمنين وخرجوا على النازية قريبا من الروحاء ثم إنه خرج بهم وأوصلهم إلى حيث لاقاهم ورجعوا سالمين أولادهم وأخراهم غير أن بعض الزوار لما وصلوا قرب المدينة قريبا من المحل المسمى مفرح تقدموا عن القافلة **وقد جرت العادة بذلك** فرحا وشوقا إلى ما هنالك فنزل عليهم السراق فأخذوا ما معهم في تلك الفجاج وحصل لهم جراحات وشجاج وأهل المدينة الشريفة لما بلغهم ما وقع للعسكر وقع عندهم الاضطراب الشديد والتعب الذي ما عليه من مزيد وانقطعت عنهم سبل الوارد وغلا السعر في المقتات بل لم يجده واجد وأما أهل مصر فلما وصل إليهم الخبر التهبت نيران الغضب في أحشائهم فظهر منها بوجوههم الشرر فقتلوا من ظفروا به من أتباع السيد أبي القاسم والسيد محمد وتتبعوهم في الأماكن اللواتي استخفوا فيها ونادوا في البلاد بالوعيد الشديد لمن ستر خبية أحد منهم تخذيرا وتنبيها وأمر بالسيدين المذكورين إلى حبس الدم المسمى في عرفهم عرق خانة والأمر لله سبحانه بعد أن طلب الباشا من العلماء الفتوى بجواز قتلهم فلم يفتوه فأمر باعتقالهما لما كان والداهما وبنو عمهما اقترفوه وأورثه ذلك غيظا وقهرا أنسياه كريمة ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ الاسراء ١٥ فاستمر إلى أن عزل شيطان إبراهيم باشا عام ثمانين ودخل مصر حسين باشا المعروف بابن جان بلاط متوليا لها فما غفل عن شأنهما ولا لها بل." (١)

"اللاحقين له إلى زمانه رحمه الله. وله أشعار رائقة وأفكار فائقة وكتب متينة وخزائن ثمينة، ثم عد مؤلفاته. وقال المحدث النيسابوري في كتابه (منية المرتاد) الذي صنفه في تفصيل نفاة الاجتهاد، ومنهم السيد السند العارف السيد عبد الله ابن السيد نور الدين ابن السيد نعمة الله الجزائري التستري قدس الله أرواحهم الزكية، وهو كجده وأبيه من أجلة مشايخ المحدثين. . . الخ.

نسبه القصير: ذكر السيد المترجم له نسب جده السيد نعمة الله الجزائري في كتابيه (الإجازة) و (التذكرة) قائلا: رأيت صورة نسبه بخطه في موضعين هكذا: نعمة الله بن عبد الله بن محمد بن حسين بن أحمد بن محمود بن غياث الدين بن مجد الدين بن نور الدين بن سعد الدين بن عيسى بن موسى بن عبد الله بن الإمام موسى الكاظم عليه السلام. واستدرك على هذا النسب بعض النسابين فقال: إن الفترة الزمنية بين وفاة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام ووفاة السيد الجزائري تسعمائة وخمسون سنة تقريبا، أي أكثر

---

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي العصامي ٤/٤٩٩

من تسعة قرون، **وقد جرت العادة عند** النسابين أن يعدوا لكل قرن ثلاثة أجيال، وعليه فإن تلك الفترة تحتاج إلى ما يقارب خمسا وعشرين واسطة، وخلص النسابة المذكور إلى أن الصحيح في نسب السيد الجزائري كما يلي: السيد نعمة الله ابن السيد عبد الله ابن محمد ابن الحسين الملقب بشمس الدين بن محمود بن غياث بن أحمد بن علي بن." (١)

"سبب خفائه وعدم ظهوره، اختصاره وصغر حجمه، إذ انه لا يتجاوز عشر ورقات من القطع المتوسط.

وقد جرت العادة عند الكتاب والنساخ قديما أن يضموا الآثار الوجيزة إلى المجموعات المطولة في الاستنساخ فيصبح المجموع الكبير طافحا بالنفائس المتعددة المختصرة لكنها شبه الضائعة، إذ لا يدل اسم المجموع (إن كان له اسم) على ما فيه من الآثار بالتفصيل، كما أنهم لم يفهرسوا لمحتوياته لا في البداية ولا النهاية، فكم من أثر جليل (كهذا التذييل) أتعب الأدباء والمحققين في سبيل العثور عليه، فلم يسعفهم الحظ في ذلك، بينما هو في مجموع مهمل ليس له نظام ولا لفصوله ومحتوياته خاص من عام، حتى يقيض الله له من يستخرجه فيكون سببا

لإحيائه. وهكذا كان هذا التذييل، حتى ظهرت له نسخة بخط الفاضل المتتبع السيد محمد علي الروضاتي الأصفهاني أدام الله أيام عزه، وكان قد استنسخها وضمها إلى كتاب له شرع في تأليفه سنة ١٣٥٦ هـ عن نسخة بخط ابن المؤلف السيد بهاء الدين محمد ابن السيد عبد الله الجزائري، الذي كتبها هو عن خط والده سنة ١٢٠٠ للهجرة. وهي تضم تراجم ستة من الأدباء والعلماء على النحو التالي:

١ – السيد إسماعيل ابن السيد سعد الموسوي الحويزي.

٢ – السيد شهاب الدين بن معتوق الموسوي الحويزي.

٣ – ابنه السيد معتوق بن شهاب الدين الموسوي الحويزي.

٤ – الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي الدورقي.

٥ – السيد قوام الدين الحسني السيفي القزويني.." (٢)

"تصنع في القرى ويحمل الأغنياء منديلا من القطن أو من الحرير بحسب الطاقة، يربطونه في الحائك لكي لا يضيع.

وتلتف النساء أيضا في نوع من الحائك يصنع من قماش القطن صيفا ومن الصوف شتاء ويتمنطقن بأحزمة

---

(١) تذييل سلافة العصر الجزائري، عبد الله ص/١١

(٢) تذييل سلافة العصر الجزائري، عبد الله ص/١٤

ملونة مصنوعة من الصوف أو من الوبر الجيد خبزهم من القمح والشعير أو من الشعير وحده ولا يكون أبدا من القمح الصافي وذلك راجع إما للمناخ وإما لقناعتهم، وعلى الرغم من وفرة القمح لديهم، فإنهم يستهلكون الشعير بكثرة. والزيت نادر عندهم ولذلك تحضر المأكولات بالزبدة التي تملح للاحتفاظ بها طويلا.

في الصباح لا يخرج أحدهم من بيته قبل ان يفطر بخبز الشعير والزبدة.

ويستخدم الأغنياء أو الملاكون في هذه المناطق، العمال والأجراء (لا يمكن مقارنة ثروات هذا البلد بثروات أوروبا). **وقد جرت العادة أنهم** عندما يشغلون أو يسخرون واحدا من هؤلاء، يدفعون عنه ديونه، ان كانت عليه ديون، أو يقدمون له مسبقات تساعده على سد حاجاته، وهم بذلك كأنما يبيتون نية في أن يشدوه اليهم، ويسكن هذا الرجل عند المالك صحبة زوجته وأطفاله على النحو الذي سنذكره مفصلا في ما يلي: يعطي المالك، صاحب المزرعة أو المؤسسة، لهذا العامل بقرة أو بقرتين حسب إمكانياته أو حسب الاتفاقيات المبرمة بينهما. ويتعهد الأخير بتسليم الأول أرطالا معينة من الزبدة (الرطل في هذا البلد أكبر من الرطل الأوروبي، إنه يساوي ٢٨ أوقية) (١) وهكذا، فان هذا الرجل

---

(١) المقصود هنا هـ الرطل الكبير الذي يساوي بالغرامات ٩٢١،٥.." (١)

"وتجار. وإذا وضعوا ثقتهم في شخص فللأبد، وكذلك إذا خدعوا فإنهم سيحذرون إلى الأبد الشخص الذي خدعهم. إن معظم مبايعتهم يتم بدون عقد وبدون شهادة، وبكل أمانة ينفذون جميع التزاماتهم.

عندما تقع أفراح الزواج أو عندما تكون هناك أعياد عائلية، فإن هؤلاء السكان يستلفون من بعضهم حليا وجواهر ثمينة يفوق سعرها في بعض الأحيان عشرة أو خمسة عشر ألف فرنك. وكل شيء في هذه الظروف، يرتكز على الثقة ولا يشترط أي دليل لإثبات الدائنية. ولقد يوثق بامرأة عجوز إذا كانت معروفة حتى ولو كانت فقيرة. وإننا لا نذكر أن مشكلا قد وقع من جراء ذلك. **ولقد جرت العادة كذلك** أن بعض الأسر الغنية (التي نفي مغظمها من الجزائر نتيجة الحكم الفرنسي الجائر) تشتري جواهر وحليا فاخرة تعار للأيتام عند زواجهم وللفقراء الذين لا يستطيعون الحصول عليها. وتعتبر الأسر هذا التصرف كعمل من الأعمال الخيرية ونحن نعتقد أن الخير ل ا يتم فقط بواسطة التصدق على الفقراء، وإعطاء فرنك أو ألف فرنك لشخص معين، ولكن الخير يكون كذلك في كل ما يفرح الجار ويحدث في نفسه شعورا بالغبطة والسرور. وهكذا، فإن هذه الحلي مخصصة فقط للاستعمال المحلي كما فصلنا ذلك أعلاه، ومن ثمة، فإن قيمتها

---

(١) المرآة حمدان خوجة ص/٣٢

تشكل نوعا من الرأسمال الجامد. إن الجزائريين مسالمون بالطبع، ويخضعون للسلطة حتى ولو جارت.
وإن المحنة التي سلطها عليهم الفرنسيون لخير دليل على ذلك، إذ ما أكثر الآلام التي تعرضوا لها من طرف السادة الحكام ابتداء من بورمون (١) نفسه إلى

(١) هو قائد الحملة الفرنسية. ولد سنة ١٧٧٣ وتوفي سنة ١٨٤٦. كان من جنرالات الامبراطورية ثم انضم إلى لويس الثامن عشر. هو الذي وقع على ثيقة الاستسلام وأول من نكث العهد الذي عقده مع الجزائريين باسم الأمة الفرنسية.." (١)

"حتى لا يكون مضطرا لشرائها أو للمطالبة بالأموال اللازمة لذلك، وهكذا يجد الباي الجديد موردا هو بداية ثروته.

وقد جرت العادة أن يرسل الباشا لكل باي حامية في كل سنة مرة. وبما أن سكان مقاطعة التيطري فقراء وقليلو العدد، فإن الحامية لا تبقى عندهم إلا شهرين ثم ترجع إلى مدينة الجزائر. وفي معسكر، في الجزء الغربي، تبقى الحامية أربعة أشهر، وأما في قسنطينة التي تشكل شرق البلاد، فإنها تبقى ستة أشهر.

وإذا أراد أحد الجنود، في حامية ما، أن يقيم في المقاطعة إلى أن تعود الحامية المقبلة، فإنه يحصل على الإذن بكل سهولة. وإن الكثير من أعضاء الميليشيا يفضلون البقاء في المقاطعات على العودة إلى مدينة الجزائر:

١ - لأن مرتباتهم تتضاعف أثناء غيابهم، وادخارهم يتزايد لأن حياة المدينة أغلى من حياة الريف.

٢ - لأن الباي الذي يبقون معه يقدم لهم العطايا والمنح.

وفي أثناء السير تطعم الجيوش بالبرغل، أي بالقمح، يقلى ثم يرحى ويغربل لتنزع منه النخالة فيصبح نوعا من البسيسة. ويحتفظ بهذا القمح المطحون عاما كاملا، ويحضر ويطبخ تماما مثل البيلو (أكلة تركية شائعة في فرنسا). ويحضر بالزبدة فقط. ولا يأكل الجنود اللحم إلا مرة في الأسبوع. ولذلك يفضلون في الشتاء حياة الحامية في المقاطعات على البقاء في مدينة الجزائر وعلى حياة القرصنة.

تتكون حامية قسنطينة من ١٠٠ خيمة، وحامية معسكر من ٦٠ وحامية المدية من ٤٠ وتأوي كل خيمة ٣٠ جنديا يقودهم ضابط برتبة بولكباشي." (٢)

---

(١) المرآة حمدان خوجة ص/٦٤

(٢) المرآة حمدان خوجة ص/١٠١

"سلم لدوفال البرقية التي طلبها منه، فإن شيئا لم يتم من وعود القنصل وواصل الداي بدون جدوى إرسال برقيات أخرى إلى الحكومة الفرنسية مستعملا لذلك طرقا مختلفة وبالطبع، عال صبر الداي لعدم تلقيه أجوبة من الحكومة الفرنسية جاهلا أن هذه الأخيرة لم تطلع على أي واحد من مطالبه المختلفة.

لقد جرت العادة أن تقوم قناصل الدول الأوروبية المعتمدين لدى الجزائر بزيارة إكرام إلى الداي بمناسبة اليوم الأول من البيرم (٤)، وكان القنصل الإنكليزي والقنصل الفرنسي يتنافسان الصدارة في هذه المناسبات. ولذلك، ولتجنب كل مناقشة قرر الداي أنه يستقبل الواحد عشية الاحتفال والآخر في يوم العيد نفسه. وعلى هذا الأساس جاء السيد دوفال عشية عيد البيرم ليؤدي زيارته للداي بمحضر جميع أعضاء الديون. وكان هذا القنصل لا يجيد التركية إلا كما أتكلم أنا اللغة الفرنسيةء فلا يعرف معانيها ولا عبقريتها. وبعد الحفل، س ءل الباشا القنصل لماذا لم تجبه حكومته عن برقياته العديدة الخاصة بمطالب بكري. فكان جواب السيد دوفال في منتهى الوقاحة إذ جاء كالآتي:

(إن حكومتي لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم).

نستطيع لصالح السيد دوفال أن نقول بأن إجابته هذه كانت بسبب جهله للغة، لأن الفرنسي الأصيل لا يتلفظ بكلام بذىء مع إنسان عادي، ناهيك إذا كان ذلك الإنسان رئيس إيالة. ومما لا شك فيه أن الداي كان يمكن أن يعذر السيد دوفال لو وقع ذلك بمناسبة أخرى، ولكن هذه الكلمات، أمام ديوانه، قد مست كرامته إلى درجة أنه لم يتمالك نفسه من الغضب وضربه بالمروحة ضربة واحدة. (هذه المروحة مصنوعة من سعف النخيل). إن حسين باشا

---

(٤) كلمة تركية تعني عيد الفطر.." (١)

"سابقه وأخيرا دعمت طلبي بوصل من الترجمان، وشهادة جماعة أعضاء البلاط مثل وكيل الحرج والسائجي، ومع ذلك فإنني لم أحصل على المبلغ الذي يمثل قيمة تلك المادة. ولقد سمعت أن فوجرو، المالي المستبد، المتدكتر على حقوق الغير، قد أشار على الحاكم بأن لا يدفع أي دين من ديون الدولة لأنه لو فتح هذا الباب ستتكاثر الطلبات التي يجب إرضاؤها.

إن للسادة المسيرين مبادىء واسعة، وتتمطط إلى درجة أنهم يغيرونها كيفما شاؤوا. ولنرجع إلى أحداثنا دون مقارنة ولا تعليق لأن مؤلفنا سيطول لو فعلنا ذلك. إننا نقدمه محدودا في هذا الإطار، إلى عقول القراء وقوة

---

(١) المرآة حمدان خوجة ص/١٤٢

تمييزهم دون أن ندخل، بأنفسنا، في تفاصيل الملاحظات التي يمكن القيام بها فيما يخص كثيرا من الموضوعات.

عندما وجد الجنرال بورمون نفسه في القصبة وسط كنوز هامة كما لا يخفى على أحد، فإن جماعة من الحاضرين قد تكون، على ما يقال، أوردت نوادر مختلفة تتعلق بتلك المناسبة، ومفادها أن رئيس الجيش هذا لم ينج من بعض الأطماع وكذلك كثير من ضباطه المقربين. غير أن هذه ليست إلا إشاعات يؤمن بها الجميع، ولكن لا يريد أحد أن يشهد بها.

لقد جرت العادة أن يعطي صائدو المرجان، سنويا، للدولة خمسة أرطال من النع الرفيع. وكان ذلك المرجان يجمع ثم يباع فيشكل جزءا من موارد الإيالة. وبعد دخول الفرنسيين جاءني أحد اليهود، وطلب مني أن أبعث، باسمي، إلى ليفورنة (٥) عددا من صناديق المرجان. ولما كنت أجهل الطريقة

---

(٥) ميناء تجاري هام في إيطاليا الجنوبية. كانت الجزائر تقيم معه علاقات متينة عن طريق محلات بكري وبوجناح خاصة.." (١)

"ودونك مثالا مما كان يكتبه الفارياق في أساطير بعير بيعر. في هذا اليوم وهو الحادي عشر من شهر آذار سنة ١٨١٨ قص فلان ابن فلانة بيت فلانة ذنب حصانه الأشهب بعد أن كان طويلا يكنس الأرض. وفي ذلك اليوم بعينه ركبه فكبا به. فإن قلت ما سبب النسبة إلى الأم دون الأب قلت أن بعير بيعر كان من المتدينين، المتورعين المتقين. فنسبة الولد إلى أمه أصح وأصدق من نسبته إلى أبيه. فإن الأم لا تكون إلا واحدة بخلاف الأب ولكون الجنين لا يمكنه الخروج إلا من مخرج واحد، ومن ذلك اليوم نظرت سفينة في البحر ماخرة فظن إنها بارجة قدمت من إحدى مراسي فرنسا لتحرير أهل البلاد، لكنه عند التحقيق ظهر أنها كانت زورقا مشحونا ببراميل فارغة وكان سبب قدومه للاستقاء من عين كذا. فإن قيل أن هذا خلاف المعهود، فإن من شأن الكبير أن يبدو للعين عن بعد صغيرا لا عكسه. قيل أن الإنسان إذا أعطى نفسه هواها رأى الشيء بخلاف ما هو عليه. فمن أحب مثلا امرأة قصيرة لم ير بها قصرا. ومنخلا بمحبوبته في فترة رآها أوسع من صرح بلقيس. فإنا نرى النور الصغير عن بعد كبيرا. فلا غرو أن يبدو الزورق بارجة أو شونة. فإن القوم هناك ما زالوا يحملون بأن رؤوسهم قد تبرطلت ببراطل الفرنساوية ولحموا عرضهم بعرضهم حتى يروا نساءهم كما قال الشاعر:

---

(١) المرآة حمدان خوجة ص/١٧٨

تصيد ظباؤنا الأسد الضواري ... بلحظ أو بلفظ في المسالك

وغزلان الفرنج تصيد أيضا ... بذين معا وبالأيدي كذلك

وكان بعير بيعر ستهما جعظرا أحرقه. لكنه كان حليما يجب السلم والدعة. وكان من التغفل على جانب عظيم. فكان مفوضا أموره المعاشية إلى رجل لئيم شرس الأخلاق عيده به كبر وعنجهية وعجرفة وتفجس وغطرسة. وكان تمضي عليه الساعة والساعتان وهولا يبدي ولا يعيد. فيظن الغر أنه معمل فكره في تدبير الدول. أو تلخيص النحل. **فقد جرت العادة بأن** الرجل إذا كان ذا منزلة رفيعة فإن كان عييا مفحما عد رزينا وقورا. وأن يك مهذارا عد فصيحا. فأما أموره المعادية فإنها كانت تعلو وتسفل وتضوي وتجزل وتفتق وترتق بتدبير قسيس ذي دعابة وفكاهة وبشاشة وهشاشة. قصير سمين. أبيض بدين. وكان هذا القسيس الصالح قد تمكن من حريمه تمكنا لا يباريه فيه النسيم. وألقى عصاه عند إحدى بناته وكانت ذات وجه وسيم ومنطق رخيم. وكانت تزوجت برجل قد جن وتخبل فخلته وجنونه واعتصمت بعقوة أبيها فكان القسيس آمرا عليها مطاعا. ناهيا وزاعا فكانت كلما دخل فيها شيء أوخرج منها شيء تطالعه به لأنها كانت ممن قفط قطري الدين والدنيا معا. وكانت تعترف له بجرائرها في الخلوة. وهو يسألها عن كل زلة وهفوة. فيقول لها هل تتذبذب أليتاك ويترجرج ثدياك عند صعودك الدرك أو عند المشي. وهل يحدث فيك هذا الارتجاج من لذة. فقد ورد في بعض الأخبار أن بعض الجلامطة كان يرتاح إلى أي ارتجاج كان. حتى كان كثيرا ما يتمنى أن تتزلزل الأرض من تحته. وتمور الجبال من فوقه. وهل يمثل لك في الحلم ضجيع يكافحك. وخليع يصافحك إذ لا فرق عند الله بين اليقظة والمنام. وأن أعظم الحقائق إنما بني على الأحلام. وهل وسوس إليك الوسواس الخناس فاشتهيت أن تكوني خنثى، أي ذكرا وأنثى لا ذكر ولا أنثى كما تقول العامة. فإن هذا القول لم يرتضه المحققون من الربانيين اللاتين وغير ذلك من الوسائل التي يضيق عن تفصيلها هذا الفصل. وكان أبوها لا يسيء به الظن لما تقرر عنده من أن كل من لبس السواد فهو من الفاطميين أهواءهم عن اللذات الخاصين أنفسهم عن الشهوات حتى أنه نظر يوما في بعض الكتب هذا البيت وهو:

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها ... أفاويق حتى ما تدر لنا ثعل

فظن أنه تعريض بهم وتلميح إليهم. فأمر بإحراقه فأحرق وذرى رماده. ورأى يوما آخر بيتين في كتاب آخر وهما:

ما بال عيني لا ترى من بين من ... لبس السواد من العباد نحيفا

ما كان من لحم وشيء غيره ... فيهم فأصلب ما يكون وقوفا." (١)

"وأنه بعد جولان عدة قرى ليس فيها من مأوى ولا قرى. وبعد مجادلات مع الشارين طويلة. ومحاولات ومصولات وبيلة قنع الفارياق وشريكه من الغنيمة بالإياب. ورضيا باللقاء والعود إلى المآب. وعلما إن البئر الفارغة لا تمتلئ من الندى. وإن التعب في تجارتهما يذهب سدى. فتسببا في بيع البضاعة بقيمتها كيلا يشمت بهما من ينظرهما راجعين بماهيتها. وباتا تلك الليلة خالي البال من القليل والقال. فإن من الناس من لا يعجبه شراء شيء إلا بعد تقليبه. وبعد تحميق بائعة وتكذيبه. فلا بد للبائع من أن يكون عن مثل هؤلاء متصاما متغافلا متعاميا متساهلا. وتلك خلة لم تكن في الفارياق ولا في صاحبه. فإن كلا منهما كان يحاول استمالة الكون إلى جانبه. ثم إنهما رجعا بثمن البضاعة وبالحمار وسلما المال لصاحبه. فعرض عليهما سلعة أخرى فأبيا. وتواعدا أن يجتمعا مرة أخرى للشركة في مصلحة أهم. وآثرا أن تكون في البيع والشراء. **وقد جرت العادة بين** الناس بأنه إذا تعاطى أحد عملا ولم ينجح به أول مرة لج به الشره إلى معاطاته مرة أخرى. إذ ليس أحد يرضى لنفسه نحس الطالع وشؤم الجد. وإنما ينسب حرفه فيما احترف به إلى بعض عوارض وطوارئ حدثت له. فيقول في نفسه لعل هذه العوارض لا تقع هذه المرة. وعلة ذلك كله اعتماد الإنسان على رشد نفسه وثقته بسعيه والركون إلى حدسه. وقد تهور في ذلك كثير من الخلق. وأكثرهم جنى على نفسه في التهافت على الرزق.

خان وإخوان وخوان

ثم إنه بعد مذاكرة طويلة بين الفارياق وصاحبه قرر رأيهما على أن يستأجرا خانا مدينة الكعيكات. حيث ترد القافلة منها إلى مدينة الركاكات فاستبضعا ما يلزم لهما من الميرة والأدوات ولبثا قسه يبيعان ويشتريان بما تيسر لهما من رأس المال وذنبه. فلم تمض عليهما وجيزة حتى انتشر صيتهما عند الواردين والصادرين. وعرف رشدها جميع المسافرين. فكان الناس يقصدونهما لاقتصادهما. وكثيرا ما أنتاب خانهما أهل الفضل والبراعة، والوجاهة والاستطالة. حتى كأنه كان حديقة يتفرج فيها الميكروب.." (٢)

---

(١) الساق على الساق في ما هو الفارياق الشدياق ص/١٨

(٢) الساق على الساق في ما هو الفارياق الشدياق ص/٢٣

"ثم أني تفلت من عكال الجاثليق بعد مدة كادت أن تنسيني لذات الأيام الغابرة. وخرجت في طلب آخر نكاية لذاك فصرت إلى جاثليق من اشد الناس عداوة لجاثليقي القديم. إذ العداوة توجد بين الجثالقة، كما توجد بين الزنادقة. فأقمت عنده مدة ثم خشي علي أن يرهقني من ذاك سوء فسفرني إلى بلاد بعيدة في سفينة حرب. فما سرنا بعض ساعات حتى تعطل بعض أدوات السفينة وخشي ربانها أن تغرق بهم. فرجع وقد تشاءم بي وقال لبعض الركاب أنه إنما جرى عليه ما جرى من شمخترتي فتعجب إذ بلغني كلامه جدا. لأن أولئك القوم لا يرتسمون ولا يتشاءمون. ولا يتطيرون ولا يتفاءلون. ولا يتحتمون ولا يتيمنون. ولا يتسعدون ولا يتمسحون ولا يقلدون بعود الشبارق ولا يستعلمون نبت العطف. وما عندهم هقعة ولا لجام ولا عاطوس ولا عاطس. ولا كابح ولا كادس. ولا قعيد ولا داكس. ولا بارح ولا سانح. ولا زجر ولا تحزي. ولا عثيرة ولا عيافة ولا طرق ولا عرافة ولا هجيج ولا كهانة. ولا ابنا عيان ولا تنجي. ولا لمة ولا حفوف. ولا لعطة ولا انتجاء. ولا تشوه ولا تعيد. ولا طلاسم ولا تشهق. ولا عزائم. ولا رقي ولا تمائم. ولا الينجلب ولا تولة. ولا حوط ولا غز. ولا تدسيم النونة ولا شد الحقاب. ولا رسع ولا صخبة. ولا قليب ولا كبدة ولا وجيه ولا سلوانة. ولا سلوان ولا نقرة. ولا مجول ولا مهرة. ولا أخذة ولا عوذة. ولا هبرة ولا رأمة. ولا كحلة ولا هنمة. ولا جلبة ولا صرة. ولا قبلة ولا نشزة. ولا قبلة ولا نفرة. ولا صدحة ولا همزة. ولا زرقة ولا عطفة. ولا فطسة ولا صرفة. ولا غضار ولا كرار. ولا بريم ولا حرز. ولا خصمة ولا رتيمة. ولا اسحم ولا صهيم. ولا تذعب ولا صوت اللوف. ولا هامة ولاصفر. ولا أخذة النار ولا تنجيس ولا لحج ولا انكيس. ولا أس ولا شحيثا ولا طلب ولا تول. ولاسحر ولاماقط. ولا عاضه ولا مستنشئة. ولا نفاثات في العقد ولا صدي. ولا شعبذة ولا نيرنج. ولا شعوذة ولا حابل ولا حاو.

ويومئذ أيقنت أن القنافي مكروه عند جميع الأمم. وإن أوقية لحم زائدة في وجه الرجل تشفيه وتحرمه. ورطلين في بتلية المرأة يسعدانها ويفيزانها. فزاد تعجبي من هذه الدنيا المبنية على رطلين وأوقية لحم ومع ذلك فلم يمكن لي الزهد فيها.

ثم إني سافرت بعد ذلك إلى تلك البلاد وأمنت فيها من مكر أعدائي. واستأجرت بيتا واتخذت لي امرأة تخدمني. **وقد جرت العادة في** تلك البلاد وفي بلاد الإفرنج أيضا بأن يتخذ القسيسون نساء للخدمة. فتأتي المرأة أحدهم صباحا وهو في فراشه الوثير وتقضي له ما يروم منها. فلما ذقت طيب العيش وسوس إلي الوسواس أن أتزوج بنتا فقيرة لكنها كانت جميلة غير أني لم أكن على يقين من نهود ثدييها ومع ذلك فقد كلفت بها. فطلبت من الجاثليق أن يزيد وظيفتي فأبى. فألححت عليه وهو مصر على المنع وأنا مصر

على الاستزادة. ثم ناقشته وراغمته فرأى أن يردني من حيث جئت.
فسرت إلى جاثليق محب للجاثليق الأول برؤيتي وأنزلني عنده. فرجعت إلى ما كنت عليه سابقا. وها أنا مترقب فرصة أخرى تمكنني من المقايضة على هذا النحس الآخر أيضا فإنه جاهل جدا. وعندي أن مبادلة الجثالقة في هذا الزمان العسوف انفع من حجر الفيلسوف. انتهت قصة القسيس وهذا تفسير ما أشار إليه آنفا من الألفاظ الغريبة: أبناعيان: طائران أو خطان يخطهما العائف في الأرض يقول ابناعيان أسرعا البيان أخذة النار بعيد صلاة المغرب يزعمون إنها شر ساعة يقتدح فيها.
الأخذة رقية كالسحر أو خرزة يؤخذ بها الارتسام التكبير والتعوذ والتحتم التفاؤل الأسحم الدم تغمس فيه أيدي المتحالفين أس كلمة تقال للحية فتخضع الانكيس في أشكال الرمل كالمنكوس البارح من الصيد ما مر من ميامنك إلى مياسرك البريم خيطان مختلفان أحمر وأبيض على وسطها وعضدها.. والعوذة التحزي حزا حزوا وتحزي زجر وتكهن وحزي الطير ساقها وزجرها تدسيم النونة تدسيم نونة الصبي تسويدها كيلا تصيبها العين التذعب تذعبته الجن أفزعته التشهق شهقت عين الناظرعليه أصابته بعين التشوه يقال لا تشوه علي أي لا تصبني بعين التعيد تعيد العاين على المعيون تشهق عليه وتشدد ليبالغ في إصابته بعينه ذكره الفيروزابادي في ع ود." (١)

"فإن قوما من هؤلاء الصعافيق لهم شيخ سوق وما لهم خرج. وقوما لهم خرج وليس لهم شيخ ولكن لعل صاحبي هذا على الحق. إذ لو لم يكن كذلك لما تكلف حمل الخرج من أقصى البلاد وتجشم أخطار السفر وغيره ثم نخره الخناس أن الخرجي ربما لم يجد محترفا في بلاده فجاء بما عنده لينفقه في بلاد أخرى. فإن تاجرا لو استبضع من بلده مثلا خزا أو كرباسا إلى بلد آخر لم يحكم له بأنه قدم إلى هذا البلد حبا بأهله. **فقد جرت العادة بأن** المتسببين يطوفون في كل الأقطار. ثم فكر في أن أناة الخرجي وما هو عليه من الرزانة والصبر لا بد وأن يكون قرينها الرشد والحزم بخلاف النزق والطيش فإنه لا يكون إلا قرين الغواية والضلال. فمن ثم حكم بأن الخرجي كان على هدى وذلك لإتاحه وحلمه. وإن المطران كان من الضالين لحدته وتترعه. ثم قال للخرجي قد وعيت يا سيدي كل ما أوعيته أذني. وما أرى الحق إلا معك. وأني مشايعك ومتابعك وحامل الخرج معك. ولكن أجرني من هؤلاء الصعافيق فأنهم كالأسود الضارية لا تأخذهم في خلق الله رأفة ولا شفقة. وعندهم أن أهلاك نفس غيرة على الدين يكسبهم عند الله زلفى. وقد تمسكوا بظاهر أقوال من الإنجيل فيما رأوه موافقا لغرضهم وزائدا في جاههم وسلطانهم. فيقولون أن المسيح

(١) الساق على الساق في ما هو الفارياق الشدياق ص/٤٩

بقوله ما جئت لألقي على الأرض سلما لكن سيفا إنما رخص لهم في إعمال هذه الأداة في رقاب الناس ردا لهم إلى طريقة الحق. وقد نبذوا وراء ظهورهم خلاصة الدين وجوهره ونتيجته. وهي الألفة بين جميع الناس والمحبة والمساعدة وحسن اليقين بالله تعالى. وما صعب على من زاغ وعمي عن الحق أن يستخرج من كل كتاب وحيا كان أو غير وحي ما يوافق غرضه وفساد عقيدته. فإن باب التأويل واسع. أيجوز الآن الأمير الجبل إذا شاخ ولم يعد التدثر بالثياب يدفئه أن يتكوى ببنت عذراء جميلة أي يتدفأ بها ويصطلي بحر جسدها كما فعل الملك داود. أم يجوز له إذا حارب الدروز وانتصر عليهم أن يقتل نساءهم المتزوجات وأطفالهم ويستحيي أبكارهم لتفجر بهن فحول جنده. كما فعل موسى بأهل مدين على ما ذكر في الفصل الحادي والثلاثين من سفر العدد. أم يجوز له أن يتزوج بألف امرأة ما بين ملكة وسرية كما فعل سليمان. أم يجوز لأحد من القسيسين أن ينكح زانية ويولدها النغول كما فعل النبي هوشع. أم يسوع لأحد من الولاة أن يقتل من أعدائه كل رجل وكل امرأة وكل طفل رضيع كما فعل شاول بالعمالقة عن أمر رب الجنود. حتى أن الرب غضب عليه لعدم قتله خيار الشاه والأنعام لإبقائه على أجاج ملك العمالقة وندم على أنه ملكه على بني إسرائيل فقام صموئيل وقطع الملك قطعا أمام الريفي جلجال. هذا وأني قد قرأت في فهرست التوراة المطبوعة في رومية في حرف الهاء ما نصه: ينبغي لنا أي لأهل كنيسة رومية أن نهلك الهراطقة. أي المبتدعين أو المشاحنين. واستشهدوا على ذلك بما كان يجري بين اليهود وأعدائهم من القتال والفتك والاغتيال على ما سبق ذكره. فإن يكن دين النصارى يحلل قتل الرجال والنساء والأطفال والفجور بالأبكار من النساء ويبيح التوثب على عقار الغير من دون دعوة إلى الدين بل مجرد عتو وظلم كما كان يحلله دين اليهود فلا يسبب نسخه إذن وأبطال أحكامه لكن دين النصارى مبني على مكارم الأخلاق وغايته من أوله إلى آخره إبقاء السلم بين الناس وحثهم على الصلاح والخير. وإلا فلنرجع يهودا. فلما سمع الخرجي ذلك رأى أن وراء هذا الكلام لباقعة. فحرص على إنقاذ الفارياق من أيدي العتاة. وارتأى أن يبعثه إلى جزيرة تسمى الملوط استئمانا فيها. فركب الفارياق في سفينة صغيرة سائرة إلى الإسكندرية. فلما أن سارت به غير بعيد هاج البحر وأضطرب بالسفينة فلزم صاحبنا فراشه من الدوار. وطفق يشكو من ألم البحر وينوح قائلا: نوح الفارياق وشكواه." (١)

"والعامة عيدان مشدودة تركب في البحر ويعبر عليها في النهر ويقال لها أيضا العامة.

وإنه بعد وصوله إلى مرسى الجزيرة اعد له فيه مكان حسن لتطهير أنفاسه به مدة أربعين يوما. إذ **قد جرت**

---

(١) الساق على الساق في ما هو الفارياق الشدياق ص/6.

العادة عندهم بأن من قدم إليهم من البلاد المشرقية وقد استنشق هواها فلا بد وأن ينثره في المرسى قبل دخوله البلد. فأقام فيها يأكل ويشرب مع اثنين من أعيان الإنكليز ممن ركبوا في السفينة. وطاب له العيش معهما قد ساحا في بلدان كثيرة من المشرق وأخذا عن أهلها الكرم. ثم بعد انقضاء المدة جاء الخرجي وأخذه إلى منزله بالمدينة وكان المذكور قد فقد زوجته من يوم نوي تسفير الفارياق إليه. فلزم الحداد والتقشف. ولزمته الكآبة والتأسف. وأن لا يأكل غير لحم الخنزير أعلى الله شأنك عن ذكره. وإنما أمر طباخه بأن يتفنن فيه. فيوما كان يطبخ له رأسه. ويوما رجليه. ويوما كبده. ويوما طحاله. حتى يأتي على جميع آرابه ثم يستأنف من الرأس. وأنت خبير بأن نصارى الشام يحاكون المسلمين في كل شيء ما خلا الأمور الدينية. فمن ثم كان لحم الخنزير عندهم منكرا. فلما جلس الفارياق على المائدة وجاء الطباخ بأرب من هذا الحيوان الكريه ظن أن الخرجي يمازحه باراءته إياه شيئا لم يعرفه. فامتنع أن يأكل منه طعما في أن ينال من غيره. وإذا بالخرجي قضى فرض الغداء وشرع حالا في الصلاة والشكر للباري تعالى على ما رزقه. فقال الفارياق في نفسه قد خطأ والله صاحبي. فإنه وضع الشكر في غير موضعه إذ الثناء على الخالق سبحانه لأجل فاحشة أو أكل سحت لا يجوز. وفي اليوم الثاني جاء الطباخ بعضو آخر. فالتقمه وشكر عليه أيضا. فقال الفارياق للطباخ لم يشكر الله صاحبنا على أكل الخنزير. قال ولم لا وقد أوجب على نفسه أن يشكر له على كل حال وعلى كل شيء كما ورد في بعض كتب الدين. حتى أنه كان يقضي هذا الفرض بعد أن يبيت مع زوجته. قال وهل شكر له عرى موتها. قال نعم فإنه يعتقد أنها الآنفي حضن إبراهيم. قال أما أنا فلو كان لي امرأة لما أردت أن تكون في حضن أحد. ثم أن دولة الخنزير اعتزت وعظمت. ومصارين الفارياق ضويت وذوت. فكان يقضي النهار كله على الخبز والجبن. ثم بلغه أن خبز المدينة يعجن بالأرجل ولكن بأرجل الرجال لا النساء فجعل يقلل منه ما أمكن. حتى اضر به الهزال. وصدئت أضراسه من قلة الاستعمال. فوقع منها اثنان من كل جانب واحد. وهذا أول أنصاف فعله الجوع على وجه الأرض. إذ لو كانا وقعا من جانب واحد لثقل أحد الجانبين وخف الآخر فلم تحصل الموازنة في حركات الجسم.

أما المدينة فإن القادم إليها من بلاد الشرق يستحسنها ويستعظمها. والقادم إليها من بلاد الإفرنج يحتقرها ويستصغرها. واعظم ما حمل الفارياق فيها على العجب صنفان صنف القسيسين وصنف النساء. أما القسيسون فلكثرتهم فأنك ترى الأسواق والمنازة غاصة بهم. ولهم على رؤوسهم قبعات مثلثة الزوايا لا تشبه قبعات السوقيين في الشام. وسراويلهم أشبه بالتبابين فأنها إلى ركبهم فقط. وسيقانهم مغطاة بجواريب سود.

والظاهر أنها عظيمة لأن جميع القسيسين في هذه الجزيرة معلفون سمان. **وقد جرت العادة عندهم** أيضا بأن القسيسين وأهل الفضل والكمال من غيرهم يحلقون شواربهم ولحاهم. وإنما يجب على القسيسن خاصة أن يلبسوا سراويلات قصيرة مزنقة حتى يمكن للناظر أن يتبين ما وراءها. فأما النساء فلاختلاف زيهن عن سائر نساء البلاد المشرقية والإفرنجية. ولأن كثيرا منهن لهن شوارب ولحى صغيرة ولا يحلقنها ولا ينتفنها. وقد سمعت إن كثيرا من الإفرنج يحبون النساء المتذكرات. فلعل هذا الخبر الغريب بلغ أيضا مسامعهن. كيف لا وأهواء الرجال لا تخفى عن النساء. والحسن فيهن قليل جدا. وانتقادهن إلى القسيسين غريب. فإن المرأة منهن تؤثر قسيسها على زوجها وأولادها وأهلها جميعا. ولا يمكن أن تتخذ طعاما فاخرا من دون أن تهديه باكورته حتى كل منه أكلت هي.." (١)

"فعند قوله هذا تذكر الفارياق قول المطران لقيعر قيعار وأولجت فيها. فذكرها للخواجا المذكور فغلب عليه الضحك حتى فحص الأرض برجله. ثم قال نعم وإني لفي كتب الكنيسة كلها أغلاطا فاضحة من هذا النوع. فقد قرأت في كتاب منها عن بعض الرهبان إنه كان من التواضع على جانب عظيم حتى إنه كان كلما مر عليه رئيسه يقوم وينتصب عليه، أي له. وعن آخر أنه بلغه عن راهبة ما أنها كانت ذات كرامات ومشاهدات. فكان يستمني دائما أن يراها، أي يتمني. وعن آخر أنه كان خرج من ديره وغاب عنه مدة طويلة ثم رجع فوجد رئيسه الأول قد مات وولى رئاسته أحد أصحابه. وأنه بعد أن تفاوضا وتباشرا قلده الرئيس خدمة تهبيب الرهبان ليلا. أي إيقاظهم من هب إذا قام. وعن بعض المطارنة إنه كان إذا وعظ في الكنيسة ينتعظ له كل من يسمعه، أي يتعظ. وغير ذلك مما لا يحصى بل قد ورد في الإنجيل وكلام الرسل كلام فاسد المعنى ومنشاه فيما أظن جهل المعربين. فمن ذلك ما ورد في إنجيل متى خطابا عن المسيح عم. إحذروا لا يضلكم أحد فإنه سيأتي باسمي كثيرون قائلين أنا هو المسيح فلا تصدقوهم. والمراد أن يقال أن كثيرا ينتحلون أسمي فيدعي كل منهم بأنه هو المسيح. وشتان ما بين الكلامين. وفي رسالة ماربولس إلى طيموتاوس. ولتكن الشمامسة أزواج زوجة واحدة. ومقتضاة اشتراك الشمامسة في بضع واحد. معاذ الله أن يكون كلامي هذا ازدراء بالدين وإنما أوردت ذلك شاهدا على جهل من عرب وألف من أهل ملتنا. نعم أن بعض المطارنة قد ألفوا تآليف مفيدة جودوا عباراتها وحرروا معانيها. إلا أن الجمهور من أهل الكنيسة جهال أغبياء لا يعجبهم إلا الكلام الفاسد الركيك. ولقد أفضى بنا هذا الاستطراد إلى غير الغرض.

فلنعد إلى ما كنا بصدده وهو إسعافك أيها الخدين بما يريحك من حمل الخرج. هل لك في أن تكون

---

(١) الساق على الساق في ما هو الفارياق الشدياق ص/٨٢

كاتبا عند رجل من السراة الأغنياء يريد أن ينشي ممدحا يكتب فيه بلغات مختلفة مساعيه ومعاليه. فيكون شغلك فيه في كل يوم بيتين أو أكثر بحسب الاقتضاء. قال فقلت إني يا سيدي ما بلغت من العلم ما يؤهلني إلى هذه الرتبة. ونحن في هنا في بلد العلم والأدب فأخشى أن يصدى لي قوم يزيفون كلامي ويخطئونني. فأخجل والله بعدها من أن انظر إلى وجه مخلوق من البشر. فإني رجل أحب الخمول وإن بضاعتي في ذلك لمزاجاة. قال لا تخش من ذلك فإن أهل مصر وإن كانوا قد تقصوا حد العلم وبرعوا في الفضل والأدب على غيرهم. إلا أنهم لا يتعنتون على الناظم أو الناثر بلفظة يخل فيها عفوا. أو بمعنى يخطي فيه سهوا. فإنهم أهل سماح ومياسرة. على أن من نبغ في الشعر أن لم يلق من ينتقد قوله مرة ومن يخطئه أخرى فلا يمكنه أن يصل إلى مرتبة الشعراء المجيدين. ولو بقي ينظم أبياتا ويودعها سمعه فقط لما عرف الخطأ من الصواب قط. فلا يكاد أحد يصيب إلا عن خطأ. **وقد جرت العادة بين** الشعراء بأن ما يستهجنه بعضهم من المعاني والألفاظ يستحسنه البعض الآخر. فلا يزال الشاعر والمؤلف بين أثنين عاذل وعاذر. ومخطئ ومصوب. ومفسق ومبري. ومعترض ومناضل. وراتق وفاتق. وممزق ورافئ. وخارق وراقع. وحاضر ومسوغ. ومضيق وموسع وقائل لم وقائل لأن. حتى ترجع حسناته سيئاته. وتتداول الناس أبياته. وقد طالما حاول الشهرة أناس بالقول المردود. والكلام المقصود. فمنهم من نظم أبياتا مهملة أي عارية عن النقط فأهملت. ومنهم من التزم فيها الحبك بأن يجعل في أول بيت منها حرفا من حروف اسم الممدوح فتركت وألغيت. ومنهم من جعل دابة التجنيس والتوريات البعيدة فردت وزيفت.

واكتفوا من ذلك بمجرد الشهرة بين قومهم ولم يبالوا بالتعرض للوم والتفنيد.

وإني أعيذك من أن تعد في جملة هؤلاء. فإني رأيت في إنشائك نزوات أفكار لطيفة تدل على قريحة جيدة. وسليقة متوقدة. وبعد فمن ذا الذي ما ساء قط. قال فقال والله أن لك علي لمنتين عظيمتين الأولى عنايتك بمعاشي. والثانية تنشيطك إياي إلى النظم. فقد كنت جزمت بأن لا أقول الشعر إلا مكتوما عن الناس وها أنا لك يا سيدي من الشاكرين. وبكرمك من الزائرين. ثم انصرف من عنده داعيا له وقد اضمر مفارقة الخرجي في اليوم القابل.

أبيات سرية." (١)

---

(١) الساق على الساق في ما هو الفارياق الشدياق ص/٩٩

"العبادات وأنواعها – تحقق أن هذا الألتجاء والتوكل والرجاء بمثل طلب الشفاعة هو الذى نهى عنه الأولون، وأرسل لأجل قمعه المرسلون، وبذلك نطق الكتاب، وبينه لنا خير من اوتى الحكمة وفصل الخطاب، سيما إذا استغيث بهم لدفع الشدائد والملمات، ولرفع الكرب المهمات، مما لا يقدر على دفعه إلا خالق الأرض والسماوات.

وقد كان الأولون إذا وقعوا في شدة دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إذا هم يشركون. ومن فعل هذا بحالتى الشدة والرخاء، بل في قسمى المنع والعطاء فقد غلا وداوز حده، قال سبحانه: ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ [الرعد ١٤] .

وإذا علمت هذا، فاعلم أن الاستغاثة بالشئ طلب الإغاثة والغوث منه، كما ان الاستغاثة بشئ: طلب الإعانة منه. فإذا كانت بنداء من المستغيث للمستغاث كان ذرك سؤالا منه، وظاهر أن ذلك ليس توسلا به إلى غيره، بل طلب منه، إذ **قد جرت العادة أن** من توسل بأحد عند غيره أن يقول لمستغاثه: أستغيثك على هذا الآمر بفلان، فيوجه السؤال إليه ويقصر أمر شكواه عليه، ولا يخاطب المستغاث به ويقول له ارجو منك، أو أريد منك، أو أستغيث بك، ويقول إنه وسيلتى إلى ربي، فإن هذا غير معروف، وإن كان كما يقول فما قدر عظم المتوسل إليه حق قدره وتعظيمه، وقد رجا وتوكل والتجأ إلى غيره. كيف واستعمال العرب يأبي عنه، فإن من يقول: صار لى ضيق فاستغيث بصاحب القبر فحصل الفرج، يدل دلالة جبلية على أنه قد طلب الغوث منه، ولم يفد كلامه أنه توسل به عند غيره، بل إنما يراد هذا المعنى إذا قال: توسلت أو أستغيث عند الله تعالى بفلان، أو يقول لمستغاثه وهو الله سبحانه: استعيث إليك بفلان، فيكون حينئذ مدخول الباء متوسلا به،." (١)

"قائلا: إنني إذا حصلت على القصد الفلاني أعتق لأجله عبدا وجب عليه أن يقوم بإبقاء النذر.

وأما الجارية التي تقوم بتربية ابن سيدها فإنها تعطى حريتها فيا ليوم الذي يذهب به الصغير إلى المدرسة، ومن حيث إن أكثر الصغار يرسلون إلى المدرسة وهم في السن الرابعة من عمرهم كانت مدة إسارة المربيات أربع سنوات حتى إنه إذا ارتكب شخص قصدا إفساد صوم يوم واحد من صيامه فرض عليه أن يكفر عن ذلك بإعطاء الحرية لعبد واحد وإذا لم يستطع هذا الأمر فالكفارة تكون ستين يوما فيستنتج من كل ما تقدم أن إطلاق حرية عبد واحد تقوم مقام صيام ستين يوما، وعلى ذلك كان هناك أسباب شرعية وآداب ملية

---

(١) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ابن الآلوسي ١٥١/١

تجبر أهل الإسلام على عتق العبد.

قالت: حسن جدا غير أن الخادمة يمكنها أن لا تخدم في المنزل الذي لا ترضاه، أما الجارية فإنها مكرهة على البقاء في الخدمة وإن يكن سيدها ظالما؟ فقلت: لماذا إن الجارية التي تكون غير مسرورة من المنزل وكانت راغبة في تركه فيكفي في ذلك أن تقول: بيعوني وحينئذ تباع إلى من ترضاه ويعجبها، **وقد جرت العادة أنها** لا يمكن أن تباع إلى شخص لا يلائمها، وأما من حيث الوجه الشرعي فإن الظلم والجفاء لا يجوز إتيانه بحق الأسرى على وجه الإطلاق وعند مراجعة المحكمة في الأمر فالعدالة تأخذ مجراها لدى الحاكم.

قالت: يستفاد من ذلك أنه لا فرق بينهن وبين الخادمات.

قلت: كلا يأيتها المادام أننا لسنا بمديونين للخدمة بهذا القدر فإن الخادمة تتناول راتبها الشهري ليس إلا وفي الزمن الذي لا نحتاج به إليها نمنحها الإذن فتذهب إلى حيث شاءت، ومتى صارت ذات بعل هي التي تهيئ جهازها لنفسها، ثم إنها إذا لم تتفق مع زوجها ورغبت في الانفصال عنه فهي بذاتها تبحث عن محل لها.

وأما الجارية فليست من هذا القبيل لأنها متى صارت زوجة ولم تستطع أن تعيش مع زوجها ورغبت في أن تنفصل عنه أتت توا إلى منزل سيدها كأنما هي آتية إلى منزل أبيها وحينئذ يترتب على سيدها أن يتحرى لها على زوج ملائم فيزوجها به تكرارا والأسياد هم الذين يتولون حماية أولاد جواريهم ويساعدونهم في تعليمهم وتدريسهم، وكل جارية تشاهد من زوجها ظلما تشكو أمرها إلى سيدها الذي يدافع عنها فإذا توفي زوجها ولم يترك ميراثا كافيا لإدارتها تأتي بأولادها إلى منزل سيدها نظير هاته الجارية المعتوقة التي ترينها من هذه النافذة قابضة على يد ولدها الصغير وطائفة به في فناء الدار لأنه متى عجزت الجارية المعتوقة عن القيام بإدارة نفسها وجب شرعا على معتقها أيا كان أن ينفق عليها فإذا امتنع أكرهه القاضي على ذلك. وبعكس الأمر إذا توفيت جارية بلا عب عن ثروة طائلة كان لمانحها الحرية - أيا كان - نصيب من الإرث فينتج من ذلك أن الجواري معدودات من أخصاء العائلة تماما وزيادة عما تقدم أننا نأتمن الجواري على مفاتيح خزائننا ونسلمهن إياها م ع أننا لا نأتمن الخدم عليها بالكلية، فإن الجواري لا يركبن غارب الخيانة لأن بين الجارية وسيدها صلة ورابطة كبيرة بهذا المقدار، حتى أن الجارية لا يمكن أن تخون مولاها إلا إذا كان الأولاد يخونون والديهم فإذا مرض سيدها بذلت روحها وقلبها في سبيل خدمته مخافة أن تفقده، وكان مثلها في هذا الأمر مثل الأولاد الذين تأخذهم الرعدة والمخاوف من فقد وضياع أمهم وأبيهم ثم هي إذا

أصابها ألم في الرأس حصلت عناية سيدها على مثل ما عاملته تماما، ومع أن للجواري المعتوقات كل الحرية في الذهاب إلى أني شئن فلم يتفق." (١)

"ص -٥١٩- يجب عليه غسل ما لامس ثيابه وفرشه وفراءه ؟ وهي مرتبطة بتلك المقاود . وآلة الدواب لا تخلو من النجاسات، وقد تكون في بعض الأوقات المقاود رطبة من بول أو بلل، ويمسكها بيده، ويلمس بيده ثيابه، وقد تكون في الصيف يده عرقانة . فهل يعفي عن جميع ذلك ؟ وإن عفي عنه في السفر هل يكون عفوا له في الحضر، أم يجب غسل ما ذكر ؟ فإن الكثير من الناس لا يغسلون . والأقل من الناس يعتنون بالغسل ؟ وهل كان الصحابة يغسلون من ذلك، أم يتجاوزون ؟ وهل يكون الغسل من ذلك بخلاف السنة ؟ والغرض متابعة الصحابة وما كانوا عليه .

وفي الرجل، إذا مس ثوبه القصاب أو يده وعليه شيء من الدسم غسل ما أصابه منه . فهل هو في ذلك مصيب ؟ أو هذا وسواس ؟ وفي الرجل أيضا يصلي إلى جانبه قصاب في المسجد فيقول مكان هذا القصاب غير طاهر؛ لأن القصابين لا يتحرزون من النجاسة في أبدانهم وثيابهم، وإذا صافحه قصاب غسل يده ؟ وكذلك إذا مسه الطواف باللحم غسل ما أصابه منه . فهل هو مخطئ ؟ وما الحكم في ذلك ؟ وما الذي كانت عليه الصحابة ؟

وفي الرجل يأكل الشرائح **وقد جرت العادة بأن** عمالها لا يغسلون اللحم فهل يحرم أكلها أو يكره ؟ لكون القصابين يذبحون بسكين." (٢)

"وعلى هذا فالزيادة في الجسم الذي هو الطول والعرض وهو القدر، وعلى الأول فالزيادة في نفس المقدر الموصوف.

وقد يقال: هذا الثوب له جسم، أي: غلظ وثخن، ولا يسمى الهواء جسما، ولا النفس الخارج من فم (١) الإنسان ونحو ذلك عندهم (٢) جسما.

وأما أهل الكلام والفلسفة فالجسم عندهم أعم من ذلك، كما أن لفظ " الجوهر " في اللغة أخص من معناه في اصطلاحهم، فإنهم يعنون بالجوهر ما قام بنفسه أو المتحيز أو ما إذا وجد كان وجوده لا في موضع (٣) ، أي: لا في محل يستغني عنه ؛ والجوهر في اللغة الجوهر المعروف.

---

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور زينب فواز ص/٣٧٥

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، /٤٧

ثم قد يعبرون عن الجسم بأنه ما يشار إليه، أو ما يقبل (٤) الإشارة الحسية بأنه هنا أو هناك، وقد يعبرون عنه بما قبل الأبعاد الثلاثة: الطول والعرض والعمق، أو بما كان فيه الأبعاد الثلاثة: الطول والعرض والعمق (٥) .

ولفظ البعد: الطول (٦) والعرض والعمق في اصطلاحهم أعم من

---

(١) ن) ن فقط) : نفس.

(٢) عندهم: ساقطة من (أ) ، (ب) .

(٣) ن، م: موضوع.

(٤) ن: أو لا يقبل، وهو خطأ.

(٥) يقول ابن سينا: (الشفاء، قسم الإلهيات ٦١/١، ط. وزارة الثقافة والإرشاد) : " وأما تحقيقه وتعريفه **فقد جرت العادة بأن** يقال: إن الجسم جوهر طويل عريض عميق ".

(٦) أ، ب: والطول.." (١)

"سلمه عمر إلى علي والعباس - رضي الله عنهم - يليانه ويفعلان فيه ما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يفعله. وهذا مما يوجب انتفاء التهمة (١) عنهما في ذلك.

الوجه الحادي عشر: أن يقال: **قد جرت العادة بأن** الظلمة من الملوك إذا تولوا بعد غيرهم من الملوك الذين أحسنوا إليهم أو ربوهم (٢) ، وقد انتزعوا الملك من بيت ذلك الملك، استعطفوهم وأعطوهم ليكفوا عنهم منازعتهم، فلو قدر - والعياذ بالله - أن أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - متغلبان متوثبان، لكانت العادة تقضي (٣) بأن يزاحما الورثة المستحقين للولاية والتركة [في المال] (٤) ، بل يعطيانهم ذلك وأضعافه؛ ليكفوا عن المنازعة في الولاية. وأما منع الولاية والميراث بالكلية فهذا لا يعلم (٥) أنه فعله أحد من الملوك، وإن كان من أظلم الناس وأفجرهم. فعلم أن الذي فعلوه مع النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر خارج عن العادة (٦) الطبيعية في الملوك، كما هو خارج عن العادات الشرعية في المؤمنين، وذلك لاختصاصه - صلى الله عليه وسلم - بما لم يخص الله به غيره من ولاة الأمور وهو النبوة (٧) ؛ إذ الأنبياء لا يورثون.

---

(١) منهاج السنة النبوية ابن تيمية ١٩٩/٢

(١) أ، ب: التهم.

(٢) ن: أورثوهم، وهو تحريف.

(٣) ر، ص، هـ: تقتضي.

(٤) في المال: ساقطة من (ن) ، (م) . وفي (ر) ، (ص) : والشركة في الملك، وفي (هـ) : والتركة في الملك.

(٥) أ، ب: لا نعلم.

(٦) أ، ب، م: العادات.

(٧) أ، ب: وهو الأنزه، وهو تحريف.." (١)

"الزجاج: الدين يجمعهم فهم إخوة إذا كانوا متفقين في دينهم فرجعوا بالاتفاق في الدين إلى أصل النسب، لأنهم لآدم وحواء، قال بعضهم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

ولنعم ما قيل:

القوم إخوان صدق بينهم سبب ... من المودة لم يعدل به نسب

وذلك أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة لم ينقص عنها ثم **قد جرت العادة على** أنه إذا نشأ مثل ذلك بين الأخوين ولادا لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته بالصلح بينهما، فالأخوة في الدين أحق بذلك.

(فأصلحوا بين أخويكم) يعني بين كل مسلمين تخاصما وتقاتلا، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر مضافا إلى المأمورين بالإصلاح، للمبالغة في التقرير والفاء للإيذان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح أو تخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فرقهما بطريق الأولى لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين، قرأ الجمهور على التثنية، قال أبو علي الفارسي في توجيهها: أراد بالأخوين الطائفتين، لأن لفظ التثنية قد يرد ويراد به الكثرة، وقال أبو عبيدة: أي أصلحوا بين كل أخوين، وقرىء إخوانكم بالجمع وقرىء أخوتكم بالفوقية على الجمع أيضا.

---

(١) منهاج السنة النبوية ابن تيمية ٤/٢٢١

(واتقوا الله) في كل أموركم (لعلكم ترحمون) بسبب التقوى، والترجي باعتبار المخاطبين أي راجين أن يرحموا، أو لعل من الله في هذا المقام." (١)

"سورة مريم

اعلم أنَّ حروف المُعْجمِ على نوعين : ثُنائي ، وثُلاثي ، **وقد جرت العادةُ –** عادةُ العرب – أن ينطقُوا بالثنائيَّات المقطوعة ممالة ، فيقولوا : بَا ، تَا ، ثَا ، وكذلك أمثالها ، وأن ينطقوا بالثلاثيَّات التي في وسطها الألف مفتوحة مشبعة ، فيقولون : دال ذال ، صاد ، ضاد ، وكذلك أشكالها.

أما الزَّازي وحدُه من بين حُروف المعجم ، فمعتادٌ فيه الأمران ، ؛ فإنَّ من أظهر ياءَه في النُّطْق حتَّى يصير ثلاثيًّا ، لم يُمِلْه ، ومن لم يظهر ياءه في النطق ؛ حتَّى يشبه الثنائيَّ ، أماله.

واعلم أنَّ إشباع الفتحة في جميع المواضع أصلٌ ، والإمالة فرعٌ عليه ؛ ولذلك يجوزُ إشباعُ كُلِّ ممالٍ ، ولا يجوز كُلُّ مُشْبَعٍ من المفتوحات.

والعامَّة على تسكين أواخر هذه الأحرفُ المقطعة ، لذلك كان بعضُ القرَّاء يقفُ على كُلِّ حرفٍ منها وقفة يسيرة كبالغة في تمييز بعضها من بعض.

وقرأ [الحسن ["كافُ " [و " ها "] وتفخيمهما ، وبعضهم يُعبِّر عن التفخيم بالضمِّ ، كما يعبِّر عن الإمالةِ بالكسر ، وإنما ذكرته ؛ لأنَّ عبارتهم في ذلك مُوهمةٌ.

وأزهر دال " صاد " قبل ذالِ " ذكرُ " نافعٌ ، وابن كثير ، واعاصم ؛ لن الأصل ، وأدغمها فيها الباقون.

والمشهورُ إخفاء نون " عَيْن " قبل الصَّاد ؛ لأنها تقاربها ، ويشتركان في الفمِ ، وبعضها يظهرها ؛ لأنها حروفٌ مقطعةٌ يقصدون تمييز بعضها من بعض.

٣

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٣

قوله : ﴿ذِكْرُ﴾ : فيه ثلاثة أوجه : الأول : أنه مبتدأ محذوف الخبر ، تقديره : فيما يتلى عليكم ذكر.

الثاني : أنه خبر محذوف المبتدأ ، تقديره : أو هذا ذكر.

الثالث : أنه خبر الحروف المقطَّعة ، وهو قول يحيى بن زياد ، قال أبو البقاء " وفيه بعدٌ ؛ لأنَّ الخبر هو المبتدأ في المعنى ، وليس في الحروف المقطَّعة ذكرُ الرحمة ، ولا في ذكر الرحمة معناها ".

و " ذِكْرُ " مصدرٌ مضافٌ ؛ قيل : إلى مفعوله ، وهو الرحمة في نفسها مصدرٌ أيضاً مضافٌ إلى فاعله ، و

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٤٢/١٣

" عَبدَهُ " مفعولٌ به ، والناصبُ له نفسُ الرحمةِ ، ويكون فاعلُ الذِّكرِ غير مذكورٍ لفظاً ، والتقدير : أن ذكر الله ورحمته عبدهُ ، وقيل : بل " ذِكْرُ " مضافٌ إلى فاعله على الاتِّساع ، ويكون " عبدهُ " منصوباً بنفس الذِكْر ، والتقدير : أن ذكرت الرحمة عبدُه ، فجعل الرحمة ذاكرةً له مجازاً.
و " زَكَرِيَّا " بدلٌ ، أو عطفُ بيانٍ ، أو منصوبٌ بإضمار " أعْنِي ".
وقرأ يحيى بن يعمر - ونقلها الزمخشريّ عن الحسن - " ذَكَّرَ " فعلاً ماضياً مشدداً ، و " رحمة " بالنصب على أنها مفعولٌ ثانٍ ، قدمت على الأول ، وهو " عَبْدُهُ " والفاعلُ : إما ضمير القرآن ، أو ضمير الباري تعالى ، والتقدير : أن ذكَّر القرآنُ المتلُوُّ - أو ذكَّر الله - عبده رحمتُه ، أي : جعل العبد يذكرُ رحمته ، ويجوز على المجازِ المتقدِّم أن " رحمةَ ربِّك " هو المفعول الأول ، والمعنى : أنَّ الله جعل الرحمة ذاكرةً للعبد ، وقيل : الأصلُ : ذكَّر برحمةِ ، فلما انتزع الجارُّ نصب مجروره ، ولا حاجة إليه.
وقرأ الكلبيُّ " ذكر " بالتخفيف ماضياً " رَحْمَةَ " بالنصب على المفعول به ، " عَبْدُهُ " بالرفع فاعلاً بالفعل قبله ، " زَكرِيَّا " بالرفع على البيان ، أو البدل ، أو على إضمار مبتدأ ، وهو نظيرُ إضمار الناصب في القراءة الأولى.
وقرأ يحيى بن يعمر - فيما نقله عنه الدَّاني - " ذَكِّرْ " فعل أمرٍ ، " رَحْمَةَ " و " عَبْدهُ "
٤
بالنصب فيهما على أنهما مفعولان ، وهما على ما تقدَّم من كون كلِّ واحدٍ ، يجوز أن يكون المفعول الأول ، أو الثاني ، بالتأويلِ المتقدّم في جعل الرحمة ذاكرةً مجازاً.
فصل في تأويل هذه الحروف المقطعة قال ابنُ عباسٍ : هذه الحروف اسم من أسماء الله تعالى ، وقال قتادةُ : اسمٌ من أسماء القرآن.
وقيل : اسمٌ للسُّورة.
وقيل : هو قسمٌ أقسم الله به ويروى عن سعيد بن جبيرٍ ، عن ابن عباس في قوله ﴿كاهيعاصا﴾ قال : الكافُ من كريم وكبير ، والماء من هاد ، والياء من رحيم والعين من عليهم ، وعظيم ، والصاد من صادق.
وعن ابن عبَّاس أيضاً أنَّه حمل الياء على الكريم مرَّة ، وعلى الحكيم أخرى.
وعن ابن عباس في العين أنَّه من عزيز من عدل.
قال ابنُ الخطيب : وهذه أقوالٌ ليست قويِّة ؛ لأنَّه لا يجوزُ من الله تعالى أن يودعَ كتابهُ ما لا تدلُّ عليه اللغةُ ، لا بالحقيقةِ ، ولا بالمجازِ ، لأنَّا إن جوَّزنا ذلك ، فتح علينا بابُ قول من يزعم أنَّ لكلِّ أولي

من دلالته على الكريم ، والكبير ، أو على اسم آخر من أسماء الرَّسُول – عليه الصلاة والسلام – أو الملائكة ، أو الجنَّة ، أو النَّار ، فيكون حملها على بعضها دون البعض تَحَكُّماً.
فصل في المراد بقوله تعالى : ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يحتمِلُ أن يكون المراد من قوله ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أنه عنى عبدهُ زكريَّا ، ثم في كونه رحمة وجهان : أحدهما : أن يكون " رحْمة " على أمَّته ؛ لأنَّه هداهُم إلى الإيمان والطَّاعة.
والثاني : أن يكون رحمة على نبيِّنا محمد – عليه الصلاة والسلام – وعلى أمَّته ؛ لأنَّ
ه." (١)

"وقرأ عليٌّ مُجَاهِدٌ . رضي الله عنهما . سُلَفاً . بضم السين.
وفيه وجهان :
٢٨٠
أشهرهما : أنه جمع سُلْفَةٍ كغُرْفَةٍ وغُرَفٍ.
والسُّلْفَة الأُمَّةُ.
وقيل : الأصل سُلُفاً بضمتين ، وإنَّما أبدل من الضمة فتحة.
وقوله : " مَثَلاً " إما مفعول ثان إن كانت بمعنى صير ، وإلاَّ حالاً.
قاق الفراءُ والزجاجُ : جعلناهم متفرقين ليتعظ بهم الآخرون ، وهم كفار أمة محمد . صلى الله عليه وسلم .
والمعنى ومثلاً للآخرِينَ أي عِظة لمن بقي بعدهم وعبرة.
قال أبو علي الفارسي : المَثَلُ واحد يراد به الجمع ، ومن ثم عطف على سلف والدليل على وقوعه (على) أكثر من واحد قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾ [النحل : ٧٥].
فأدخل تحت المَثَل شَيْئَيْن وقيل : المعنى سلفاً لفكار هذه الأمة إلى النار ، ومثلاً لمن يجيء بعدهم.
جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٧٠
قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا﴾ اعلم أنه تعالى ذكر أنواعاً كثيرة من كفراناتهم ، فأولها : قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف : ١٥].
وثانيها : قوله : ﴿وَجَعَلُواْ الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثاً﴾ [الزخرف : ١٩].

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٤٧٢

وثالثها : قوله : ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف : ٢٠].

ورابعها : قوله : ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف : ٣١].

٢٨١

وخامسها : هذه الآية : وليس في لفظها ما يدل على أن ذلك المثللا أي شيء كان والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً : أشهرها : قال ابن عباس وأكثر المفسرين : نزلت الآية في مجادلة عبدالله بن الزِّبَعْرى مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في شأن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما نزل قول الله عز وجل : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء : ٩٨] كما تقدم في سورة الأنبياء.

والمعنى : ولما ضرب عبدالله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً ، وجادل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه " إِذَا قَوْمُكَ " من قريش " مِنْهُ " أي من هذا المثل " يَصِدُّونَ " أي يرتفع لهم ضجيج فرحاً بسبب مارأوا من سكوت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه **قد جرت العادة بأن** أحد الخصْمَيْن إذا انقطع ، أظهر الخصْمُ الثاني الفرحَ والضَّجيجَ.

وقيل : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إِلَهاً لأنفسهم قالت كفار قريش : إن محمداً يريد أن يجعل نفسه لنا إلهاً كما جعل النصارى المسيح إِلَهاً لأنفسهم فعند هذا قالوا : ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ فعند ذلك قالوا : إن محمداً يدعونا لعبادة نفسه وآباؤنا زعموا أنه يجبُ عبادة هذه الأصنام وإذا كان لا بد من عبادة أحد هذين فعبادة الأصنام أولى ؛ لأن آبائنا وآسلافنا أجمعوا على ذلك ، وأما محمد فإنه متهمٌ في أمرنا بعبادته.

ثم إنه تعالى لم يقل : إن عبادة المسيح طريق حسن ، بل هو كلام باطل ، وأن عيسى ليس إلا عبداً أنْعَمْنَا عَلَيِْ فزالت شبهتهم في قولهم : إن محمداً يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه.

وقيل : إن الكفار لما رأوا النصارى يعبدون عيسى قالوا إذا عبد النصارى عيسى فآلهتنا خير من عيسى فعبدوال الملائكة.

قوله : " يَصُدُّونَ " قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويصدون ـ بضم الصاد ـ والباقون بكسرها ، ـ فقيل : هما بمعنى واحد.

وهو الصحيح واللفظ ، يقال : صَدَّ يَصُدذُ ويَصِدُّ كَعَكَفَ يَعْكُفُ ويَعْكِفُ وعَرَشَ يَعْرُشُ وَيَعْرِشُ.

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) يضْجَرون.

وقال سعيد بن المسيب :

(١) ".

" صفحة رقم ٢٨٩

وفيه تبكيت عظيم لبني إسرائيل فإنهم من أعظم المقصودين بذلك لكتمانهم ما عندهم .

قال الحرالي : لأن المسمين بالناس من أصاغر سن القلوب لما ذكر من نوسهم وأكثر ما يخص به كما تقدم الملوك ورؤساء القبائل وأتباعهم الذين زين لهم حب الشهوات - انتهى .

) في الكتاب) أي الجامع لكل خير قال الحرالي : فما بينه الله سبحانه وتعالى في الكتاب لا يحل كتمه ، لما ذكر من أن الكتاب هو ما احتوى على الأحكام والحدود بخلاف ما يختص بالفرقان أو يعلو إلى رتبة القرآن انتهى .

ولما كان المضارع دالا على التجديد المستمر وكان الإصرار المتصل بالموت دالا على سوء الجبلة أسقط فاء السبب إشارة إلى استحقاقهم للخزي في نفس الأمر من غير نظر إلى سبب فقال : (أولئك) أي البعداء البغضاء) يلعنهم الله) أي يطردهم الملك الأعظم طرد خزب وذل) ويلعنهم اللاعنون) أي كل من يصح منه لعن ؛ أي هم متهيؤن لذلك ثم يقع لهم ذلك بالفعل عند كشف الغطاء ، واللعن إسقاط الشيء إلى أردى محاله حتى يكون في الرتبة لمنزلة الفعل من العامة - قاله الحرالي : وأخص من ذلك وأسهل تناولا أن يقال : لما كان أشق الصبر ما على فقد المحبوب من الألف والأمن والسعة وكان العلم واقعا بأن عداوة الكفار لهم ستؤول إلى ابتلائهم بذلك اتبع آية الصبر بقوله : (ولا تقولوا (الآيتين فكأنه قيل : ولا تقولوا كذا فليكتبن عليكم الجهاد عموما) ولنبلونكم (فيه) بشيء من الخوف (الآية لأن الصفا والمروة من شعائر الله ووصولكم إليهما ممنوع بالكفار فلا بد في الفتح من قتالهم وقد جرت العادة في القتال بمثل ذلك البلاء .

البقرة : (١٦٠ - ١٦٤) إلا الذين تابوا. .. . .

) إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ومآ أنزل الله من السمآء من مآء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٥٠٠

من كل دآبة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السمآء والأرض لآيات لقوم يعقلون (( )
ولما تم أمر القبلة وما استتبعه وختم بشريعة الحج المكتوبة على الناس عامة الأمر لهم بها باني البيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن أمر الله سبحانه وتعالى بقوله إذ قام المقام : يا ايها الناس كتب عليكم الحج فحجوا ، فأجابه من علم الله سبحانه وتعالى أنه." (١)

" صفحة رقم ٣٦٩

يكون لم يسمع قط بدين ولا دعوة نبي ولا عرف نبي أن في العالم من يثبت إلها – وما نرى أن ذلك يكون – فإن كان فأمره على الاختلاف – يعني عند من يوجب الإيمان بمجرد العقل ومن لا يوجبه إلا بانضمام النقل .

وما قاله الحليمي نقل نحوه عن الإمام الشافعي نفسه رضي الله عنه ؛ قال الزركشي في آخر باب الديات من شرحه على المنهاج : وقد أشار الشافعي إلى عسر قصور – أي عدم بلوغ – الدعوة حيث قال : وما أظن أحدا إلا بغته الدعوة إلا أن يكون قوم من وراء النهر بكوننا ، وقال الدميري : وقال الشافعي : ولم يبق من لم تبلغه الدعوة .

ولما أشار إلى عذاب المخالفين ، قرر أسبابه وعرف أنها بقدره ، وأن قدره لا يمنع حقوق العذاب ، لبناء الأمر على ما يتعارفه ذوو العقول بينهم فقال تعالى : (وإذا) أي فنبعث الرسل بأوامرنا ونواهينا ، وإذا أردنا أن نحيي قرية الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة ، ألقينا في قلوب أهلها أمتثال أوامرنا والتقيد باتباع رسلنا ، وإذا) أردنا (وإرادتنا لا تكون إلا عظيمة جدا) أن نهلك) أي بعظمتنا) قرية (في الزمن المستقبل) أمرنا) أي بما لنا من العظمة التي لا يقدر أحد على مخالفتها) مترفيها (الذين لهم الأمر والنهي بالفسق ، أي استدرجناهم بإدرار النعم ودفع النقم على ما يعلمون من المعاصي ، الذي كان – بكونه سببا لبطرهم ومخالفتهم – كالأمر بالفسق) ففسقوا فيها (بعد ما أزال الرسول معاذيرهم بتبليغ الرسالة كما قال تعالى
٧٧ ( ) فلما نسوا ما ذكروا به ( ) ٧
– أي على ألسنة الرسل –
٧٧ ( ) فتحنا عليهما أبواب كل شيء ( ) ٧
[الأنعام : ٤٤] الآية
٧٧ ( ) وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها ليمكروا فيها ( ) ٧

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٨٩/١

[الأنعام : ١٢٣] وخص المترفين لأن غيرهم لهم تبع ، ولأنهم أحق الناس بالشكر وأولى بالانتقام عند الكفر ، ويجوز أن يكون : أمرناهم بأوامرنا ففسقوا فيها ، أي الأوامر بالطاعات التي يعلم قطعا أن أوامرنا تكون بها ولا تكون بغيرها ، لأنا لا نأمر بالفحشاء **وقد جرت العادة بأن** المترف عسر الانقياد ، لا تكاد تسمح نفسه بأن يصير تابعا بعدما كان متبوعا ، فعصوا فتبعهم غيرهم لأن الأصاغر تبع للأكابر فأطبقوا على المعصية فأهلكناهم ، وقرأ يعقوب : آمرنا – بمد الهمزة بمعنى كثرنا ، من آمرت الشيء وأمرته فأمر – إذا كثرته وفي الحديث (خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة) أي كثيرة النتاج ؛ وروى البخاري في التفسير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كنا نقول للحي إذا كثروا في الجاهلية : آمر بنو فلان .

والكثرة راجعة إلى." (١)

" صفحة رقم ٨

وإن عظم) ولى) أي بعد السماع ، مطلق التولي سواء كان على حالة المجانية أو مدبرا) مستكبرا) أي حال كونه طالبا موجدا له بالإعراض عن الطاعة تصديقا لقولنا آخر تلك

٧٧ ( ) ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ( ) ٧

[الروم : ٥٨] .

ولما كان السامع لآياته سبحانه جديرا بأن تكسبه رقة وتواضعا ، قال تعالى دالا على أن هذا الشقي كان حاله عند سماعه وبعده كما كان قبل : (كأن) أي كأنه ، أي مشبها حالة بعد السماع حاله حين) لم يسمعها (فدل ذلك على أنه لم يزل على حالة الكبر لآنه شبه حاله مع السماع بحاله مع عدم السماع ، وقد بين أن حاله مع السماع الاستكبار فكان حاله قبل السماع كذلك .

ولما كان من لم يسمع الشيء قد يكون قابلا للسمع ، فإذا كلم من **قد جرت العادة بأن** يسمع منه سمع ، بين أن حال هذا كما كان مساويا لما قبل التلاوة فهو مساو لما بعدها ، لأن سمعه مشابه لمن به صم ، فالمضارع في (يتلى) مفهم لأن الحال في الاستقبال كهي في الحال فقال تعالى : (كأن في أذنيه وقرا) أي صمما يستوي معه تكليم غيره له وسكوته .

ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل نخوته وكبره وعظمته ، وكان استمرار الألم أعظم كاسر لذوي الشمم ، وكان من طبع الإنسان الاهتزاز لوعد الإحسان كائنا من كان نوه اهتزاز قال : (فبشره (فلما كان جديرا بأن يقبل – لا يولي لظنه البشري – على مرة حتى يظن أو يكاد يقطع بأن المعاصي سبب لذلك وأنه –

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٦٩/٤

لما كان عند الله من عظيم المنزلة – لا يكره منه عمل من الأعمال ، قرعة بقوله : (بعذاب) أي عقاب مستمر) أليم (.

ولما كانت معرفة ما لأحد الجزءين باعثة على السؤال عما للحزب الآخر ، وكانت إجابة السؤال عن ذلك من أتم الحكمة ، استأنف تعالى قوله مؤكدا لأجل إنكار الكفرة : (إن الذين آمنوا (أو اوجدوا الإيمان) وعملوا) أي تصديقا له) الصالحات (وضعا للشيء في محله عملا بالحكمة) لهم جنات) أي بساتين) النعيم (فأفاد سبحانه بإضافتها إليه أنه لا كدر فيها أصلا ولا شيء غير النعيم .

ولما كان ذلك قد لا يكون دائما .

وكان لا سرور بشيء منقطع قال : (خالدين فيها) أي دائما .

ولما كانت الثقة بالوعد على قدر الثقة بالواعد ، وكان إنجاز الوعد من الحكمة ، قال مؤكدا لمضمون الوعد بالجنات : (وعد الله (الذي لا شيء أجل منه ؛ فلا وعد." (١)

"﴿ ٥٩ – ٦٤ ﴾ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ . إلى آخر القصة (١) .

لما ذكر تعالى من أدلة توحيده جملة صالحة، أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده مع أممهم المنكرين لذلك، وكيف أيد اللّه أهل التوحيد، وأهلك من عاندهم ولم يَنْقَدْ لهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد [ص ٢٩٣] ومعتقد واحد، فقال عن نوح – أول المرسلين –: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي: وحده ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ لأنه الخالق الرازق المدبِّر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبَّر، ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب اللّه، فقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أقبح رد.

﴿ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي: الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين **قد جرت العادة باستكبارهم** على الحق، وعدم انقيادهم للرسل، ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ فلم يكفهم – قبحهم اللّه – أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالا مبينا واضحا لكل أحد.

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/٦

وهذا من أعظم أنواع المكابرة، التي لا تروج على أضعف الناس عقلا وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاءوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئا، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات، فلولا أن لهم أذهانا تقوم بها حجة اللّه عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأعقل، فرد نوح عليهم ردا لطيفا، وترقق لهم لعلهم ينقادون له فقال: ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ ﴾ أي: لست ضالا في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه، أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربى جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلا تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها، ولهذا قال: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيده وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون.

﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله؟" فهذه الحال من عناية اللّه بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر، وقوله: ﴿ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي: لينذركم العذاب الأليم، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى اللّه ظاهرا وباطنا، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة اللّه الواسعة.

فلم يفد فيهم، ولا نجح ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ أي: السفينة التي أمر اللّه نوحا عليه الصلاة والسلام بصنعتها، وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات، زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، فحملهم فيها ونجاهم اللّه بها.

﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم اللّه – على يد نوح – من الآيات البينات، ما بهم يؤمن أولوا الألباب، فسخروا منه، واستهزءوا به وكفروا.

---

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة.." (١)

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٩٢

"﴿ ٦١ ﴾ ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن منته على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج بل يسره غاية التيسير، فقال: ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ أي: ليس على هؤلاء جناح، في ترك الأمور الواجبة، التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر الأعمى، أو سلامة الأعرج، أو صحة للمريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه، أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد، كما قيد قوله: ﴿ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي: حرج ﴿ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ أي: بيوت أولادكم، وهذا موافق للحديث الثابت: " أنت ومالك لأبيك " والحديث الآخر: " إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم " وليس المراد من قوله: ﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي ينزه عنه كلام الله، ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه فليس فيه أدنى توهم.

﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ ﴾ وهؤلاء معروفون، ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ أي: البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة، أو ولاية ونحو ذلك، وأما تفسيرها بالمملوك، فليس بوجيه، لوجهين: أحدهما: أن المملوك لا يقال فيه " ملكت مفاتحه " بل يقال: " ما ملكتموه " أو " ما ملكت أيمانكم " لأنهم مالكون له جملة، لا لمفاتحه فقط.

والثاني: أن بيوت المماليك، غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه، لأن المملوك وما ملكه لسيده، فلا وجه لنفي الحرج عنه.

﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ وهذا الحرج المنفي عن الأكل (١) من هذه البيوت كل ذلك، إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق، فإن هؤلاء المسمين (٢) **قد جرت العادة والعرف**، بالمسامحة في الأكل منها، لأجل القرابة القريبة، أو التصرف التام، أو الصداقة، فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح في الأكل المذكور، لم يجز الأكل، ولم يرتفع الحرج، نظرا للحكمة والمعنى.

وقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ فكل ذلك جائز، أكل أهل البيت الواحد جميعا، أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفي للحرج، لا نفي للفضيلة وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام.

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا ﴾ نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا فإذا دخلها الإنسان ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي: فليسلم بعضكم على بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص واحد، من توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت، من غير فرق بين بيت وبيت، والاستئذان تقدم أن فيه تفصيلا في أحكامه، ثم مدح هذا السلام فقال: ﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [ص ٥٧٦] أي: سلامكم بقولكم: " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " أو " السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين " إذ تدخلون البيوت، ﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم، ﴿ مُبَارَكَةً ﴾ لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة، ﴿ طَيِّبَةً ﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة وجلب مودة.

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة قال:

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ عنه فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد في العقل، وينمو به اللب، لكون معانيها أجل المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فـكما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهي: أن " العرف والعادة مخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ " فإن الأصل، أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.

وفيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره، لأن الله سمى بيته بيتا للإنسان.

وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.

وفيها دليل، على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين، أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

(١) في ب: من.

(٢) مراد الشيخ –رحمه الله– فإن بيوت هؤلاء المسمين، كما يبدو –والله أعلم–.." [1]

"﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أي: قاصدا بوجهه مدين، وهو جنوبي فلسطين، حيث لا ملك لفرعون، ﴿ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي: وسط الطريق المختصر، الموصل إليها بسهولة ورفق، فهداه اللّه سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ﴾ أي: دون تلك الأمة ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ غنمهما عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهم، وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿ قَالَ ﴾ لهما موسى ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي: ما شأنكما بهذه الحالة، ﴿ قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ أي: **قد جرت العادة أنه** لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا، ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة، نقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء.

فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه اللّه تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ مستريحا لذلك الظلال بعد التعب.

﴿ فَقَالَ ﴾ في تلك الحالة، مسترزقا ربه ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعيا ربه متملقا. وأما المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى.

فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصا في النساء.

ويدل على أن موسى عليه السلام، لم يكن فيما فعله من السقي بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحى منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما أوجب لها الحياء منه، فـ ﴿ قَالَتْ ﴾ له: ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أي: لا لِيمُنَّ عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٧٥

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلى أن وصل إليه ﴿ قَالَ ﴾ مسكنا روعه، جابرا قلبه: ﴿ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: ليذهب خوفك وروعك، فإن الله نجاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم عليه سلطان.

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ أي: إحدى ابنتيه ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ أي: اجعله أجيرا عندك، يرعى الغنم ويسقيها، ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأمِينُ ﴾ أي: إن موسى أولى من استؤجر، فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر، من جمعهما، أي: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان، ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملا بإجارة أو غيرها.

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك، لأنها شاهدت من قوة موسى عند [ص ٦١٥] السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى.

﴿ قَالَ ﴾ صاحب مدين لموسى ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ﴾ أي تصير أجيرا عندي ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ أي: ثماني سنين. ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك. ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالا شاقة، وإنما استأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح، ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره.

ف ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام -مجيبا له فيما طلبه منه-: ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ أي: هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك. ﴿ أَيَّمَا الأجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدنا عليه.

وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا، قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيبا عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟

وأيضا، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟" ولو كان ذلك الرجل شعيبا، لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضا فإن شعيبا عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاذ الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى

يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب، ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادما له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم، [إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي صلى اللّه عليه وسلم] (١)

---

(١) زيادة من هامش: ب.." (١)

"﴿ ١ - ٦ ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ وَيْلٌ ﴾ كلمة عذاب، ووعيد (١) ﴿ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾

وفسر الله المطففين بقوله (٢) ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أي: أخذوا منهم وفاء عما ثبت لهم قبلهم ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ يستوفونه كاملا من غير نقص.

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ ﴾ أي: إذا أعطوا الناس حقهم، الذي للناس (٣) عليهم بكيل أو وزن، ﴿ يُخْسِرُونَ ﴾ أي: ينقصونهم ذلك، إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان، أو نحو ذلك. فهذا سرقة [لأموال] الناس (٤) ، وعدم إنصاف [لهم] منهم.

وإذا كان هذا الوعيد (٥) على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قهرًا أو سرقة، أولى بهذا الوعيد من المطففين.

ودلت الآية الكريمة، على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في [عموم هذا] (٦) الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين **قد جرت العادة أن** كل واحد [منهما] يحرص على ماله من الحجج، فيجب عليه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجج (٧) [التي لا يعلمها]، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.

ثم توعد تعالى المطففين، وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه، فقال: ﴿ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فالذي جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم يقومون بين يدى الله، يحاسبهم (٨) على القليل والكثير، لأقلعوا عن

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦١٤

ذلك وتابوا منه.

---

(١) في ب: وعقاب

(٢) في ب: بأنهم.

(٣) في ب: لهم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: سرقة للناس.

(٥) في ب: وعيدًا.

(٦) في ب: يدخل في ذلك.

(٧) في ب: الحجة.

(٨) في ب: أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم.." (١)

". . . . .

= ناله منها ما شغله عن حاله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: رفع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يديه –يعني يوم بدر– فقال: "يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا" فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين. ثم ذكر الإمام ابن كثير عدة روايات بهذا المعنى ثم قال: وقد روي في هذه القصة عن عروة عن مجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم بدر اهـ. واذ قد تبين معنى الآية وسبب نزولها فإنه لا يصح حملها على كل رمية أو كل فعل صادر من كل إنسان.

فإن قيل: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب!

فالجواب: أن عموم اللفظ هنا ليس أفعال الإنسان كلها، بل كل رمية بلغت ذلك المبلغ، وأثرت ذلك التأثير.

الثانية: مذهب أهل السنة والجماعة في أفعال العباد أن قدرة العبد لها أثر في فعله كأثر الأسباب في مسبباتها فهو الموجد لفعله باختياره، والله تعالى هو خالق أفعال العبد باعتبار أن خالق الأسباب هو خالق

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩١٥

مسبباتها، فالسحاب -مثلا- سبب المطر، والماء سبب الإنبات، **وقد جرت العادة أنه** لولا السحاب ما نزل الماء، ولولا الماء ما حصل الإنبات، ومع ذلك فالله تعالى هو المنزل للماء، المنبت للشجر، فكذلك قدرة العبد هي سبب فعله، والله تعالى خالق العبد وخالق فعله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية "مجموع الفتاوى" ٨/ ٤٨٧: الذي عليه السلف وأتباعهم وأئمة أهل السنة وجمهور أهل الإسلام المثبتون للقدر المخالفون للمعتزلة: إثبات الأسباب، وأن قدرة العبـد مع فعله لها تأثير سائر الأسباب في مسبباتها، والله تعالى خلق الأسباب والمسببات.

وقد أحسن إمام الحرمين الجويني المنتسب للمذهب الأشعري في عرض قول أهل السنة والرد على أئمة المذهب الأشعري حيث قال: الركن الأول في قدرة العبد وتأثيرها في مقدورها، فنقول: قد تقرر عند كل حاظ بعقله، مرقى عن مراتب =." (١)

"القراءة، وهو مذهب مالك (١)، وداود (٢)، كأنهم أخذوا بظاهر الآية (٣)، وذلك جهل بمقاييس العربية (٤).

= ولا إله غيرك"، ثم يقول: "الله أكبر كبيرا"، ثم يقول: "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه" ثم يقرأ. وقد أخرجه أبو داود (٧٧٥) كتاب: الصلاة، باب: من رأى الاستفتاح بسبحانك، والترمذي (٢٤٢) كتاب: أبواب الصلاة، باب: ما يقول عند افتتاح الصلاة، [قال عمر -رضي الله عنه-: همزه الموتة؛ وهي الجنون، نفخه: الكبر، نفثه: الشعر. "تفسير البغوي" ٥/ ٤٢].

(١) وقد استغرب ابن العربي نسبة هذا القول إلى مالك، وقال هذه دعوى عريضة لا تشبه أصول مالك ولا فهمه، والله أعلم بسر هذه الرواية. انظر: "تفسير ابن العربي" ٣/ ١١٧٦.

(٢) داود بن علي بن خلف الأصبهاني، أبو سليمان، فقيه حافظ، أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام، وإليه ينسب المذهب الظاهري، وكان فاضلا صدوقا ورعا، سمع من إسحاق بن راهويه ومسدد بن مسرهد، وعنه: ابنه محمد ويوسف ابن يعقوب، من مصنفاته: "الإفصاح"، "الأصول"، ولد بالكوفة سنة (٢٠٢ هـ) وسكن بغداد، ومات سنة (٢٧٠ هـ). انظر: "الفهرست" ص ٢٩٩، و"الأنساب" للسمعاني ٤/ ٩٩، و"وفيات الأعيان" ٢/ ٢٥٥، و"تذكرة الحفاظ" ٢/ ٥٧٣.

(٣) لا شك أن ظاهر الآية يقتضي ذلك، ولكنه مدفوع ومفسر بفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٠/ ٧١

الجصاص: يقتضي ظاهره أن تكون الاستعاذة بعد القراءة، ولكنه قد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن السلف الاستعاذة قبل القراءة، **وقد جرت العادة بإطلاق** مثله. انظر: "تفسير الجصاص" ٢/ ١٩١، و"المحلى" ٣/ ٣٥٠، و"تفسير الكيالهراسي" ٤/ ١٧٥، ومن توجيهات القائلين بهذا القول، أن الاستعاذة بعد القراءة هي لوقاية العمل من الحبوط، إذ ربما أورث حسن القراءة العجب في نفس القارئ، والعجب من الشيطان، فكان من المناسب أن يؤمر بالاستعاذة منه. انظر: "تفسير ابن كثير" ٤/ ١٤ - ٤٧.

(٤) عبارته هذه قاسية، ولا يليق وصف الصحابة وأئمة الأمة بالجهل.." (١)

"وأولى الأقاويل أن قوله: ﴿تتخذون منه سكرا﴾ منسوخ، روي عن ابن عباس قال: "السكر" [ما حرم]

(١) من ثمرها، و"الرزق الحسن": ما أحل.

وقال أبو عبيدة: "السكر": الطعم، يقال هذا سكر لك أي: طعم (٢).

﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾

﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (٦٩) ﴾

﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ أي: ألهمها وقذف في أنفسها، ففهمته، والنحل: زنابير العسل، واحدتها نحلة. ﴿أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون﴾ يبنون، **وقد جرت العادة أن** أهلها يبنون لها الأماكن، فهي تأوي إليها، قال ابن زيد: هي الكروم. ﴿ثم كلي من كل الثمرات﴾ ٢٠١/أليس معنى الكل العموم، وهو كقوله تعالى: "وأوتيت من كل شيء" (النمل-٢٣).

﴿فاسلكي سبل ربك ذللا﴾ قيل: هي نعت الطرق، يقول: هي مذللة للنحل سهلة المسالك.

قال مجاهد: لا يتوعر عليها مكان سلكته.

وقال آخرون: الذلل نعت النحل، أي: مطيعة منقادة بالتسخير. يقال: إن أربابها ينقلونها من مكان إلى مكان ولها يعسوب إذا وقف وقفت وإذا سار سارت.

﴿يخرج من بطونها شراب﴾ يعني: العسل ﴿مختلف ألوانه﴾ أبيض وأحمر وأصفر. ﴿فيه شفاء للناس﴾ أي: في العسل. وقال مجاهد: أي في القرآن، والأول أولى.

أنبأنا إسماعيل بن عبد القاهر، حدثنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٣/١٩٣

إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن المثنى، أخبرنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي المتوكل، عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) ساقط من "ب".

(٢) انظر: زاد المسير: ٤ / ٢٦٤.." (١)

"علي: ليس مذهب ابن عيينة بالقوي، لأنهن لو بلغن ما بلغن، لم تجز شهادتهن إلا أن يكون معهن رجل، ولأن الضلال هاهنا: النسيان، فينبغي أن يقابل بما يعادله، وهو التذكير.

قوله تعالى: ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا، قال قتادة: كان الرجل يطوف في الحواء «١» العظيم، فيه القوم فيدعوهم إلى الشهادة فلا يتبعه منهم أحد، فنزلت هذه الآية. وإلى ماذا يكون هذا الدعاء؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: إلى تحمل الشهادة، وإثباتها في الكتاب، قاله ابن عباس، وعطية، وقتادة، والربيع. والثاني: إلى إقامتها وأدائها عند الحكام بعد أن تقدمت شهادتهم بها، قاله سعيد بن جبير، وطاوس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والشعبي، وأبو مجلز، والضحاك، وابن زيد، ورواه الميموني عن أحمد بن حنبل. والثالث: إلى تحملها وإلى أدائها، روي عن ابن عباس، والحسن، واختاره الزجاج، قال القاضي أبو يعلى: إنما يلزم الشاهد أن لا يأبى إذا دعي لإقامة الشهادة إذا لم يوجد من يشهد غيره، فأما إن كان قد تحملها جماعة، لم تتعين عليه، وكذلك في حال تحملها، لأنه فرض على الكفاية كالجهاد، فلا يجوز لجميع الناس الامتناع منه.

قوله تعالى: ولا تسئموا، أي: لا تملوا ولا تضجروا أن تكتبوا القليل والكثير الذي **قد جرت العادة بتأجيله** إلى أجله، أي: إلى محل أجله ذلكم أقسط عند الله، أي: أعدل، وأقوم للشهادة لأن الكتاب يذكر الشهود جميع ما شهدوا عليه وأدنى أي: أقرب ألا ترتابوا أي: لا تشكوا إلا أن تكون الأموال تجارة أي: إلا أن تقع تجارة. وقرأ عاصم «تجارة» بالنصب على معنى:

إلا أن تكون الأموال تجارة حاضرة، وهي البيوع التي يستحق كل واحد منهما على صاحبه تسليم ما عقد عليه من جهته بلا تأجيل. فأباح ترك الكتاب فيها توسعة، لئلا يضيق عليهم أمر تبايعهم في مأكول ومشروب.

قوله تعالى: وأشهدوا إذا تبايعتم، الإشهاد مندوب إليه فيما جرت العادة بالإشهاد عليه.

فصل: وهذه الآية تتضمن الأمر باثبات الدين في كتاب، وإثبات شهادة في البيع والدين.

---

(١) تفسير البغوي – طيبة البغوي ، أبو محمد ٥/٢٩

واختلف العلماء، هل هذا أمر وجوب «٢» ، أم على وجه الاستحباب؟ فذهب الجمهور إلى أنه أمر ندب واستحباب، فعلى هذا هو محكم، وذهبت طائفة إلى أن الكتابة والإشهاد واجبان، روي عن ابن عمر وأبي موسى ومجاهد وابن سيرين وعطاء والضحاك وأبي قلابة والحكم وابن زيد. ثم اختلف هؤلاء، هل هذا الحكم باق أم منسوخ؟ فذهب أكثرهم إلى أنه محكم غير منسوخ، وذهبت طائفة إلى أنه منسوخ بقوله تعالى: فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته.

قوله تعالى: ولا يضار كاتب ولا شهيد، قرأ أبو جعفر بتخفيف الراء من «يضار» وسكونها.

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: إن معناه: لا يضار بأن يدعى وهو مشغول، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، والربيع بن أنس، والفراء، ومقاتل. وقال الربيع: كان أحدهم

---

(١) في «اللسان» : الحواء: جماعة بيوت الناس إذا تدانت، والجمع الأحوية. [.....]

(٢) قال الحافظ ابن كثير ١/ ٣٣٦ عند هذه الآية وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب لا على الوجوب.." (١)

"[سورة هود (١١) : آية ٢٣]

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون (٢٣)

اعلم أنه تعالى لما ذكر عقوبة الكافرين وخسرانهم، أتبعه بذكر أحوال المؤمنين، والإخبات هو الخشوع والخضوع وهو مأخوذ من الخبت وهو الأرض المطمئنة وخبت ذكره أي خفي، / فقوله: «أخبت» أي دخل في الخبت، كما يقال فيمن صار إلى نجد أنجد وإلى تهامة أتهم، ومنه المخبت من الناس الذي أخبت إلى ربه أي اطمأن إليه، ولفظ الإخبات يتعدى بإلى وباللام، فإذا قلنا: أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه، وإذا قلنا أخبت له فمعناه خشع له.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إشارة إلى جميع الأعمال الصالحة، وقوله وأخبتوا إشارة إلى أن هذه الأعمال لا تنفع في الآخرة إلا مع الأحوال القلبية ثم إن فسرنا الإخبات بالطمأنينة كان المراد أنهم يعبدون الله وكانت قلوبهم عند أداء العبادات مطمئنة بذكر الله فارغة عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى أو يقال إنما قلوبهم صارت مطمئنة إلى صدق الله بكل ما وعدهم من الثواب والعقاب، وأما إن فسرنا الإخبات بالخشوع كان معناه أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفين وجلين من أن يكونوا أتوا

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢٥٢/١

بها مع وجود الإخلال والتقصير، ثم بين أن من حصل له هذه الصفات الثلاثة فهم أصحاب الجنة، ويحصل لهم الخلود في الجنة.

[سورة هود (١١) : آية ٢٤]

مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون (٢٤)

واعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين ذكر فيهما مثالا مطابقا ثم اختلفوا فقيل: إنه راجع إلى من ذكر آخرا من المؤمنين والكافرين من قبل، وقال آخرون: بل رجع إلى قوله: أفمن كان على بينة من ربه [هود: ١٧] ثم ذكر من بعده الكافرين ووصفهم بأنهم لا يستطيعون السمع ولا يبصرون، والسميع والبصير هم الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم.

واعلم أن وجه التشبيه هو أنه سبحانه خلق الإنسان مركبا من الجسد ومن النفس، وكما أن للجسد بصرا وسمعا فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر، وكما أن الجسد إذا كان أعمى أصم بقي متحيرا لا يهتدي إلى شيء من المصالح، بل يكون كالتائه في حضيض الظلمات لا يبصر نورا يهتدي به ولا يسمع صوتا، فكذلك الجاهل الضال المضل، يكون أعمى وأصم القلب، فيبقى في ظلمات الضلالات حائرا تائها.

ثم قال تعالى: أفلا تذكرون منبها على أنه يمكنه علاج هذا العمى وهذا الصمم، وإذا كان/ العلاج ممكنا من الضرر الحاصل بسبب حصول هذا العمى وهذا الصمم وجب على العاقل أن يسعى في ذلك العلاج بقدر الإمكان.

واعلم أنه **قد جرت العادة بأنه** تعالى إذا ورد على الكافر أنواع الدلائل أتبعها بالقصص، ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل على ما قررنا هذا المعنى في مواضع كثيرة، وفي هذه السورة ذكر أنواعا من القصص.." (١)

"أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم ورابعها: قوله: فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها، فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى وخامسها: وهو أقوى الوجوه/ أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس [المائدة: ٦٧] فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين

---

(١) تفسير الرازي = م فاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٣٥/١٧

الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب أن جمعا من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة، ولنشرع الآن في التفصيل فنقول التمني جاء في اللغة لأمرين: أحدهما: تمني القلب والثاني: القراءة قال الله تعالى: ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني [البقرة: ٧٨] أي إلا قراءة لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف وإنما يعلمه قراءة، وقال حسان:

تمنى كتاب الله أول ليلة ... وآخرها لاقى حمام المقادر

قيل إنما سميت القراءة أمنية لأن القارئ إذا انتهى إلى آية رحمة تمنى حصولها وإذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها، وقال أبو مسلم التمني هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية وفاة الإنسان في الوقت الذي قدره الله تعالى، ومنى الله لك أي قدر لك. وقال رواة اللغة الأمنية القراءة واحتجوا ببيت حسان، وذلك راجع إلى الأصل الذي ذكرناه فإن التالي مقدر للحروف ويذكرها شيئا فشيئا، فالحاصل من هذا البحث أن الأمنية، إما القراءة، وإما الخاطر، أما إذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان: الأول: أنه تعالى أراد بذلك ما يجوز أن يسهو الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ويشتبه على القارئ دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى الثاني: المراد منه وقوع هذه الكلمة في قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه: الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد تكلم به لكنه عليه السلام لما قرأ سورة النجم اشتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظه ما رووه من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب إليه جماعة وهو ضعيف لوجوه: أحدها: أن التوهم في مثل ذلك إنما يصح فيما **قد جرت العادة بسماعه** فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه وثانيها: أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فإن العادة مانعة من اتفاق الجم العظيم في الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد في المحسوسات وثالثها: لو كان كذلك لم يكن مضافا إلى الشيطان الوجه الثاني: قالوا إن ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بأن تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أوقعه في درج تلك التلاوة في بعض وقفاته ليظن أنه من جنس الكلام المسموع من الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا والذي يؤكده أنه لا خلاف في أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يأتي الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات في أثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فإذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول وما رأوا شخصا آخر ظن الحاضرون أنه كلام/ الرسول، ثم هذا لا يكون قادحا في النبوة لما لم يكن فعلا

له، وهذا أيضا ضعيف فإنك إذا جوزت أن يتكلم في أثناء الشيطان كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بما يشتبه على كل السامعين كونه كلاما للرسول بقي هذا الاحتمال في كل ما يتكلم به الرسول فيفضي إلى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع فإن قيل هذا الاحتمال قائم في." (١)

"باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول السلام عليكم، وذلك لأن الدور لم يكن عليها حينئذ ستور.

السؤال السادس: أن كلمة (حتى) للغاية والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ما قبلها فقوله: لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا يقتضي جواز الدخول بعد الاستئذان وإن لم يكن من صاحب البيت إذن فما قولكم فيه؟ الجواب: من وجوه: أحدها: أن الله تعالى جعل الغاية الاستئناس لا الاستئذان، والاستئناس لا يحصل إلا إذا حصل الإذن بعد الاستئذان وثانيها: أنا لما علمنا بالنص أن الحكمة في الاستئذان أن لا يدخل الإنسان على غيره بغير إذنه فإن ذلك مما يسوءه، وعلمنا أن هذا المقصود لا يحصل إلا بعد حصول الإذن، علمنا أن الاستئذان ما لم يتصل به الإذن وجب أن لا يكون كافيا وثالثها: أن قوله تعالى: فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم فحظر الدخول إلا بإذن، فدل على أن الإذن مشروط بإباحة الدخول في الآية الأولى، فإن قيل إذا ثبت أنه لا بد من الإذن فهل يقوم مقامه غيره أم لا؟ قلنا

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رسول الرجل إلى الرجل إذنه»

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إذا دعي أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن»

وهذا الخبر يدل على معنيين أحدهما: أن الإذن محذوف من قوله: حتى تستأنسوا وهو المراد منه والثاني: أن الدعاء إذن إذا جاء مع الرسول وأنه لا يحتاج إلى استئذان ثان، وقال بعضهم إن من **قد جرت العادة له** بإباحة الدخول فهو غير محتاج إلى الاستئذان.

السؤال السابع: ما حكم من اطلع على دار غيره بغير إذنه؟ الجواب: قال الشافعي رحمه الله: لو فقئت عينه فهي هدر، وتمسك بما

روى سهل بن سعد قال: «اطلع رجل في حجرة من حجر النبي صلى الله عليه وسلم ومعه مدرى يحك بها رأسه فقال: لو علمت أنك تنظر إلي لطعنت بها في عينك إنما الاستئذان قبل النظر»

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من/ اطلع في دار قوم بغير إذنهم ففقؤوا عينه

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣/٢٣٨

فقد هدرت عينه»

قال أبو بكر الرازي: هذا الخبر يرد لوروده على خلاف قياس الأصول، فإنه لا خلاف أنه لو دخل داره بغير إذنه ففقأ عينه كان ضامنا وكان عليه القصاص إن كان عامدا والأرش إن كان مخطئا، ومعلوم أن الداخل قد اطلع وزاد على الاطلاع، فظاهر الحديث مخالف لما حصل عليه الاتفاق، فإن صح فمعناه: من اطلع في دار قوم ونظر إلى حرمهم ونسائهم فمونع فلم يمتنع فذهبت عينه في حال الممانعة فهي هدر، فأما إذا لم يكن إلا النظر ولم يقع فيه ممانعة ولا نهي، ثم جاء إنسان ففقأ عينه، فهذا جان يلزمه حكم جنايته لظاهر قوله تعالى: العين بالعين إلى قوله: والجروح قصاص [المائدة: ٤٥] واعلم أن التمسك بقوله تعالى: والعين بالعين في هذه المسألة ضعيف، لأنا أجمعنا على أن هذا النص مشروط بما إذا لم تكن العين مستحقة، فإنها لو كانت مستحقة لم يلزم القصاص، فلم قلت: إن من اطلع في دار إنسان لم تكن عينه مستحقة؟ وهذا أول المسألة.

أما قوله: إنه لو دخل لم يجز فقوء عينه، فكذا إذا نظر قلنا الفرق بين الأمرين ظاهر، لأنه إذا دخل علم القوم دخوله عليهم فاحترزوا عنه وتستروا، فأما إذا نظر فقد لا يكونون عالمين بذلك فيطلع منهم على ما لا يجوز الاطلاع عليه، فلا يبعد في حكم الشرع أن يبالغ هاهنا في الزجر حسما لباب هذه المفسدة، وبالجملة فرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا القدر من الكلام غير جائز.

السؤال الثامن: لما بينتم أنه لا بد من الإذن فهل يكفي الإذن كيف كان أو لا بد من إذن مخصوص؟." (١)

"أنه قادر على أن ينزل آية يذلون عندها ويخضعون، فإن قيل: كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق؟

قلنا أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين، فذكرت الأعناق لبيان موضع الخضوع، ثم ترك الكلام على أصله، ولما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء، قيل خاضعين كقوله: لي ساجدين [يوسف: ٤] ، وقيل أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما يقال هم الرؤوس والصدور، وقيل هم جماعات الناس، يقال جاءنا عنق من الناس لفوج منهم.

المسألة الرابعة: نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الكهف [٦] : فلعلك باخع نفسك وقوله: فلا تذهب نفسك عليهم حسرات [فاطر: ٨] .

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٥٨/٢٣

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٥ الى ٩]
وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين (٥) فقد كذبوا فسيأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزؤن (٦) أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم (٧) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (٨) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (٩)
وفيه مسائل:
المسألة الأولى: قوله: وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين من تمام قوله: إن نشأ ننزل عليهم [الشعراء: ٤] فنبه تعالى على أنه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالإلجاء رحيم بهم من حيث يأتيهم حالا بعد حال بالقرآن، وهو الذكر ويكرره عليهم وهم مع ذلك على حد واحد في الإعراض والتكذيب والاستهزاء، ثم عند ذلك زجر وتوعد لأن المرء إذا استمر على كفره فليس ينفع فيه إلا الزجر الشديد فلذلك قال: فقد كذبوا أي بلغوا النهاية/ في رد آيات الله تعالى فسيأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزؤن وذلك إما عند نزول العذاب عليهم في الدنيا أو عند المعاينة أو في الآخرة، فهو كقوله تعالى: ولتعلمن نبأه بعد حين [ص: ٨٨] **وقد جرت العادة فيمن** يسيء أن يقال له سترى حالك من بعد على وجه الوعيد، ثم إنه تعالى بين أنه مع إنزاله القرآن حالا بعد حال قد أظهر أدلة تحدث حالا بعد حال فقال: أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم والزوج هو الصنف [من النبات] «١» والكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه، يقال وجه كريم إذا كان مرضيا في حسنه وجماله. وكتاب كريم إذا كان مرضيا في فوائده ومعانيه، والنبات الكريم هو المرضي فيما يتعلق به من المنافع، وفي وصف الزوج بالكريم وجهان: أحدهما: أن النبات على نوعين نافع وضار، فذكر سبحانه كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وترك ذكر الضار والثاني: أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعا بالكرم، ونبه على أنه ما أنبت شيئا إلا وفيه فائدة إن غفل عنها الغافلون.
أما قوله: إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين فهو كقوله: هدى للمتقين [البقرة: ٢] والمعنى أن في ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أي مع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم، فأما

---

(١) زيادة من الكشاف ٣/ ١٠٥ ط. دار الفكر.." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٩١/٢٤

"[الزخرف: ٢٠] ورابعها: قوله وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف: ٣١]
وخامسها: هذه الآية التي نحن الآن في تفسيرها، ولفظ الآية لا يدل إلا على أنه لما ضرب ابن مريم مثلا أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم، فأما أن ذلك المثل كيف كان، وفي أي شيء كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوها كلها محتملة فالأول: أن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون/ عيسى قالوا إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعبدون الملائكة الثاني:
روي أنه لما نزل قوله تعالى: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم [الأنبياء: ٩٨] قال عبد الله بن الزبعرى هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «بل لجميع الأمم» فقال خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيرا وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيرا والملائكة يعبدون، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم «١» فسكت النبي صلى الله عليه وسلم وفرح القوم وضحكوا وضجوا، فأنزل الله تعالى: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون [الأنبياء: ١٠١]
ونزلت هذه الآية أيضا والمعنى، ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلا وجادل رسول الله بعبادة النصارى إياه إذا قومك قريش منه أي من هذا المثل يصدون أي يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحا وجدلا وضحكا بسبب ما رأوا من إسكات رسول الله فإنه **قد جرت العادة بأن** أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج، وقالوا أآلهتنا خير أم هو يعنون أن آلهتنا عندك ليس خيرا من عيسى فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون الوجه الثالث: في التأويل وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلها لأنفسهم، قال كفار مكة إن محمدا يريد أن يجعل لنا إلها كما جعل النصارى المسيح إلها لأنفسهم، ثم عند هذا قالوا أآلهتنا خير أم هو يعني أآلهتنا خير أم محمد، وذكروا ذلك لأجل أنهم قالوا: إن محمدا يدعونا إلى عبادة نفسه، وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام، وإذا كان لا بد من أحد هذين الأمرين فعبادة هذه الأصنام أولى، لأن آباءنا وأسلافنا كانوا متطابقين عليه، وأما محمد فإنه متهم في أمرنا بعبادته فكان الاشتغال بعبادة الأصنام أولى، ثم إنه تعالى بين أنا لم نقل إن الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن بل هو كلام باطل، فإن عيسى ليس إلا عبدا أنعمنا عليه، فإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم في قولهم: إن محمدا يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه، فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية.
المسألة الثانية: قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم

يصدون بضم الصاد وهو قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام

والباقون بكسر الصاد وهي قراءة ابن عباس، واختلفوا فقال الكسائي هما بمعنى نحو يعرشون ويعرشون ويعكفون، ومنهم من فرق، أما القراءة بالضم فمن الصدود، أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه، وأما بالكسر فمعناه يضجون.

المسألة الثالثة: قرأ عاصم وحمزة والكسائي أآلهتنا استفهاما بهمزتين الثانية مطولة والباقون استفهاما بهمزة ومدة.

---

(١)

الرواية المشهورة: أن الرسول صلى الله عليه وسلم رد عليه عند ذلك بقوله لابن الزبعرى «ما أجهلك بلغة قومك ما لما لا يعقل» ،

وحينئذ فلا تقع على الذين اتخذهم الكفار آلهة من الأنبياء والملائكة والصالحين وإنما عنى من الأصنام التي عبدوها.." (١)

"تعالى: وإن خفتم شقاق بينهما أي فراق بينهما في الاختلاف حتى يشق أحدهما على الآخر.

البحث الثاني: قوله: وإن تولوا فإنما هم في شقاق أي إن تركوا مثل هذا الإيمان فقد التزموا المناقضة والعاقل لا يلتزم المناقضة البتة فحيث التزموها علمنا أنه ليس غرضهم طلب الدين/ والانقياد للحق وإنما غرضهم المنازعة وإظهار العداوة ثم للمفسرين عبارات. أولها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: فإنما هم في شقاق في خلاف مذ فارقوا الحق وتمسكوا بالباطل فصاروا مخالفين لله. وثانيها: قال أبو عبيدة ومقاتل في شقاق. أي في ضلال. وثالثها: قال ابن زيد في منازعة ومحاربة. ورابعها: قال الحسن في عداوة قال القاضي: ولا يكاد يقال في المعاداة على وجه الحق أو المخالفة التي لا تكون معصية إنه شقاق وإنما يقال ذلك في مخالفة عظيمة توقع صاحبها في عداوة الله وغضبه ولعنه وفي استحقاق النار فصار هذا القول وعيدا منه تعالى لهم وصار وصفهم بذلك دليلا على أن القوم معادون للرسول مضمرون له السؤال مترصدون لإيقاعه في المحن، فعند هذا آمنه الله تعالى من كيدهم وآمن المؤمنين من شرهم ومكرهم فقال: فسيكفيكهم الله تقوية لقلبه وقلب المؤمنين لأنه تعالى إذا تكفل بالكفاية في أمر حصلت الثقة به قال المتكلمون: هذا إخبار عن الغيب فيكون معجزا دالا على صدقه وإنما قلنا إنه إخبار عن الغيب وذلك لأنا وجدنا مخبر هذا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٣٩/٢٧

القول على ما أخبر به لأنه تعالى كفاه شر اليهود والنصارى ونصره عليهم حتى غلبهم المسلمون وأخذوا ديارهم وأموالهم فصاروا أذلاء في أيديهم يؤدون إليهم الخراج والجزية أو لا يقدرون البتة على التخلص من أيديهم وإنما قلنا: إنه معجز لأنه المتخرص لا يصيب في مثل ذلك على التفصيل، قال الملحدون: لا نسلم أن هذا معجز وذلك لأن المعجز هو الذي يكون ناقضا للعادة، **وقد جرت العادة بأن** كل من كان مبتلى بإيذاء غيره فإنه يقال له: اصبر فإن الله يكفيك شره، ثم قد يقع ذلك تارة ولا يقع أخرى، وإذا كان هذا معتادا فكيف يقال: إنه معجز وأيضا لعله توصل إلى ذلك برؤيا رآها، وذلك مما لا سبيل إلى دفعه، فإن المنجمين يقولون: من كان سهم الغيب في طالعه فإنه يأتي بمثل هذه الأخبار وإن لم يكن نبيا. والجواب: أنه ليس غرضنا من قولنا أنه معجز أن هذا الإخبار وحده معجز، بل غرضنا أن القرآن يشتمل على كثير من هذا النوع، والإخبار عن الأشياء الكثيرة على سبيل التفصيل مما لا يتأتى من المتخرص الكاذب.

[في معنى وهو السميع العليم] ثم إنه تعالى لما وعده بالنصرة والمعونة أتبعه بما يدل على أن ما يسرون وما يعلنون من هذا الأمر لا يخفى عليه تعالى فقال: وهو السميع العليم وفيه وجهان. الأول: أنه وعيد لهم والمعنى أنه يدرك ما يضمرون ويقولون وهو عليم بكل شيء فلا يجوز لهم أن يقع منهم أمر إلا وهو قادر على كفايته إياهم فيه.

الثاني: أنه وعد للرسول عليه السلام يعني: يسمع دعاءك ويعلم نيتك وهو يستجيب لك ويوصلك إلى مرادك، واحتج الأصحاب بقوله: وهو السميع العليم على أن سمعه تعالى زائد على علمه بالمسموعات لأن قوله:

«عليم» بناء مبالغة فيتناول كونه عالما بجميع المعلومات، فلو كان كونه سميعا عبارة عن علمه بالمسموعات لزم التكرار وأنه غير جائز، فوجب أن يكون صفة كونه تعالى سميعا أمرا زائدا على وصفه بكونه عليما والله أعلم بالصواب.

أما قوله: بمثل ما آمنتم به ففيه إشكال وهو أن الذي آمن به المؤمنون ليس له مثل، وجوابه.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٣٨]

صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون (١٣٨)." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤/٧٤

"الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الإخوة لم ينقص عنها ثم **قد جرت العادة على** أنه إذا نشب مثل ذلك بين الاخوين ولا الزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته بالصلح بينهما فالاخوة في الدين احق

﴿واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾

بذلك أخوتكم يعقوب ﴿واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ أي واتقوا الله فالتقوى تحملكم على التواصل والائتلاف وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم مرجوا والآية تدل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان لأنه سماهم مؤمنين مع وجود البغي." (١)

"وأوحى ربك إلى النحل لما ذكر الله سبحانه وتعالى دلائل قدرته، وعجائب صنعته الدالة على وحدانيته من إخراج اللبن من بين فرث، ودم وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل، والأعناب ذكر في هذه الآية إخراج العسل الذي جعله شفاء للناس من دابة ضعيفة، وهي النحلة فقال سبحانه وتعالى وأوحى ربك إلى النحل الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به كل فرد من الناس ممن له عقل، وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وأنه الخالق لجميع الأشياء المدبر لها بلطيف حكمته، وقدرته وأصل الوحي الإشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز، والتعريض وقد يكون بصوت مجرد ويقال للكلمة الإلهية التي يلقيها الله إلى أنبيائه وحي وإلى أوليائه إلهام وتسخير الطير لما خلق له ومنه قوله تعالى «وأوحى ربك إلى النحل» يعني أنه سخرها لما خلقها له، وألهمها رشدها وقدر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر، وذلك أن النحل تبني بيوتا على شكل مسدس من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة، أو غير ذلك من الأشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فألهمها الله سبحانه وتعالى، أن تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل وفرجة خالية ضائعة وألهمها الله تعالى أيضا أن تجعل عليها أميرا كبيرا نافذ الحكم فيها وهي تطيعه، وتمتثل أمره ويكون هذا الأمير أكبرها جثة وأعظمها خلقة ويسمى يعسوب النحل يعني ملكها كذا حكاه الجوهري وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضا أنها تخرج من بيوتها، فتدور وترعى ثم ترجع إلى بيوتها، ولا تضل عنها. ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة، الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الإلهام الإلهي فكان ذلك شبيها بالوحي، فلذلك قال تبارك وتعالى: وأوحى ربك إلى النحل، والنحل زنبور العسل ويسمى الدبر أيضا، قال الزجاج:

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣/٣٥٣

يجوز أن يقال سمي هذا الحيوان نحلا لأن الله سبحانه وتعالى، نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها بمعنى أعطاهم. وقال غيره: النحل يذكر ويؤنث وهي مؤنثة في لغة الحجاز، وكذا أنثها الله تعالى فقال أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون يعني يبنون ويثقفون وذلك أن النحل منه وحشي، وهو الذي يسكن الجبال والشجر ويأوي إلى الكهوف ومنه أهلي وهو الذي يأوي إلى البيوت، ويربيه الناس **وقد جرت العادة أن** الناس يبنون للنحل الأماكن حتى تأوي إليها، وقال ابن زيد: أراد بالذي يعرشون الكروم ثم كلي من كل الثمرات يعني من بعض الثمرات لأنها لا تأكل من جميع الثمار فلفظة كل هاهنا ليست للعموم فاسلكي سبل ربك يعني الطرق التي ألهمك الله أن تسلكيها، وتدخلي فيها لأجل طلب الثمرات ذللا قيل إنها نعت للسبل يعني أنها مذللة لك الطرق مسهلة لك مسالكها. قال مجاهد: لا يتوعر عليها مكان تسلكه. وقيل: الذلل نعت للنحل يعني أنها مذللة مسخرة لأربابها مطيعة منقادة لهم حتى أنهم ينقلونها من مكانها إلى مكان آخر حيث شاؤوا! وأرادوا لا تستعصي عليهم يخرج من بطونها شراب يعني العسل مختلف ألوانه يعني ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل. وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والأزهار، ويستحيل في بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب، وزعم الإمام فخر الدين الرازي أنه رأى في بعض كتب الطب، أن العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الأزهار، وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه، وتدخر بعضه في بيوتها لأنفسها للتغذى به فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير، فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب إلى العقل لأن طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل، وأيضا فإنا نشاهد أن النحل تتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى: يخرج من بطونها بأن كل تجويف في داخل البدن يسمى بطنا، فقوله: يخرج من بطونها يعني من أفواهها، وقول أهل الظاهر أولى وأصح لأنا نشاهد أنه يوجد في طعم العسل طعم تلك الأزهار التي تأكلها النحل، وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضا، ويعضد هذا قول بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم له: أكلت مغافير؟ قال: لا. قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: سقتني حفصة شربة." (١)

"اعلم أن حروف المعجم على نوعين: ثنائي، وثلاثي، **وقد جرت العادة** – عادة العرب – أن ينطقوا بالثنائيات المقطوعة ممالة، فيقولوا: با، تا، ثا، وكذلك أمثالها، وأن ينطقوا بالثلاثيات التي في وسطها الألف مفتوحة مشبعة، فيقولون: دال ذال، صاد، ضاد، وكذلك أشكالها.

أما الرازي وحده من بين حروف المعجم، فمعتاد فيه الأمران،؛ فإن من أظهر ياءه في النطق حتى يصير

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٨٦/٣

ثلاثيا، لم يمله، ومن لم يظهر ياءه في النطق؛ حتى يشبه الثنائي، أماله.

واعلم أن إشباع الفتحة في جميع المواضع أصل، والإمالة فرع عليه؛ ولذلك يجوز إشباع كل ممال، ولا يجوز كل مشبع من المفتوحات.

والعامة على تسكين أواخر هذه الأحرف المقطعة، لذلك كان بعض القراء يقف على كل حرف منها وقفة يسيرة كبالغة في تمييز بعضها من بعض.

وقرأ [الحسن] «كاف» [و «ها»] وتفخيمهما، وبعضهم يعبر عن التفخيم بالضم، كما يعبر عن الإمالة بالكسر، وإنما ذكرته؛ لأن عبارتهم في ذلك موهمة.

وأزهر دال «صاد» قبل ذال «ذكر» نافع، وابن كثير، واعاصم؛ لن الأصل، وأدغمها فيها الباقون.

والمشهور إخفاء نون «عين» قبل الصاد؛ لأنها تقاربها، ويشتركان في الفم، وبعضها يظهرها؛ لأنها حروف مقطعة يقصدون تمييز بعضها من بعض.." (١)

"وخامسها: هذه الآية: وليس في لفظها ما يدل على أن ذلك المثللا أي شيء كان والمفسرون ذكروا فيه وجوها:

أشهرها: قال ابن عباس وأكثر المفسرين: نزلت الآية في مجادلة عبد الله بن الزبعرى مع النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام لما نزل قول الله عز وجل: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨] كما تقدم في سورة الأنبياء.

والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلا، وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه «إذا قومك» من قريش «منه» أي من هذا المثل «يصدون» أي يرتفع لهم ضجيج فرحا بسبب مارأوا من سكوت النبي صلى الله عليه وسلم فإنه **قد جرت العادة بأن** أحد الخصمين إذا انقطع، أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج.

وقيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلها لأنفسهم قالت كفار قريش: إن محمدا يريد أن يجعل نفسه لنا إلها كما جعل النصارى المسيح إلها لأنفسهم فعند هذا قالوا: ﴿أآلهتنا خير أم هو﴾ فعند ذلك قالوا: إن محمدا يدعونا لعبادة نفسه وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام وإذا كان لا بد من عبادة أحد هذين فعبادة الأصنام أولى؛ لأن آبائنا وآسلافنا أجمعوا على ذلك، وأما محمد فإنه متهم في أمرنا بعبادته. ثم إنه تعالى لم يقل: إن عبادة المسيح طريق حسن، بل هو

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٣/٣

كلام باطل، وأن عيسى ليس إلا عبدا أنعمنا علي فزالت شبهتهم في قولهم: إن محمدا يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه.

وقيل: إن الكفار لما رأوا النصارى يعبدون عيسى قالوا إذا عبد النصارى عيسى فآلهتنا خير من عيسى فعبدوال الملائكة.

قوله: «يصدون» قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويصدون بضم الصاد والباقون بكسرها، فقيل: هما بمعنى واحد. وهو الصحيح واللفظ، يقال: صد يصدذ ويصد كعكف يعكف ويعكف وعرش يعرش ويعرش.

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) يضجرون. وقال سعيد بن المسيب:." (١)

"من العلماء هذه الحكاية وبالغوا في الإنكار وطعنوا في الرواة، وقال بعض: إنها من وضع الزنادقة وهي أنه عليه السلام تمني أن يأتيه من ربه ما يقرب بينه وبين قومه رجاء أن يسلموا، فكان يوما في محضر قريش إذ أنزل عليه سورة " والنجم " فأخذ يقرأها، فلما بلغ ومناة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان في قراءته فسبق لسانه: سهوا أو تكلم الشيطان فحسب أن القارئ رسول الله أو نام نومة فجرى على لسانه تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فلما وصل قراءته إلى السجدة سجد فسجد من في النادي من المسلم والمشرك، وفرح المشركون فأتاه جبريل وقال: ماذا صنعت؟! لقد تلوت ما لم آتك به عن الله فحزن حزنا وخاف خوفا فعزاه الله بتلك الآية يعني: ما أنت بأوحدي بهذا، بل مكنا الشيطان ليلقي في أمانيهم كما ألقى في أمانيك ابتلاء منا ليزيد المنافقون شكا وظلمة، والمؤمنون يقينا ونورا (١)، (فينسخ الله): يزيل ويبطل، (ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته): يثبتها بحيث لا تشتبه بكلام غيره، (والله عليم حكيم): فيما يفعل، (ليجعل)، أي: مكنا الشيطان منه ليجعل، (ما يلقي الشيطان فتنة): ضلالة، (للذين في قلوبهم مرض): شك ونفاق، (والقاسية قلوبهم): المشركين فإنهم لما سمعوا نسخ قول الشيطان ازدادوا غيظا وظنوا أنه ندم مما ألقى من عند نفسه، (وإن الظالمين): المنافقين والمشركين، (لفي

---

(١) قال الإمام فخر الدين الرازي ما نصه:

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى إعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على إيمانهم فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٨٢/١٧

شيء ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة والنجم إذا هوى [النجم: ١] فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى [النجم: ١٩، ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه «تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى» فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبي أحيحة سعيد بن العاصي فإنهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها إلى/ جبهتيهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فقال ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت ما لم أقل لك؟! فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله خوفا عظيما حتى نزل قوله تعالى: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته الآية.

هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول. أما القرآن فوجوه: أحدها: قوله تعالى: ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين [الحاقة: ٤٤ – ٤٦]، وثانيها: قوله: قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي [يونس: ١٥] وثالثها: قوله: وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلى لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال وذلك لا يقوله مسلم ورابعها: قوله تعالى: وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا [الإسراء: ٧٣] وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل وخامسها: قوله: ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا [الإسراء: ٧٤] وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل وسادسها: قوله: كذلك لنثبت به فؤادك [الفرقان: ٣٢]. وسابعها: قوله: سنقرئك فلا تنسى [الأعلى: ٦]. وأما السنة فهي ما روي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال هذا وضع من الزنادقة وصنف فيه كتابا. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسن البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم، وأيضا فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي عليه السلام قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق. وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرانيق. وأما

المعقول فمن وجوه: أحدها: أن من جوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان وثانيها: أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنا أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه وإنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلا أو في أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم وثالثها: أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجدا مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم ورابعها: قوله: فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها، فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى وخامسها: وهو أقوى الوجوه/ أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس [المائدة: ٦٧] فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب أن جمعا من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة، ولنشرع الآن في التفصيل فنقول التمني جاء في اللغة لأمرين: أحدهما: تمني القلب والثاني: القراءة قال الله تعالى: ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني [البقرة: ٧٨] أي إلا قراءة لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف وإنما يعلمه قراءة، وقال حسان:

تمنى كتاب الله أول ليلة ... وآخرها لاقى حمام المقادر

قيل إنما سميت القراءة أمنية لأن القارئ إذا انتهى إلى آية رحمة تمنى حصولها وإذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها، وقال أبو مسلم التمني هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية وفاة الإنسان في الوقت الذي قدره الله تعالى، ومنى الله لك أي قدر لك. وقال رواة اللغة الأمنية القراءة واحتجوا ببيت حسان، وذلك راجع إلى الأصل الذي ذكرناه فإن التالي مقدر للحروف ويذكرها شيئا فشيئا، فالحاصل من هذا البحث أن الأمنية، إما القراءة، وإما الخاطر، أما إذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان: الأول: أنه تعالى أراد بذلك ما يجوز أن يسهو الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ويشتبه على القارئ دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى الثاني: المراد منه وقوع هذه الكلمة في قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه: الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد تكلم به لكنه

عليه السلام لما قرأ سورة النجم اشتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظه ما رووه من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب إليه جماعة وهو ضعيف لوجوه: أحدها: أن التوهم في مثل ذلك إنما يصح فيما **قد جرت العادة بسماعه** فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه وثانيها: أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فإن العادة مانعة من اتفاق الجم العظيم في الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد في المحسوسات وثالثها: لو كان كذلك لم يكن مضافا إلى الشيطان الوجه الثاني: قالوا إن ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بأن تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أوقعه في درج تلك التلاوة في بعض وقفاته ليظن أنه من جنس الكلام المسموع من الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا والذي يؤكده أنه لا خلاف في أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يأتي الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات في أثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فإذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول وما رأوا شخصا آخر ظن الحاضرون أنه كلام/ الرسول، ثم هذا لا يكون قادحا في النبوة لما لم يكن فعلا له، وهذا أيضا ضعيف فإنك إذا جوزت أن يتكلم في أثناء الشيطان كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بما يشتبه على كل السامعين كونه كلاما للرسول بقي هذا الاحتمال في كل ما يتكلم به الرسول فيفضي إلى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع فإن قيل هذا الاحتمال قائم في الكل ولكنه لو وقع لوجب في حكمة الله تعالى أن يشرح الحال فيه كما في هذه الواقعة إزالة للتلبيس، قلنا لا يجب على الله إزالة الاحتمالات كما في المتشابهات وإذا لم يجب على الله ذلك تمكن الاحتمال من الكل الوجه الثالث: أن يقال المتكلم بذلك بعض شياطين الإنس وهم الكفرة فإنه عليه السلام لما انتهى في قراءة هذه السورة إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته أنه يعيبها فقال بعض من حضر تلك الغرانيق العلى فاشتبه الأمر على القوم لكثرة لغط القوم وكثرة صياحهم وطلبهم تغليطه وإخفاء قراءته، ولعل ذلك كان في صلاته لأنهم كانوا يقربون منه في حال صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها، وقيل إنه عليه السلام كان إذا تلا القرآن على قريش توقف في فصول الآيات فألقى بعض الحاضرين ذلك الكلام في تلك الوقفات فتوهم القوم أنه من قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أضاف الله تعالى ذلك إلى الشيطان لأنه بوسوسته يحصل أولا ولأنه سبحانه جعل ذلك المتكلم في نفسه شيطانا وهذا أيضا ضعيف لوجهين: أحدهما: أنه لو كان كذلك لكان يجب على الرسول صلى الله عليه وسلم إزالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل وإظهار أن هذه الكلمة منه صدرت وثانيهما: لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالنقل، فإن قيل إنما لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك

لأنه كان قد أدى السورة بكمالها إلى الأمة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤديا إلى التلبيس كما يؤدي سهوه في الصلاة بعد أن وصفها إلى اللبس، قلنا إن القرآن لم يكن مستقرا على حالة واحدة في زمان حياته لأنه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسور فلم يكن تأدية تلك السورة بدون هذه الزيادة سببا لزوال اللبس، وأيضا فلو كان كذلك لما استحق العتاب من الله تعالى على ما رواه القوم الوجه الرابع: هو أن المتكلم بهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه فإنه إما أن يكون قال هذه الكلمة سهوا أو قسرا أو اختيارا أما الوجه الأول: وهو أنه عليه السلام قال هذه الكلمة سهوا فكما يروى عن قتادة ومقاتل أنهما قالا إنه عليه السلام كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من في المسجد وفرح المشركون بما سمعوه وأتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه، فلما انتهى إلى الغرانيق قال لم آتك بهذا، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن نزلت هذه الآية وهذا ضعيف أيضا لوجوه: أحدها: أنه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع وثانيها: أن الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها، فإنا نعلم بالضرورة أن واحدا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها وثالثها: هب أنه تكلم/ بذلك سهوا، فكيف لم ينبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر أما الوجه الثاني: وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك قسرا وهو الذي قال قوم إن الشيطان أجبر النبي صلى الله عليه وسلم على أن يتكلم بهذا فهذا أيضا فاسد لوجوه: أحدها: أن الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي عليه السلام لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز في أكثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك بإجبار الشياطين وثانيها: أن الشيطان لو قدر على هذا الإجبار لارتفع الأمان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال وثالثها: أنه باطل بدلالة قوله تعالى حاكيا عن الشيطان وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى: إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه [النحل: ٩٩، ١٠٠] وقال: إلا عبادك منهم المخلصين [الحجر: ٤٠] ولا شك أنه عليه السلام كان سيد المخلصين أما الوجه الثالث: وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك اختيارا فههنا وجهان:

أحدهما: أن نقول إن هذه الكلمة باطلة والثاني: أن نقول إنها ليست كلمة باطلة أما على الوجه الأول فذكروا فيه طريقين: الأول:

قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء إن شيطانا يقال له الأبيض أتاه على صورة جبريل عليه السلام

وألقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم فجاء جبريل عليه السلام فاستعرضه فقرأها فلما بلغ إلى تلك الكلمة قال جبريل عليه السلام أنا ما جئتك بهذه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أتاني آت على صورتك فألقاها على لساني

الطريق الثاني: قال بعض الجهال إنه عليه السلام لشدة حرصه على إيمان القوم أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها، وهذان القولان لا يرغب فيهما مسلم البتة لأن الأول يقتضي أنه عليه السلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث والثاني يقتضي أنه كان خائنا في الوحي وكل واحد منهما خروج عن الدين أما الوجه الثاني: وهو أن هذه الكلمة ليست باطلة فههنا أيضا طرق الأول: أن يقال الغرانيق هم الملائكة وقد كان ذلك قرآنا منزلا في وصف الملائكة. فلما توهم المشركون أنه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته الثاني: أن يقال المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار، فكأنه قال: أشفاعتهن ترتجى؟ الثالث: أن يقال إنه ذكر الإثبات وأراد النفي كقوله تعالى: يبين الله لكم أن تضلوا [النساء: ١٧٦] أي لا تضلوا كما قد يذكر النفي ويريد به الإثبات كقوله تعالى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا [الأنعام: ١٥١] والمعنى أن تشركوا، وهذان الوجهان الأخيران يعترض عليهما بأنه لو جاز ذلك بناء على هذا التأويل فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر في جملة القرآن أو في الصلاة بناء على هذا التأويل، ولكن الأصل في الدين أن لا يجوز عليهم شيء من ذلك لأن الله تعالى قد نصبهم حجة واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم ما يطعن في ذلك أو ينفر، ومثل ذلك في التنفير أعظم من الأمور التي حثه الله تعالى على تركها كنحو لفظاظة والكتابة وقول الشعر فهذه الوجوه المذكورة/ في قوله تلك الغرانيق العلا قد ظهر على القطع كذبها، لهذا كله إذا فسرنا التمني بالتلاوة. وأما إذا فسرناها بالخاطر وتمني القلب فالمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم متى تمنى بعض ما يتمناه من الأمور يوسوس الشيطان إليه بالباطل ويدعوه إلى ما لا ينبغي ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه إلى ترك الالتفات إلى وسوسته، ثم اختلفوا في كيفية تلك الوسوسة على وجوه: أحدها: أنه يتمنى ما يتقرب به إلى المشركين من ذكر آلهتهم بالثناء قالوا إنه عليه السلام كان يحب أن يتألفهم وكان يردد ذلك في نفسه فعند ما لحقه النعاس زاد تلك الزيادة من حيث كانت في نفسه وهذا أيضا خروج عن الدين وبيانه ما تقدم وثانيها: ما قال مجاهد من أنه عليه السلام كان يتمنى إنزال الوحي عليه على سرعة دون تأخير فنسخ الله ذلك بأن عرفه بأن إنزال ذلك بحسب المصالح في الحوادث والنوازل وغيرها وثالثها: يحتمل أنه عليه السلام عند نزول الوحي كان يتفكر في تأويله إن كان مجملا فيلقي الشيطان في جملته ما لم يرده، فبين تعالى أنه ينسخ ذلك بالإبطال ويحكم ما أراده الله تعالى بأدلته وآياته ورابعها:

معنى الآية (إذا تمنى) إذا أراد فعلا مقربا إلى الله تعالى ألقى الشيطان في فكره ما يخالفه فيرجع إلى الله تعالى في ذلك وهو كقوله تعالى: إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون [الأعراف: ٢٠١] وكقوله: وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله [الأعراف: ٢٠٠] ومن الناس من قال لا يجوز حمل الأمنية على تمني القلب لأنه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر ببال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة للكفار وذلك يبطله قوله تعالى: ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، والجواب: لا يبعد أنه إذا قوي التمني اشتغل الخاطر به فحصل السهو في الأفعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة للكفار فهذا آخر القول في هذه المسألة. اهـ (مفاتيح الغيب ٢٣/ ٢٣٧ - ٢٤١)." (١)

"القرآن مبارك بينه في مواضع متعددة من كتابه، كقوله تعالى في «الأنعام» : وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون [٦ \ ١٥٥] وقوله فيها أيضا: وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه [٦ \ ٩٢] وقوله تعالى في «ص» : كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب [٣٨ \ ٢٩] إلى غير ذلك من الآيات، فنرجو الله تعالى القريب المجيب أن تغمرنا بركات هذا الكتاب العظيم المبارك بتوفيق الله تعالى لنا لتدبر آياته، والعمل بما فيها من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والمكارم والآداب، امتثالا واجتنابا، إنه قريب مجيب.

قوله تعالى: ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل.

قد قدمنا ما يوضح هذه الآيات إلى آخر القصة من القرآن في سورة «مريم» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما أفحم قومه الكفرة بالبراهين والحجج القاطعة لجئوا إلى استعمال القوة، فقالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين [٢١ \ ٦٨] أي: بقتلكم عدوها إبراهيم شر قتلة، وهي الإحراق بالنار.

ولم يذكر هنا أنهم أرادوا قتله بغير التحريق، ولكنه تعالى ذكر في سورة «العنكبوت» أنهم قالوا اقتلوه أو حرقوه [٢٩ \ ٢٤] وذلك في قوله: فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه [٢٩ \ ٢٤] .

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٦٥/٣

وقد جرت العادة بأن المبطل إذا أفحم بالدليل لجأ إلى ما عنده من القوة ليستعملها ضد الحق.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: إن كنتم فاعلين أي: إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرا مؤزرا، فاختاروا له أفظع قتلة، وهي الإحراق بالنار، وإلا فقد فرطتم في نصرها.

قوله تعالى: قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين.

في الكلام حذف دل المقام عليه، وتقديره: قالوا حرقوه فرموه في النار، فلما فعلوا." (١)

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١٦٢/٤